فرانسوا ديكريه

قرطاجة

أو

امبراطورية البحر

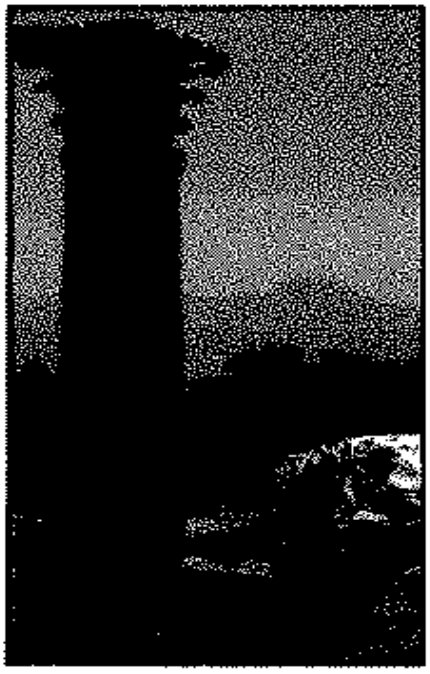

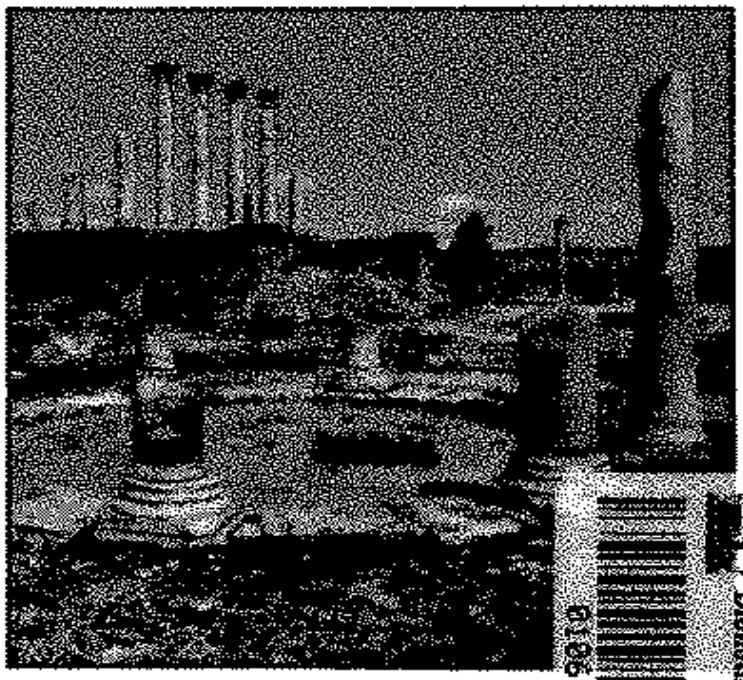

Bibliotheca Alexandrina
0136116

ز الدين أحمد عزو

الأهالي

قرطاجة
أو
امبراطورية البحر

* قرطاجة أو امبراطورية البحر
* فرانسوا ديكريه، ت: عز الدين أحمد عزو
* الطبعة الأولى ـ ٧ / ١٩٩٦
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩ ـ ص.ب ٩٥٠٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧
* التوزيع:
قسم التوزيع ـ الأهالي للنشر والتوزيع
دمشق ـ هاتف: ٢٢١٣٩٦٢ ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧

فرانسوا ديكريه

قـرطـاجـــــة
أو
امبراطورية البحـــر

ترجمـــة

عز الدين أحمد عزو

مراجعة وتحقيق

الدكتور عبد الله الحلو

تقديـــم

لا أظن أني أبتعد عن الواقع إذا قلت أن الأبحاث التي ظهرت في سوريا، والتي تتناول تاريخ الكنعانيين عموماً والقرطاجيين خصوصاً على مدى عدة عقود من الزمن هي من الندرة بحيث تعد على أصابع اليد الواحدة، ولنقل حسب التعبير المعروف: كندرة المطر في الصيف. وأبرز مايمكن ذكره منها كتاب جورج مصروعه بعنوان «هنيبعل» الذي صدر في بيروت بين عامي 1959 و 1960 والذي يعتبر بحق عملاً جديراً بالتقدير. ثم كتاب أسد الأشقر «الحضارة الكنعانية السورية في حوض المتوسط» وهو القسم الثاني من الجزء الأول من سلسلة «تاريخ سوريا» والصادر أيضاً في بيروت سنة 1980، وليست بي حاجة للتفصيل في أمر يدركه الكثير من القراء بلاشك، وهو أن مكتبات الدول الأوروبية مثلاً تحتشد في رفوفها آلاف الكتب في تاريخنا القديم، ونتيجة لذلك نلمس بأنفسنا أن الفرنسي أو الإيطالي أو الألماني مثلاً لديه من المعرفة عن ماضينا وتراثنا أكثر مما لدينا نحن.

ما من أحد ينكر أن المعرفة هي الأساس في اكتمال البنية الفكرية والاجتماعية وبالتالي صقل الشخصية القومية. وليس المراد هنا أن نعرف شيئاً عن المطبخ الصيني أو المطبخ الفرنسي... أو الفولكلور الاسباني... إلخ، إنما الأهم والأساس في ذلك هو ـ معرفة الذات قبل معرفة الآخرين ـ هذه المعرفة التي تفصلنا عنها هوّة عميقة. إن من المفارقات الغريبة أن يكون أسلافنا الكنعانيون (والآراميون

وغيرهم) قد ماتوا عندنا منذ عهد بعيد وطواهم النسيان، بينما هم مايزالون أحياء عند الأمم الأخرى. . . أحياء من خلال آثارهم ومأخذته هذه الأمم عنهم من علم وحضارة إنسانية. . . أحياء من خلال المؤلفات التي لاتحصى، والتي تتناولهم بالدرس والتفصيل. . . أحياء حتى من خلال بعض الاستعمالات في الحياة اليومية الحاضرة.

ولا أحسبني أخرج عن الحقيقة إذا قلت أن ماأثار حماس واهتمام بعض الأميركان في القرن الماضي من وجود اثار في قارتهم تشير إلى الكنعانيين قبل كولومبوس بألفي سنة، كان بالدرجة الأولى شعورهم الخفي بالافتقار للعمق التاريخي الحضاري، وأنه ليس لديهم مايعتزون به سوى المال والحديد. . . وأن الأمم التي كانت ومازالت عظمى في أوروبا، والتي أفرغت بلادنا من أروع ماكان فيها لتكدسه في متاحفها وتتباهى به، ولم تكفّ عن ذلك بشكل أوبآخر، هذه الأمم لم تزل رغم عظمتها تسبر ماوراء الحجارة والصخور وماتحت الأتربة في أراضيها علّها تكشف عما يبحث فيها اعتزازاً بماضي يُذكر. . . إنه لمن الإنصاف أن أقول أن هذا الكتاب عندما قُدم إليّ لمراجعته وجدته كقطرة الماء على الأرض العطشى، سواء في ذلك العناية التي أولاه إياها المترجم أو البحث العميق الذي توخاه المؤلف في فصوله.

إن العبارات التي أخذها المؤلف عن الشاعر الفرنسي «بول فاليري» مفتتحاً بها كتابه. . . «ونحن أيتها الحضارات نعرف أننا إلى زوال. . . فكم سمعنا عن اختفاء عوالم كاملة وعن امبراطوريات غرقت بأهلها وألغازها! . . . ونعرف أيضاً أن كل هذه الأرض التي أمامنا إنما صنعت من رماد، وأن هذا الرماد إنما يدل على شيء ما. . . ولمحنا عبر ضباب التاريخ أشباح السفن الضخمة حاملة معها الغنى والفكر. . .».

هذه العبارات جعلتني أعود بالذاكرة ثلاثين سنة للوراء عندما كنت لا أزال طالباً في المدرسة، وكنت إذ ذاك قد طالعت كتيباً للدكتور كمال الطويل عنوانه «قصة الكفاح بين روما وقرطاجة. . أروع مأساة عرفها تاريخ البشرية». ومازلت أذكر كيف

كانت مشاعري لدى مطالعته ترسم خطاً بيانياً غريباً من نوعه، يرتفع عالياً مع فصول القوة ليعود فينهار مع الفصول المظلمة، وإن من يطالع هذا الكتاب الذي بيدي، والذي دعاه صاحبه «قرطاجة... امبراطورية البحر»... هذه الحقبة المذهلة من تاريخنا القديم... ويتمعن في تلك النهاية الفريدة في تاريخ الأمم، قد يحسّ في قرارة نفسه ذلك الخط البياني الذي وصفته، ولكنه سيكتشف بالتأكيد أنها «أروع مأساة عرفها تاريخ البشرية»...

إن نشوء الامبراطوريات وازدهارها ثم اضمحلالها أمر مألوف في التاريخ بكل مراحله ولكنه هنا مختلف تماماً، لقد عرفت بلاد الرافدين عصر الامبراطوريات الذي كانت تنهار فيه قوة عسكرية سياسية أمام قوى أخرى تخضعها وتحل محلها، كانهيار الامبراطورية الآشورية ثم البابلية الحديثة أمام قوة الامبراطورية الفارسية، وانهيار هذه فيما بعد أمام امبراطورية الاسكندر، ثم اضمحلال هذه أيضاً، لتسيطر الامبراطورية الرومانية بعد ذلك....

غير أن امبراطورية القرطاجيين تتميز في التاريخ كله بأنها زالت من الوجود دولةً وشعباً بعد سقوطها أمام الرومان... زهاء سبعة قرون من البناء والفن والانتاج والتجارة والحروب... حكم عليها بالفناء التام والصمت المطبق، لتعود الأرض من جديد فتكشف عن موجوداتها التي تنطق بالقليل القليل عما كان في قرطاجة.... سيدة البحار... وإنها لَعِبْرة حقاً..

د. عبد الله الحلو

صورة جوية شاملة لمدينة «قرطاجة»

To: www.al-mostafa.com

مقدمة المترجم

تحتل المواجهة الدامية بين قرطاجة وروما مكاناً بارزاً في تاريخ الحضارات القديمة، فلقد انتهت بحدثين خطيرين كان كلُّ واحد منهما ناتجاً بالضرورة عن الآخر. إبادة حضارة وإفناء شعب من جهة، ومن جهة ثانية انبعاث حضارة أخرى وارتقاؤ ها إلى مصاف الامبراطوريات. . .

ومايلفت النظر، ورغم المعاني الخطيرة التي حملها انهيار قرطاجة تحت ضربات الغازي الروماني، إن هذا الأمر لم يأخذ حقه في التحليل والبحث منا نحن، أخلاف أولئك الذين حاولوا أن يجابهوا المارد القادم من أوروبا، في حين أن قرطاجة، وهانيبعل على وجه الخصوص، مثلت في الفكر الغربي، ولاتزال، دلالة على أول تحدٍ حقيقي جابه نهوضه.

«لقد كان ذنب قرطاجة أنها كانت عظيمة في وقتٍ بدأ شأن روما فيه يرتفع» هكذا يقول «فرانسوا ديكريه». ويحق لي أن أُضيف أن ذنبها، وهذا سبب انقراضها، هو أنها عاشت طوال تاريخها المديد تحكمها نفس المفاهيم والعادات والتقاليد التي حملها معهم روّادها الأول، حتى أصبحت لهذه المفاهيم والعادات والتقاليد صفة القداسة والجمود في عالمٍ متحرك دائم التطور. «وإذا كانت قرطاجة في حقيقتها الحضارية حلقة من حلقات الحضارة الكنعانية السورية، فإنها مع ذلك لم تكن حلقة خلاّقة في فكرها السياسي، إذ أنها صُبّت في قالب صوري الأصل، وظلت

وفيةً، حتى ساعاتها الأخيرة، لذلك الأصل»(*). لقد تغافلت طوال تاريخها عن شدّ المدن الكنعانية المنتشرة في شمال أفريقيا وسواحل المغرب واسبانيا وجزر المتوسط الغربي، في رباطٍ يصهرها ضمن دولة موحدة الأهداف والمُثل . . . لقد بقي هناك قرطاجيون، ونوميديون ومغاربة وليبيون . . . كلٌ يحارب في سبيل مُثل عليا خاصة وأهداف مختلفة . . . بل ومتناقضة أحيانا. وفي نهاية المطاف، أصبحت قرطاجة ـ المدينة تواجه وحدها، بعد انفضاض المدن التابعة لها عنها، تواجه روما ـ الدولة التي كانت قد تمكنت من توحيد مدن شبه الجزيرة الإيطالية تحت راياتها. وهكذا يعكس بالفعل الوضع السياسي الذي كان يسيطر على كنعانيّ الساحل السوري الذين كانت مدنهم غالباً ماتتعرض منفردة لغزوٍ خارجي دون أن تشكل قوة أو ائتلافاً إلاّ ماندر.

لقد كانت قرطاجة عند نشوئها بنت ألفي سنة، وكانت على عراقتها الحضارية تحمل في طياتها معاني التحجر في الفكر السياسي، «إن انتصاراتها لم تفجّر في فكرها صيغة قومية متجددة، في حين أن روما، البدائية في مستواها الثقافي والحضاري، في أساليب زراعتها، كانت تنمو وتتطور وتكتشف نواميس الحياة وتسير نحو وحدتها الاجتماعية والقومية. على الساحل الأفريقي الشمالي وفي غرب المتوسط، كانت قرطاجة منفلشةً دون أن تكون لها قاعدة قومية في الوطن الأم، أو قاعدة محلية أفريقية تشدّ الكنعانيين في وحدة تجعلهم أقوى قوة في غرب المتوسط»(**). إن الحرب التي شنها هانيبعل على روما تعتبر «منعطفا تاريخياً لنمو الإنسان . . . فالتجربة الصعبة التي زُجّ فيها الرومان أثبتت أن الوحدة الشعبية التي صُنعت في الفوروم ومجلس الشيوخ كانت متفوقة على القوة المنبثقة عن العلاقات العائلية وحتى من قِدرة الفرد العبقري . . .»(***).

---

* أسد الأشقر، الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي ـ الجزء الأول، القسم الثاني (الحضارة الكنعانية السورية في حوض المتوسط) ص 40 ـ منشورات مجلة فكر ـ ط ١، بيروت 1980.

** ج. ب. بيكر، هانيبعل، ص 297 - 303.

إن مابين يدينا هي الطبعة الثالثة من كتاب الأستاذ «فرانسوا ديكريه» [قرطاجة أو امبراطورية البحر]، وكان دافعي لنقله إلى العربية هو ماذكرته سابقاً من قِلة المصادر التي توجد في مكتباتنا عن تلك الحضارة العظيمة.

يعترف المؤلف في مقدمة كتابه أن معظم المؤرخين تناولوا تاريخ قرطاجة من زاوية علاقاتها بروما وحروبها الثلاث معها، ولم يدرسوها ويبحثوا فيها كحضارة أصيلة وكامتداد لحضارة الفينيقيين الذين كانوا قد عمّروا الشاطيء السوري قبل قرطاجة بألفي عام. وبنتيجة ذلك أتت معظم البحوث منقوصة شوهاء، وأكثر من ذلك، كانت في معظمها متجنية على قرطاجة وشعبها، لاسيما أن معظم المراجع المعتمدة حتى وقتٍ قريب كانت إغريقية أو لاتينية، مما يفقدها صفة الموضوعية.

لقد اعتمد الأستاذ «ديكريه» على مصادر قيمة لإنجاز عمله، فإضافة إلى الوثائق الأثارية التي أصبحت عديدة في هذه الأيام والمراجع التاريخية لعلماء مشهورين في هذا المجال، يقوم مؤلفنا بإجراء مطابقة بين ماكتبه المؤرخون القدامى، الرومان والإغريق، وبين اللقى الأثرية المكتشفة حالياً. وهو إن نجح في بعض الأحيان، إلا أنه لم يتمكن من أن يجعل ذلك سمة أساسية في عمله، إذ لاتزال توجد أبحاث عديدة، مثل «رحلة حنون البحرية» بحاجة إلى شواهد مادية تقدم عنها التفاصيل، كما أن الباحثين في الآثار والتاريخ القديم لايزالون ينتظرون حتى اليوم أن تكشف الصحراء الأفريقية عما يشير إلى تلك المدن التي بادت والتي تجمع المصادر القديمة على أنها لاتقل عن ثلاثمائة مدينة، كان قد أسسها الفينيقيون في افريقيا وعلى سواحلها الغربية.

وخلال استعراض فصول هذا الكتاب بشكلٍ عام، لوحظ أن المؤلف ربما تقيد مسبقاً بخطةٍ هدفها الاختصار، إذ أن تاريخ قرطاجة، وخاصة في المرحلتين الثانية والثالثة من الحروب البونية، كان يمكن أن يكتب فيها الشيء الكثير، إلا أننا لمسنا اختصاراً إلى حدٍ بعيد، وخصوصاً في الفترة المتعلقة بتشرد «هانيبعل» ومابعده، والحرب البونية الثالثة التي انتهت بزوال قرطاجة.

هذه الحقبة الطويلة الصاخبة المتعددة الألوان من حضارة وحرب، والتي

تجمع المصادر على أنها قاربت سبعة قرون منذ نشأتها حتى زوالها، استطاع المؤلف اختصارها في هذا الكتاب وتوزيعها في سبعة فصول، بدأها بلمحة عامة عن قرطاجة، منتقلاً بعدها إلى مدخلٍ مسهب في تاريخ الكنعانيين ووصف عام لطبيعة الساحل السوري. وتحدث في الفصل الثاني عن بدايات قرطاجة موردا الإسطورة الكاملة عن مؤسستها الملكة «إليسار» ومنشأة هذه المدينة التي مالبثت أن برزت في قوة الامبراطوريات، إضافة إلى وصفٍ دقيقٍ لمرافئها ومبانيها العامة. وفي الفصل الثالث يتحدث الكاتب عن الحياة العامة بمختلف جوانبها السياسية والإدارية والاجتماعية ويصف بإسهاب، معتمدا على «أرسطو»، دستور قرطاجة الشهير في تلك الأيام، وينتقل الكاتب بعدها للحديث عن الجيش القرطاجي الذي صنع أمجاد الامبراطورية، ليسهب بعدها في الحديث عن مجالات الحياة المختلفة التي مارسها أهل البلاد من زراعة وفنون وصناعة... وفي الفصل التالي، يبرز مرحلة التوسع القرطاجي في أفريقيا والبحر المتوسط والرحلات الطويلة التي قام بها بحارة قرطاجيون سعياً وراء الثروة في شمال المحيط الأطلسي وجنوبه. منتقلاً بعدها إلى التفصيل في ديانة القرطاجيين. وتتجلى في الفصول التالية روعة الحقبة الدامية في تاريخ قرطاجة وتنازع البقاء بينها وبين روما، وكل ماتخلل ذلك من محاولاتٍ للهدنة والوفاقات التي كانت سرعان ماتنهار أمام طموح الجانبين للسيطرة على المكانة الأولى في العالم القديم، إلى أن يصل الكاتب في وصفه لتلك الكارثة النهائية التي بدأت بما اعتبره الرومان «الحل النهائي»، حيث زالت «سيدة البحار» من الوجود.

إنها محاولة منا لإبراز صفحة لامعة قاتمة من تاريخنا المجيد، وعسى أن نكون قد وُفقنا في تقديم الكتاب بشكل يفي الغرض منه.

عز الدين أحمد عزو
آذار 1992

وقفة في قرطاجة

. . . «ونحن أيتها الحضارات نعرف أننا إلى زوال. فكم سمعنا عن اختفاء عوالم كاملة، وعن امبراطوريات غرقت بأهلها وألغازها! . . . ونعرف أيضاً أن كل هذه الأرض التي أمامنا إنما صنعت من رماد، وأن هذا الرماد إنما يدل على شيء ما. . . ولمحنا عبر ضباب التاريخ أشباح السفن الضخمة حاملة معها الغنى والفكر. . . .»[1].

إن وجدت حضارة قديمة تجعلنا نتذكرها تلقائياً حينما نقرأ ماكتبه الشاعر الفرنسي «بول فاليري»، فإنما هي بالتأكيد تلك الحضارة التي تولدت منها قرطاجة وامبراطوريتها، هذه الحضارة التي غيبتها لجة التاريخ.

ولدت هذه الحضارة فعلاً قبل حوالي ثلاثة آلاف عام، لترث تاريخاً فينيقيا وُجد قبلها بآلاف السنين. فماذا بقي اليوم من تجوال سفنها؟ . . . وماذا بقي من بصمات ذلك الشعب الحذر والمغامر في آن واحد، والذي اقتدى برواده البحريين؟ . . . حتى أن يد الفناء طالت آلهته أيضاً.

وضمن مايُطلق عليه تسمية «العصر القديم الكلاسيكي» لايحتل المصير الفريد لقرطاجة سوى مكان ضئيل، وعلى كل حال فإن تاريخنا يُفرد بعض الصفحات عن ذلك عند الحديث عن الغزو الروماني الذي يُسمى «الحروب البونية»[*].

---

* مشتقة من اللفظة اللاتينية «Poeni» أو «Poenic» التي استخدمها الرومان للدلالة خاصة على ←

إن هذه المواجهة المأساوية التي دارت حوادثها المفاجئة في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، تظهر لنا بما فيه الكفاية مقدار قوة هذا المتروبول الأفريقي ومناهل الحضارة القرطاجية. بيد أن هذه القوة كانت تقترب من نهايتها، إذ أن مصادرها كانت في طريقها إلى السقوط بين يدي منافستها «روما».

لقد كان ذنب قرطاجة أنها كانت عظيمة في وقت كان فيه شأن روما يرتفع...

يهدف هذا الكتاب في البدء إلى الإشارة للمراحل الأساسية لمغامرة شعب. فتاريخ العالم القرطاجي يرقى إلى بداية الألف الأولى قبل الميلاد مع انتشار موجات التوسع الفينيقي الكبيرة، وينتهي هذا التاريخ بعد انتصار صعب حققته فيالق «سيبيون إميليانوس»...

ومع احتراق العاصمة الرائعة اختفت تلك الحضارة تحت أنقاضها. وخلافاً للتاريخ فإن فصوّل هذا الكتاب تهدف أيضاً إلى الاطلاع على حضارة تثبت حيوية يجدر الإقتداء بها. ولقد كان «فلوبير» يرغب بكل تأكيد أن يوضح من هذه الحضارة بعض الظواهر التي جعلته دائماً يعيش في حلمٍ دائم. إننا نتذكر منذ أول جملة خطّها في روايته «سالامبو» كيف يتدفق سحر العالم المفقود.

كان ذلك في «ميغارا Megara»(*) ضاحية قرطاجة وفي حدائق «هاملقار»(**).

فلنترك إعادة تشكيل هذه المشاهد الرومانسية الشهيرة ووفرة الصور الغريبة عنده وهيجان انفعالاته....

القرطاجيين أي الفينيقيين الغربيين. وهي كما تلاحظ مخففة من كلمة «Phoenic» التي اقتصر استخدامها عندهم على الفينيقيين الشرقيين سكان الساحل السوري، الأمر الذي يتطرق إليه المؤلف في الصفحات التالية.

«المحقق»

* أي المغارة. ـ المحقق ـ.

* عُرفت في تاريخ قرطاجة عدة شخصيات باسم «هاملقار» ولكن الأرجح أن تسمية هذا المكان منسوب إلى «هاملقار برقا» والد «هانيبعل».

المحقق

ويهدوء أكثر، ولكن للأسف ببساطة أكثر أيضاً، وبلاتباؤ وهمي في قدرتنا على «بعث» ماقدمته عبقرية شعب، دون البحث باستفاضة في العوامل التي سببت دماره، نقترح الإبحار بحثاً عن نتوء يمكن الوصول إليه في هذه الحضارة الغارقة. إننا نرغب بالتحديد، ومن خلال هذا المدخل، في إبراز الوجه العنيف للحياة وروح المخاطرة التي كانت تنفح أهل صوروصيدون بالحياة، فهم «بحارة مشهورون ولكنهم أناس جشعون». كما يعبر «هوميروس في الأوديسة: XV ص 415». وفي الواقع، رغم أن الحضارة القرطاجية انتشرت في غربي البحر المتوسط بشكل مراكز تجارية كانت هي المعابر البونية. فإن هذه الحضارة بقيت حاملة لأصولها الفينيقية الشرقية. وبالنتيجة إذا كان الفينيقيون قد اشتهروا بكونهم سائقي عجلات البحار، فإن القرطاجيين اقتفوا آثارهم مرتبطين بهذه النزعة. ألم يلجأ المؤرخ الإغريقي «أبيان Applen» في حديثه عن المدينة الأفريقية العظيمة إلى تلك الصورة المثيرة للذكريات عن سفينة ذات مرساة(٢)؟ . . . .

* * *

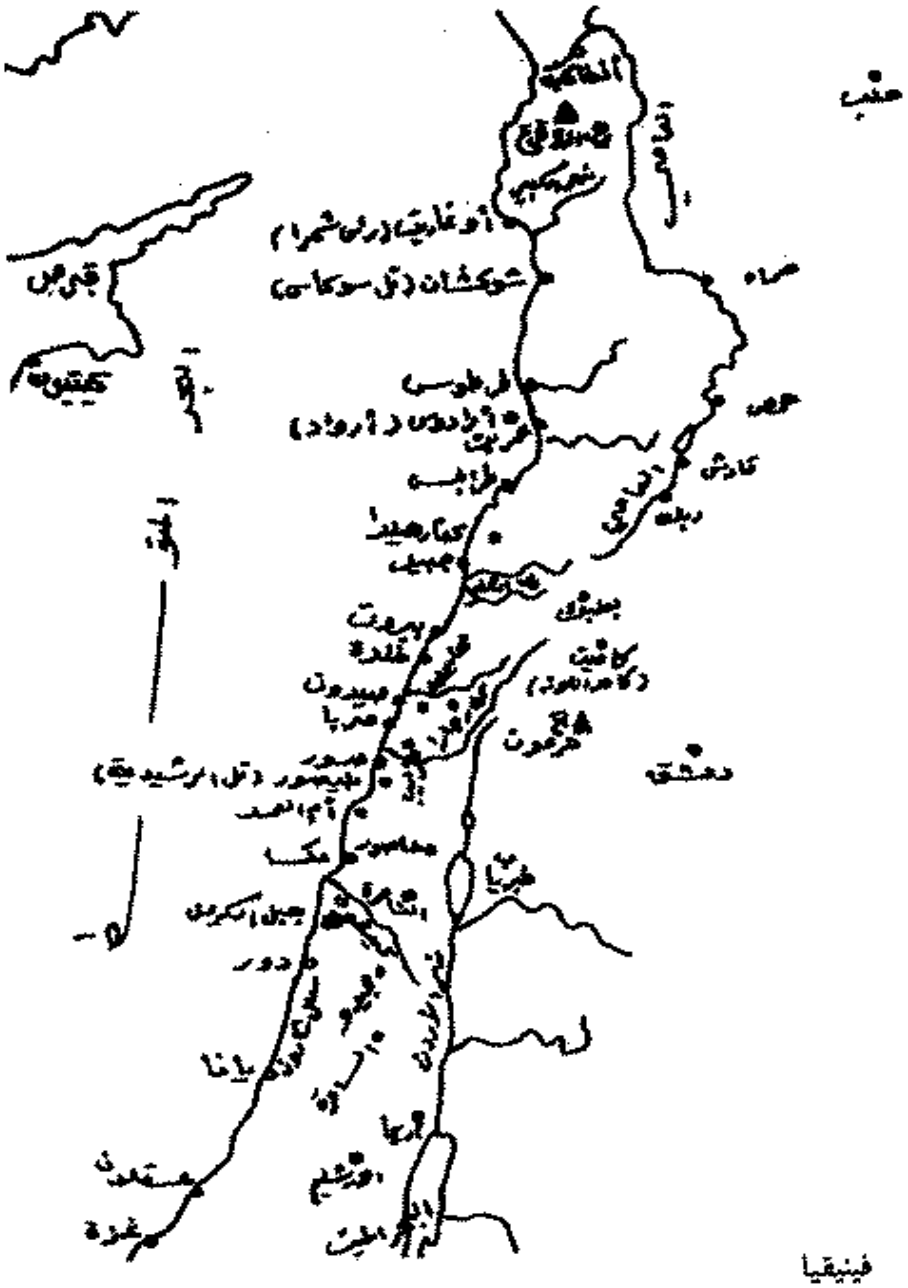

فينيقيا

الفصل الأول

«ياصُور. . .
أنت قلتِ: أنا كاملة الجمال! . . . .»

من الكنعانيين إلى الفينيقيين(*)

لم تكن المستعمرات الأفريقية التي ترجع إلى أصول فينيقية، أو التي اعتبرت هكذا، لم تكن قد نسيت بعدُ هذا الإسم الذي أعطاهم إياه أسلافهم القدامى، حتى بعد ستة قرون من دمار قرطاجة، وكان هذا الإسم حسب لغتهم الأصلية يذكرهم بأرضهم الأم. كتب القديس أوغسطين: «إن سألنا فلاحينا عن هويتهم فإنهم يجيبون باللغة البونية: شنعاني Chanani. وهذا يعني، حين نحذف حرفاً ما من هذه الكلمة، كما يحدث في حالات مشابهة، أن المقصود «كنعاني»[٣]. كان يُشار إلى شعب كنعان الذي يعود بأصوله إلى الساميين الغربيين وأقام حضارة مدينية

* كثيراً مايظن بعض القراء أن الفينيقيين غير الكنعانيين، والحقيقة أن التسميتين لشعبٍ واحد كما سيتضح في هذه الفترة، وهو أمرٌ يدركه المؤلف بلاشك، وإنما أراد بهذا العنوان التمييز بين كنعانيي الداخل وكنعانيين الساحل.

المحقق

تستحق الإعجاب في فلسطين وجزء من سورية، كان يشار إليه بهذا الإسم المحلي منذ أواسط الألف الثانية قبل الميلاد[1]. فلقد كانت غالبية المدن الساحلية وبشكل خاص «جبيل Byblos» منذ أمد طويل موانيء كنعانية، في حين لم يكن قد ورد في أية وثيقة أي ذكر للفينيقيين[*].

وبإمكاننا أن نذكر بهذا الخصوص ملاحظتين: أولاهما تتعلق بالناحية الجغرافية، فرغم أنه من الصعب تعيين أرض كنعان بدقة، ذلك أن «حدودها» كانت متحركة، إلا أنها كانت تغطي منطقة أوسع بكثير من الشريط الساحلي الذي حمل فيما بعد اسم «فينيقيا Phoenicie»[2]. والملاحظة الثانية تتعلق بالترتيب الزمني، فتاريخ كنعان يتحدد بمجمله بعصر سابق لغزوات شعوب البحر.

من جهة أخرى، إن هذا التاريخ قد طبعته بقوة الإتصالات التي حرص الكنعانيون على إقامتها مع العموريين[3] جيرانهم في الشرق، فلقد ضربت قبائل العموريين السامية الأصل خيامها باديء الأمر في سوريا العليا، وتمركزت فيما بعد في هضاب الأردن وتوسعت حتى وصلت إلى تخوم مدن الرافدين. لذا، وإن كان بإمكاننا القول أن إرث الكنعانيين قد انتقل إلى الفينيقيين[**]، فمن الأهمية بمكان ألا ننسى أن هؤلاء الأخيرين قد ورثوا في حقيقة الأمر حضارة شديدة التركيب لم تكن مكونة من امبراطورية مركزية كما كان الحال في منطقة الرافدين ومصر، بل من عددٍ من ممالك المدن انتشرت على طول الساحل السوري الفلسطيني.

وهكذا فإن هذه المراكز التجارية انفتحت في زمن مبكرٍ جداً على تأثيرات خارجية وردت أو تسربت إليها تدريجياً وبشكل متزايد. لقد كانت أرض كنعان القديمة، والتي تقع في ملتقى طرق العالم القديم في تلك المنطقة من الشرق،

---

* والواقع أن تسمية «فينيقيين» حديثة نسبياً بالمقارنة مع تسمية «كنعانيين».

المحقق

** بما أن الأمر يتعلق بإسمين لشعب واحد فقد كان من الأفضل لو عبّر المؤلف هنا بكلام آخر كأن يقول إن إرث الكنعانيين إنتقل إلى المراكز الساحلية.

المحقق

كانت تمثل في ذلك الوقت ميناء واسعاً تصب فيه التيارات المتدفقة من كل البقاع. فمن تلك المناطق الواقعة فيما وراء بلاد الأموريين كانت طرق القوافل تسمح بالوصول إلى الفرات وبلاد الرافدين. وبهذا تمكنوا من عَرض أقمشة جُبيل في مدينة ماري، وكان هذا شاهداعلى مدٍ معكوس. كما وجدت بعض النماذج المميزة للحضارة السومرية منقولة على أعمال فنية من انتاج مدن الساحل الكنعاني. ويمكننا أيضاً الإشارة إلى تأثيرات من قبرص وكريت ومسينا ومن مدن آخية أخرى، وكذلك من جزر بحر إيجة[٧]. وأخيراً من وادي النيل[٨]، وصلت إلى هذه المدن أيضا. إننا نعرف من خلال الأسطورة أن أمواج البحر حملت جسد «أوزيريس» ليجنح على شاطيء جُبيل، ومن ثم عاد ذلك الملك الإله بعملية إبحار معاكسة، ومن على هذا الشاطيء شاطيء فينيقيا، وبفضل عناية «إيزيس» عاد إلى بلده مصر. إن هذه الإبحارات المقدسة ماهي إلا إشارة جديدة إلى الاتجاهات الاقتصادية والثقافية. كما أن نتائج التنقيبات الأثارية الحديثة تسمح لنا بالإشارة إلى أن ميناء أوغاريت «رأس شمرا»، والذي دُمر حوالي عام 1200 ق.م، حافظ على علاقات محدودة مع بحر إيجه وامبراطورية الحثيين، وبلاد الرافدين ومصر.

لقد كان على الكنعانيين خلال تاريخهم الطويل أن يخضعوا لهجمات الغزاة أحياناً ولثقل الامبراطوريات الكبرى التي كانت تتوسع من حولهم أحياناً أخرى. ففي النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد اتسع انتشار الآراميين في المناطق السورية، وهم قبائل سامية كانت قد استقرت في بلاد الرافدين، ورغم استقرار بعض عشائرهم فقط غطّوا تدريجياً كل منطقة الهلال الخصيب.

وفي حوالي عام 1200 ق.م اكتسحت موجة أكثر عنفاً، وهي موجة شعوب البحر[٩]، الامبراطورية الحثية وسوريا قبل أن تتكسر على حدود مصر. ولقد ضرب هذا الاجتياح الشريط الكنعاني بشكل عنيف، إذ أن مدناً كصيدون دُمرت محترقة بدون شك. ونتج عن حركة شبيهة باجتياح شعوب البحر، استقرار شعب جديد هو الـ «البلِنْست: Les Pelest». إذ ورد ذكر الـ «فليستين Les Philistins» في نقش شيد احتفالاً بانتصار «رمسيس الثالث» حوالي عام 1177 ق.م على شعوب البحر. ولقد

استقر هؤلاء الغزاة الذين أعطوا اسمهم للمنطقة «فلسطين» على الشريط الساحلي الممتد من «عسقلان» وحتى «غزة»، مما أدى بالكنعانيين الموجودين في تلك المنطقة إلى التراجع(*). كما حاول أولئك القادمون الجدد أن يوسعوا منطقتهم، بيد أنهم اصطدموا بمنافسين آخر «العبرانيين»(**). إذ أن قبائلهم كانت قد وصلت إلى جنوب فلسطين منذ نهاية القرن الثامن عشر ق.م بحثاً عن أراضٍ. وحين دخلت هذه القبائل أرض فلسطين بقيادة «يشوع»(***) كان أول ماستولت عليه هي المدينة الكنعانية «أريحا». وأبادوا كل مافي المدينة «من رجل وامرأة وطفلٍ وشيخ، حتى البقر والحمير والغنم» ـ يشوع: 21:6 ـ. وفيما بعد، ومع تواصل الغزو، ظهر اتجاه توحيدي (بين ممالك المدن) كان عليه أن يستمر بفعل المعاهدات وعبر استيعاب تدريجي قروناً عديدة.

---

* إن مسألة ماسُمي «شعوب البحر» بحد ذاتها مسألة فيها الكثير من الغموض وتصطدم بتساؤلات عديدة لم تجد أجوبة واضحة، سواء فيما يخص موطنها الأصلي أو لغاتها أو من حيث مصيرها. وقد تعارف الباحثون على هذه التسمية ووردت في مؤلفات كثيرة دون تفاصيل عنها في النصوص القديمة. أما مسألة ربط الفلسطينيين بهذه الموجة أو تشبيههم بها، سواء من حيث المنشأ أو من حيث الترتيب الزمني، ففيها أيضاً الكثير من الشك وعموماً، اعتمد الباحثون في التاريخ القديم، ومنذ القرن الثامن عشر، على التوراة كمصدر تاريخي للمنطقة. وبعد ذلك، اعتمدوا على النصوص الهيروغليفية والمسمارية. ولو سلّمنا بالتوراة (خاصة أسفارها الأولى) كمصدر «سرد تاريخي» لتبين لنا الكثير من المعلومات والتواريخ المغلوطة أو المرتجلة. فاستناداً إلى المرويات التوراتية، تعارف المؤرخون على أن قدوم ابراهيم مع قبيلته العبرية إلى أرض كنعان كان حوالي القرن الثامن عشر ق.م. وإن من يقرأ مابين الإصحاح العشرين والثاني والعشرين من سفر التكوين، يلاحظ بكل وضوح كيف كان العبرانيون لايزالون في ذلك الوقت قبيلة متنقلة لاتجد مستقراً لها، في حين تذكر الفصول اسم «أبي ملك» كأحد ملوك الفلسطينيين الذين كانت لهم مدن متعددة وكيف التجأ ابراهيم إلى مملكته.. «وتغرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة». ـ سفر التكوين: 34:21 ـ. ثم كيف ماتت زوجته سارة «في قرية أربع التي هي حبرون في أرض كنعان» ـ تكوين: 2:23 ـ. وكيف وهبه «عفرون الحثي مغارة المكفيلة» ليدفن زوجته ـ تكوين 23 ـ. وباختصار يتضح لنا أن الفلسطينيين آنذاك كانت لهم

←

ومن الواضح أن استقرار هذه الشعوب المختلفة في أرض فلسطين، وضمن مجال توسع المدن الكنعانية وكذلك هجرات الآراميين، أدت لأن تحافظ هذه المدن على ظروف خاصة، ولم يكن بإمكان مثل هذه الظروف إلا أن تؤدي إلى نتائج تؤثر على مسار تطورها التاريخي، وعلى تطور البلاد كلها أيضاً.

لم يكن تاريخ هذه المنطقة يقترب من نهايته رغم مآسي الزمن التي داهمتها، بل على العكس، إذ أن حقبة جديدة بدأت في القرن الثاني عشر وحتى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، تمكنت خلالها المدن الكنعانية من الإفلات من تطويق جيرانها الجدد متمتعة بعهد طويل من الاستقلال. على أن هذا الإستقلال كان يزول بين

جبيل، الإله «رشف» (برونز)، القرن التاسع عشر أو الثامن عشر ق.م)

مملكة أو «ممالك» مستقرة لم تنشأ وتتوطد فجأة أو نتيجة غزوة طارئة بل تطلبت ردحاً طويلاً من الزمن قبل قدوم القبيلة العبرانية (في القرن الثامن عشر) مما يجعلنا نستبعد أيضاً ربط الفلسطينيين مع موجة شعوب البحر التي يحدد الكاتب حصولها حوالي 1200 ق.م. والتي لم تُنشيء مدناً ولم تترك آثاراً مكتوبة.

المحقق

* * ماذكرناه في الملاحظة السابقة ينفي تعبير «القادمون الجدد» كما أراده المؤلف. علماً أن منافسة العبرانيين وتوسعهم حصل فعلاً ولكن في القرون اللاحقة.

المحقق

* ** أي بعد الخروج من مصر بزمن طويل.

المحقق

الحين والآخر عندما كان الآشوريون يمدّون سلطتهم غرباً، كالحملة التي قادها «آشور ناصر بعل الثاني (883 - 859 ق. م)(*) والتي خُلِدت على نصب الثيران والأسود كما يلي: «. . . الجزية التي أخذتها من ملوك الشاطيء البحري. ملوك صور وصيدون وجُبيل، وأرواد، من الفضة والذهب والقصدير والنحاس والأواني البرونزية وألبسة الصوف المصبوغ وألبسة الكتان والقرود الكبيرة والصغيرة ومن خشب الأبنوس ومن الـ (buis?..) والعاج و. . . ، تلقيت كل ذلك كجزية، كما أنهم قبلوا أقدامي» إن مؤشرات التبعية المؤقتة لم تكن مشابهة أبداً لظروف التبعية المصرية القديمة، التي كانت أشد وطأة تحت حكم فراعنة الأسرة الثامنة عشرة (وخاصة تحوتمس الثالث). وحين تراجعت موجات شعوب البحر اتجهت فينيقيا نحو التمتع برخاء حقيقي. إن الجزية المقدمة لـ «آشور ناصر بل»، كما ورد آنفاً، تعطينا فكرة واضحة عن الغنى والترف عند الفينقيين.

ربما يكون اسم «فينيقيا» قد ظهر للمرة الأولى بدءاً من الربع الأخير من الألف الثانية ق. م. ضمن ظرف تاريخي استدعى ذلك. وقد لايكون من التعسف أن ننطلق بالحديث هنا عن هذا الفرع النشيط من الشعب الكنعاني اعتباراً من هذه الحقبة التاريخية. فالفينيقيون الذين لاتغطي أراضيهم سوى جزء بسيط من أراضي أسلافهم، كانوا يتجهون ليرسموا لمصيرهم خطاً جديداً.

قد يكون من المناسب أن نقدم في البداية بعض الملاحظات، إذ يبدو أن كلمة «كنعان» هي عبارة عن تسمية جغرافية استخدمها أهل البلاد الأصليون(١٠). وقد يكون اعتباطاً، رغم العديد من الإفتراضات، أن نطمح لإيجاد اشتقاق غريب لهذه التسمية قد يتضمن دلالات فيما يخص ظروف البلاد أو سكانها أو صناعاتها ومايتعلق بنشاطاتها التجارية. والمشكلة معقدة جداً حينما نحاول البحث عن أصل اسم

---

* كانت في الواقع واحدة من عدة حملات خلال قرون عديدة لتوحيد الأراضي الواقعة غرب نهر الفرات تحت السلطة المكزية لامبراطورية الرافدين.

المحقق

«فينيقيا». وليس لدينا هنا المجال للتوسع في إيراد مجمل التفسيرات ونقائضها، والتي تم التطرق إليها فيما سبق. إن كلمة «Phoinike» يُقصد بها البلاد، وكلمة «Phoinix-جمعها Phoinixes» يُقصد بها سكان البلاد، وكان قد استخدمها «هوميروس»، وربما ترجع التسمية إلى زمنٍ أقدم. ويظن بعض اللغويين أن الكلمة الإغريقية «Phoinix»، والتي تعني الأرجوان، ذات أصلٍ هندو ـ أوروبي تحديداً، وعلى هذا أُشيرَ إلى «فينيقيا» على أنها «بلاد الأرجوان». ونحن نعرف بما فيه الكفاية أن المدن الفينيقية قد ذاع صيتها في الحقيقة بفضل صناعة الأرجوان. لكن هذا التفسير الشائع جداً بالتأكيد لايحل المشكلة إلا في الظاهر، إذ أنه من الصعب أن نسلّم بأن اسم مدينة أوبلدٍ أوأن إسم سكان هذه المدينة أوالبلد قد يشتق من هذه البضاعة أوتلك أومن أسماء منتوجات محلية(*). ومن الأجدر بنا أن ندقق في الظاهرة المعاكسة: إن تسمية منتوج ما ترجع إلى أولئك الذين صنعوه أوتاجروا به، وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نتحدث عن الأقمشة، فالداماس والموصلين لم يعطيا اسميهما إلى «دمشق» و«الموصل»، بل العكس هوماحدث، لذا ربما كان علينا أن نعكس الأوضاع(**).

قد يبدو اسم «Phoinix» مشتقاً من جذر سامي(11)، ونتيجة ذلك فمن الممكن أن نكون قد اشتقت من هذا الجذر نفسه تسمية شعب كنعان، ثم انتقلت هذه التسمية إلى اللغة الإغريقية على شكل، «Phoinike» التي يمكن أن تكون قد أعطت

---

* مع أنه توجد أمثلة تثبت مايرفضه الكاتب. فمدينة «جُبيل» الساحلية اشتهرت بتصدير ورق البابيروس للكتابة، فسماها اليونان «بيبلوس Byblos» التي توحي بمدلول ـ مخزن الكتب ـ، كما أن الإسم اليوناني اللاتيني «بالميرا Palmyra» مشتق من كلمة «Palme» التي تعني شجرة النخيل، لأن التمر كان من جملة المواد التي تاجرت بها مملكة تدمر وصدرتها إلى الرومان (انظر كتاب «تحقيقات في الأسماء الجغرافية السورية» تأليف الدكتور عبد الله الحلو).

المحقق

** هذا المثال منطقي، ولكن ماقلناه في الملاحظة السابقة أمرٌ ثابتٌ أيضاً.

كلمة «Phoinix» (***) التي يشير بها الفينيقيون للدلالة على اللون الأرجواني وهو ماكانوا قد اختصوا به لوحدهم حيث اشتهروا في البحر المتوسط بتجارة الصوف والأنسجة المصبوغة . وإنه لمن غير المفيد في هذا الإطار أن نستفيض أكثر من ذلك في مسألة كهذه بعيدة عن أن تحسم . ونضيف ببساطة أن الأسماء الاغريقية التي تدل على فينيقيا وسكانها نُقلت بواسطة الرومان . ومع ذلك ، فإن الرومان ، ولأسباب تاريخية . ميزوا بين الفينيقيين الأصليين ، أي فينيقيي الشرق ، في الساحل السوري ، «Las Phoenics» وبين فينيقيي الغرب ، أوبتعبيراً أدق ، بعدما أصبحوا في الغرب ، في شمال أفريقيا ، واختلطوا بالسكان الأصليين ، وواجهوا الرومان طوال أكثر من قرن ، فأطلقوا عليهم تسمية «Poeni» البونيين . ومما نود أن نشير إليه أيضاً أن اسم

---

* ** لاأتصور أن المؤلف يعني فعلاً مايقول بهذه الحرفية ، إذ من غير المعقول اشتقاق كلمتين مختلفتين تماما في حروفهما وبنائهما من جذرٍ واحدٍ . أما أن تكون تسمية «فينيقيا وفينيقيين» من أصلٍ محلي ـ ولنقل سامي ـ كما يعني واكتسبت فيما بعد طابعاً يونانياً من حيث اللفظ ، فمسألة ممكنة تماماً . ولكن هناك أمرين لابد من توضيحهما : الأول أن اللفظة ليس لها وجود في الكتابات الكنعانية أو الآرامية القديمة مما يشير إلى أنها لم تكن مستخدمة محلياً في تلك الحقبة التي كانت تستخدم فيها لفظة «كنعان وكنعانيين» ، وإن ورودها في بعض المعاجم الآرامية بشكل [illegible] فينيقيا ، وفي السريانية بشكل [illegible] فينيقيا ، أو [illegible] فونيقيا» يشير إلى أنها أدخلت معجمياً في فترات لاحقة عن اللفظ اليوناني ، غير أنه لاينفي كونها استخدمت في فترة حديثة نسبياً . والأمر الثاني هو البحث عن جذر ممكن لاشتقاق التسمية ، والذي يجب أن تتوفر فيه الحروف الثلاثة «ف ن ق» في اللغات المحلية . واستناداً لوجود هذا الجذر في الآرامية [illegible] فنق» وفي السريانية [illegible] فنق» وكذلك في الكلدانية «[illegible] من الآرامية الشرقية فإنه يكون من المعقول أن التسمية اشتقت منه ـ ولكن في زمن متأخر نسبياً ـ والجذر له مدلول : الترف والتنعم والدلال . وعندما نعرف أن الفينيقيين كانوا بالفعل شعباً مترفاً منعماً . فلا نستطيع استبعاد هذه التسمية بهذا المدلول . ولكني أرجح هنا أنها أطلقت عليهم من قبل جيرانهم الآراميين في داخل سوريا ثم استخدمها اليونان .

المحقق

«القرطاجيين Carthaginienses» في الأدب اللاتيني لايدل فقط على سكان العاصمة البونية «قرطاجة» بل أيضاً على مجمل فينيقيي الغرب.

«ممالك» فينيقيا

يمكننا بالتأكيد أن نفهم قدر فينيقيا بفضل عبقرية شعبها. ولكن، وكما يحدث في كل مكان، فإن هذه العبقرية حُددت بظروف جغرافية ضاغطة. وبالنتيجة، ومثلما كان يحدث في مناطق أخرى، فإن هذا الظرف الخاص مثل عنصراً أساسياً في توجيه تاريخ هذا الشعب.

كانت «فينيقيا» تتألف من شريط محصور بين ساحل البحر المتوسط في الغرب وسلسلة جبال لبنان وامتداداتها في الشرق. أما حدودها الشمالية والجنوبية فمن الصعب تثبيتها بدقة. إذ أنها غالباً مماكانت تخضع لبعض التغيرات خلال القرون. ويجري الحديث أحياناً عن «فينيقيا الكبرى»، التي ربما تكون قد امتدت مابين جبل كاسيوس «الأقرع» شمالاً وسهل «شارون» في أعالي «يافا». ومن دون شك، فإن هذه المنطقة كانت تغطي، وحتى قبل ذلك، أرض كنعان القديمة*. مع ذلك

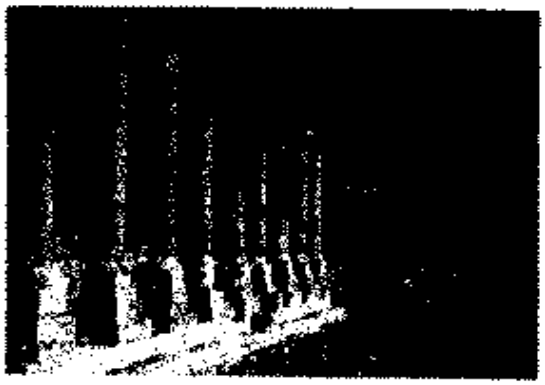

صور، موقع المدينة القديمة

* أضيف على مايقوله المؤلف أن أرض كنعان بالحقيقة امتدت أكثر من ذلك إذ شملت كل غور الأردن وعلى جانبيه. المحقق

فإن السهل الساحلي السوري الفلسطيني لفينيقيا الأصلية لم يكن طوله يتجاوز الـ 300 كم. ويبدأ من موقع «شوكشان Shuuoshan» القديمة ـ تل سوكاس اليوم في شمال الساحل السوري ـ ويصل إلى مدينة «عكا» أو إلى الجنوب قليلاً حتى جبل الكرمل. ومما تجدر ملاحظته أن السهول الساحلية لهذه البلاد لاتشكل أبدا شريطا عريضاً أو جادة تمتد بشكلٍ منتظم على حواف المتوسط، ويمكن للمسافرين جوا فوقها أو للقادمين من عرض البحر ملاحظة ذلك بكل بساطة، إن مظهر الإقليم الساحلي في سوريا، بل وحتى في الجليل يختلف بشكل كبير عن المظهر الموجود إلى جنوبه في سهول «سيخالا وشارون».

يمتد جبل لبنان باتجاه الشمال حتى محاذاة جبل العلويين «الأنصارية» وبطولٍ يبلغ حوالي مائة كيلومتر وارتفاع يتجاوز الثلاثة الاف متر أحياناً. وهذه السلسلة الوعرة لاتشكل حاجزاً موازياً للساحل فقط، بل إن طياتها تعرقل في الحقيقة النطاق البحري الذي يضيق إلى حدٍ كبير قياساً إلى السهول الوسطى في فلسطين. إن هذه الحافات الصخرية التي غالباً ماتنبثق عن كتلة المرتفعات، تتقدم في البحر على شكل نتوءات بارزة أو تشرف على جروف نارية وحمراء اللون. وللسهل الساحلي، الذي لاتصل حوافه إلى الشاطيء، عرضٌ يتراوح مابين إثني عشر وخمسين كيلومتراً. وبهذا الشكل نرى عدداً من القطاعات المنفصلة نسبياً وذات أبعاد مختلفة. تضيق كثيراً أو قليلاً، محصورة بالبحر من جهة ومن جهة أخرى بكتلة جبلية صعبة العبور تنتشر فيها الشعاب والوديان، مع بعض المجاري السيلية التي تجف صيفاً وتملؤها شتاء الفيضانات من الأمطار وذوبان الثلوج.

في مثل هذه القطاعات انتشرت المدن الفينيقية. وكانت بعض متحداتها تعيش حياة شديدة العزلة إلا إذا لجأت إلى الملاحة الشاطئية، ولم يكن بمقدورها الإتصال مع جيرانها إلاّ عبر بعض المضائق أو الممرات الضيقة لجرفٍ ذي حواف يشبه نوعاً من السلالم درجاته محفورة في الصخر. لقد كان لمثل هذه التضاريس تأثير على تطور المدن الفينيقية بل وعلى التاريخ الفينيقي كله.

إن هذا القطاع (أو الشريط) الساحلي قبل كل شيء، حتى لو لم يكن متقطعاً

بالكتل الجبلية كما وصفنا، لأقلّ بكثير من أن يكوّن مجالاً إقليمياً لدولة عظمى كتلك التي أنشأها قادة بلاد الرافدين ومصر وملوك الحثيين في الأناضول. ونلاحظ بهذا الخصوص أن حقبة استقلال الفينيقيين لم تكن ممكنة إلا بعد اضمحلال أو ضعف جيرانهم الأقوياء بعد غزوات شعوب البحر. إن الظروف التي فرضتها الجغرافيا لاتسمح بإنشاء امبراطورية فينيقية، فالمدن الرئيسية المحصورة بين البحر والجبل، كان بإمكانها على الأقل أن تكون نفسها بدءاً مالقرن الثاني عشر قبل الميلاد، وبوحدات صغيرة جداً، لتصبح فيما بعد «ممالك» سريعة الزوال: صور، صيدا، جُبيل، عكا، أرواد. وكانت أحياناً المدينة الأقوى تخضع جاراتها وتحولها إلى مدن تابعة لها(*).

---

* يلاحظ أن المؤلف يركز في هذه السطور على الجغرافيا كعامل أساسي في إعاقة قيام امبراطورية فينيقية. وأرى أن عليّ إيضاح عوامل أخرى تعتبر موازية في أهميتها للعامل الجغرافي. فالدول الساحلية لاتحتاج بالضرورة إلى العمق القاريّ الكبير لتكون دولاً بالمعنى الصحيح. ومن خلال وصفه فيما سبق وفيما يلي أيضاً نرى أن هذه المراكز الفينيقية المنتشرة على طول الساحل السوري إضافة للمدن الداخلية في سوريا العميقة، كان بإمكانها أن تكوّن اتحاداً مستمراً بعكس ماكانت عليه، لاسيما وأن هذه المراكز كانت تحتل المقام الأول في القوة البحرية في المتوسط خاصة وفي العالم القديم عامة. ولكن العوامل التي يجب إيضاحها تكمن في طبيعة الكنعانيين (الفينيقيين) وطريقة حياتهم. فمن المعروف عنهم أنهم كانوا شعبا ممارسا للتجارة من الطراز الأول والتجارة (خاصة البحرية منها) لعبت دوراً كبيراً في تنافس المدن فيما بينها وتغلب المصالح المحلية لدرجة أن بعضها كان يستفيد أحيانا من القوى الخارجية على حساب البعض الآخر. إن هذا الإتجاه التجاري صاحبته (أو ربما تولدت عنه) نزعة إلى السلم ميزت الكنعانيين عمن جاورهم. ولم يصادف أن ظهرت سلطة سياسية مركزية وقوية تسعى لتوحيد هذه المنطقة على المدى البعيد، علماً أن التاريخ سجل بعض التحالفات المؤقتة التي كانت سرعان ماتنفرط. وهذا الإتجاه العام الذي ميز تاريخ الفينيقيين يعتبر أهم بكثير من العامل الجغرافي.

المحقق

إطلال «جُبيل» (منظر جزئي)

وقد تمكنت صيدا في البداية من بسط هيمنتها حتى أن اسم الصيدونيين استخدم أحياناً في النصوص التوراتية للدلالة على مجموع الكنعانيين (سفر التثنية 3: 3 ـ القضاة 10: 12 . . . إلخ) . . كما أن الأوديسة، التي تعبر عن تلك الفترة، تتناوب باستخدام مصطلحي «الصيدونيين» و«الفينيقيين»[12]، وبالمقابل، وبدءاً من نهاية القرن الحادي عشر ق.م، وهي بداية التوسع الفينيقي في الغرب، فإن مدينة «صور» التي بُنيت حسب ماذكره «هيرودوت» (II, 44) في نفس الوقت مع معبد (ملقارت) الموجود فيها حوالي سنة 2750 ق.م، أكدت على تفوقها وأصبحت أعظم مدن البلاد، فارضة سيطرتها من نهر الكلب وحتى رأس الكرمل. ومع ذلك سعت هذه الممالك إلى تحقيق أهداف طموحة بدلاً من أن تنهك نفسها في الصراعات العائلية أو أن تبدد قواها في مشاريع ضيقة محلية.

ولكن يبقى أن هذه الظروف لم تكن تسمح بتشكيل سلطة مطلقة حقيقية، إذ لم يكن ممكناً ظهور شعورٍ موحّدٍ في فينيقيا، إن مظهر التقطع الجغرافي الذي يميز الساحل السوري الفلسطيني دفع بالفينيقيين، كي لايظلّوا محصورين ضمن ممالك متواضعة، إلى السعي خارج حدودهم بحثاً عن مستقبل أفضل. لقد كانت أراضيهم خصبة بكل تأكيد، كما أنها إجمالاً كانت مروية بشكل كافٍ، مما ساعد على وجود زراعة مزدهرة أثارت دهشة المصريين، من الحبوب وأشجار النخيل والتين والزيتون والرمان والعنب. كما أن لبنان كان مغطى بالغابات التي تنتج أخشاب البلوط والسرو،

وخصوصاً أخشاب الأرز التي كانت لها أهمية بالغة في أعمال البناء، والتي عمّ تصديرها حتى وصلت إلى بلاد الرافدين ومصر. ولكن، وعلى الرغم من هذا الغنى الطبيعي، فإن هذه الدول ـ المدن لم تكن لتكتفي بهذا القدر، إذ أنها كانت تضيق بحدودها وتُحس بالإفتقار إلى العمق القاريّ، كما أن مصادر البلاد كانت محدودة، ونحن نعرف معنى عبارة «رينان» Renan، وهي عبارة مبالغ فيها دون شك، ولكنها توضح جيداً شكلاً من أشكال هذه الظروف: «إن فينيقيا ليست سوى ضاحية موجودة حول المرافيء الساحلية».

لم يكن بمقدور الفينيقيين تحقيق طموحاتهم في سلسلة جبال لبنان، فبالنسبة لهم كانت الثروة في أعالي البحار، ولقد كان البحر المتوسط ماثلاً أمامهم كحقلٍ واسع مليء بالوعود.

«فينيقيون يحملون مجموعة من الحلي في مراكبهم السوداء»

ـ الأوديسة ,XV, 416 - 417 ـ

من الواضح أنه بالنسبة للفينيقيين، لم يكن التفوق السياسي، أو إذا استخدمنا مصطلحاً مبهماً «الامبريالية» ـ بالمعنى الذي يصف مثلاً حالة توسع وتطور الامبراطورية الآشورية ـ لم يكن ليقدم أية فائدة. فالباعث الأساسي، بل والوحيد، الذي كان يدفعهم لترك إماراتهم ومواجهة أخطار البحر كان له طابع مخالف: إنها الطموحات التجارية، وبطبيعة الحال فإن هذه الطموحات كانت تبدو غير كافية في نظر المتحمسين لتشكيل الفرق والفيالق وإقامة نُصب النصر التذكارية. لقد كان يجب، بفعل النشاطات التجارية الكثيفة والمثمرة، أن يتم التعويض بشكلٍ ما عن الضعف لشعب يفتقد التكامل ومحروم من أي مظهرٍ حربي حقيقي. كما أنه لم يكن بإمكانه الابتعاد عن جيرانه الأقوياء. وبما أنه لم يكن لديهم أيُّ أملٍ بإنشاء امبراطورية قارية، فقد بقي أمامهم، بفضل الروابط التي امتدت في آفاق البحر المتوسط كله، أن يبدؤا حياكة نسيج شكلٍ من أشكال الامبراطوريات البحرية.

فالـوطن الأم يجب أن يجتـذب إلى موانئـه كل الخيـرات التي لم يكن قادراً على انتاجها. ولكي يحقق الفينيقيـون هذا الحلم، أظهروا حذقاً ودهاء وكذلك كثيراً من الشجاعة كأية أمةٍ سعت لإنشاء امبراطورية بقوتها العسكرية.

لقـد ذاع صيت الصـوريين والصيـدونيين بسـرعة كتجارٍ مهرة، نشيطين وجسورين. حتى أنهم تمكنوا من فرض أنفسهم على جيرانهم ومنافسيهم العبرانيين في عقـر دارهم. وإذا استخـدمت التوراة كلمة كنعانيين للدلالة على التجار (حزقيال 4, 17 . . . وأماكن أخرى) فلأن الكنعانيين الفينيقيين، في الحقيقة، كانوا قد تمكنوا من أن يحتكـروا بأيـديهم تجـارة الاستيـراد. وهكـذا، فإن العـلاقـات الضيقـة بين الفينيقيين والعبـرانيين، وخصـوصاً في الاطار الديني، أظهرت بعض التطور وحققت بعض التبادل الاقتصادي الجزئي. ونورد هنا مثلاً شهيراً على ذلك.

أقام «حيرام» علاقات صداقة مع مُعاصره «سليمان» وأجاب ملك صور العظيم (969 - 935 ق. م) بلطف على سليمان الذي طلب منه خشب الأرز والعرعر لبناء معبد «أورشليم» ولبناء قصر له أيضاً، وتلقى منه بالمقابل قمحاً وزيتاً لتموين بيته «الملوك الأول 5». أما سليمان الذي كان قد تلقى من حليفه عشرين «تالان»(*) من الذهب لتـزيين أبنيتـه الملكيـة، فقـد قدّم بدوره إلى صديقـه منطقـة من إقليم الجليل تضم عشـرين بلدة. وحين زار ملك صور ضيـاعـه هذه اكتشف أنـه مغبون، فهذه المنطقة المعروفة بـ«أرض كابول» لم يكن لها، في رأيه، أية قيمة (الملوك الأول 9:10-14). ومـع ذلـك، فإن هيبـة جاره القـوي دفعت «حيرام». وهو الذي لم ينسَ أن العبرانيين استطـاعـوا ردّ هجمات الفلسطينيين وتثبيت الأمن ـ لأن يضع قسماً من اسطوله تحت تصـرف «سليمـان» في الـرحلات التي اتجهت إلى بلاد «أوفير» الغامضة ـ التي ربما كانت تقـع على الشـاطىء الغربي للجزيرة العربية ـ. كما كان الملاحون الفينيقيون

---

* من اللاتينيـة «Talentum» التي ترجـع بدورها إلى اليونانية «Talanton» ، واستخدمت كوحدة وزن تعـادل حوالي 26,5 كغ. ولكن المكـان الـذي يشير إليه المؤلف في النص العبري للعهد القديم، يذكر من حيث العدد مائة وعشرين، وليس عشرين «بكرٌ ذهب».

المحقق

يقودون سفن «ترشيش» ـ التي سيرد ذكرها في الفقرات التالية ـ، إذ أنهم وحدهم كانوا يعرفون الطريق إلى هناك. وكانت هذه السفن تعود بانتظام حاملة معها الشحنات الثمينة من ذهب وفضة وأحجار كريمة وعاج وأخشاب وقرود وطواويس.

لقد مخر الفينيقيون عباب البحر المتوسط لما فيه فائدة لمدنهم بالدرجة الأولى. ولم يكن هذا التفوق البحري، الذي حلّ محل التفوق البحري الآخي ـ المسيني، لم يكن ممكناً لو لم يُظهر الفينيقيون تمرساً ممتازاً في شؤون الملاحة. ومن الممكن أن نلاحظ على الفور أن تضاريس المدن الفينيقية هي في الواقع كما لو كانت مواطيء أقدام فقط، بنيت على مواقع تناسب بشكلٍ ملفتٍ للنظر إنشاء الموانيء: بروزات صخرية طويلة، إضافة إلى وجود خلجان صغيرة متناسقة أُعدت كمراسٍ، وأحد في شمال المرفأ والآخر في جنوبه، وكان هذا يسمح للقوارب بالاستفادة من الرياح السائدة حسب الفصول.

إن هذه المرافيء لم تكن في الحقيقة سوى مسطحات مائية بسيطة محمية، ذات شواطيء تمكنهم من سحب زوارقهم خلال فصل سيء، وتسمح بإجراء عمليات الصيانة والإصلاح. على هذا الشكل كان يبدو المركزان الرئيسيان، صور وصيدا.

ولأسباب أمنية متممة، كما في صور وأرواد، كانت المنشأة الرئيسية في المدينة تقام على جزيرة صغيرة تقع على مقربة من الرأس الذي كان يوجد فيه حيّ البحارة. وكان الشعب يلجأ حين وقوع الخطر الداهم إلى هذه الصخور الطبيعية المحصنة التي كانت تشبه القلاع الحقيقية.

إننا لانعرف سوى القليل عن الأسطول الفينيقي(*). وقد وجدت لوحات جدارية في احدى مقابر «طيبة» يرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثانية ق. م،

---

* توجد، في الحقيقة، معلومات ليست قليلة وجديرة بالاعتبار في كتاب «الفينيقيون» للمؤرخ الألماني «فرانتس كارل موفرز»، سواء فيما يخص بنية الأسطول أو من حيث الملاحة وفنونها. انظر ماجاء في كتاب د. عبد الله الحلو «الفينيقيون وأميركا» القسم الأول، شواهد مختصرة.
المحقق

خوراسباد، قصر صارغون الثاني:
نقل الأخشاب (تفصيل)

وتعرض هذه اللوحات المصرية سفنا تجارية عائدة لمدن الساحل السوري الفلسطيني التي كانت تحت وصاية الفراعنة. وهي سفن مستديرة، أي أنها ذات هيكل عريض جداً مستدير الشكل تقريباً، وله صارية مركزية وعارضة تحمل شراعاً مربعا.

كما نرى على نقش آشوري استخرج من قصر «صارغون الثاني» (721 - 705 ق. م)، في «خورسباد» قرب «نينوى»، نرى تشكيلة من السفن التي كانت تستخدم لنقل الأخشاب وتتحرك بواسطة المجاذيف أو بواسطة مجذفين كما يبدو. ولهذه السفن طرفان مرتفعان جداً، ويوجد رأس حصان في جؤجؤها. ويبدو أنها كانت تحمل عوارض، كما أن عوارض أخرى كانت تظهر طافية على سطح الماء، وتُسحب بواسطة حبال مربوطة بالكوثل.

وفي نقش آخر من «نينوى»، وهذه المرة من قصر «سنحاريب» (705 - 681 ق. م)، تبرز صورٌ لسفن فينيقية (استخدمت كما يبدو لنقل الجنود المرافقين لأفراد

عائلة وحاشية «لولي» ملك صور وصيدا، الهارب من الجيش الآشوري، وكانت متجهة نحو جزيرة «قبرص»). وفي هذا النقش، نميز نوعين من السفن: الأول هو سفن حربية، وهي عبارة عن مراكب ذات صالب طويل، ويأخذ صدر هذه السفن شكل نعلٍ ينتهي بنتوء ضامر. أما في خلفها ـ حيث تثبت دفتا المجذاف ـ، واحدة في كل طرف، فكان يوجد نقوش بارزة، ويوجد في وسط السفينة صارية تحمل عارضة وعدّة السفينة، وكانت هذه السفن تضم صفّين من المجاذيف، يظهر منها فقط الصف العلوي الموازي لحواف السفينة. وكان الجنود والمسافرون يجلسون في الأقسام العلوية المحمية بالدروع. والنوع الثاني من السفن، الذي يظهر في ذاك النقش الشهير، سفنٌ تجارية ذات هيكل مستدير ـ تشبه سفن «الغولوا» Gaulol الاغريقية ـ لها طرفان متناظران، ونلاحظ وجود صفّين من المجاذيف، وشيء يشبه الجسور المرفوعة يجلس عليها الأشخاص الذين يتنقلون بها. ولم يكن يوجد في هذه السفن ذات الحواف المرتفعة أي صوار.

كان الملاحون الفينيقيون يهتدون إلى طريقهم بواسطة نجم «الدب الأصغر» الذي أطلق عليه الإغريق اسم «الفينيقي Phoinike». وهذا دليل على أن البحارة الفينيقيين هم الذين ابتكروا الملاحة ليلاً. ولكي يتمكنوا من الإقتراب من الشاطيء بشكل منتظم بغية إدارة تجارتهم الساحلية التي حلت مكان التجارة البرية، اكتشف الفينيقيون كافة المراسي المحتملة وهيئوا المحطات التي وجدت على مسافات منتظمة، قصيرة نسبياً. وبهذا، كان أولئك البحارة يمضون من مورد سفينة إلى آخر خلال يوم واحد، حيث كان السفن تجد، إن لزم الأمر، ملجأ وبخاصة في حالات الطقس السيء للتزود بالمياه والأقوات، إضافة إلى إقامة علاقات مع أهل المناطق الساحلية التي كانوا يرسون عليها للتجارة.

ومع ذلك، لم يتردد الفينيقيون، الذين لم يكونوا يعتمدون على تجارة السواحل الخفيفة هذه، عن اقتحام أعالي البحار. ولم يكونوا، بالتأكيد، مجهزين إلا بسفن ذات حمولات صغيرة، إذ أنهم لم يصبحوا بعد اختصاصيين في الإبحار، بيد أنهم تعلموا كيف يحسنون من خصائص أدوات عملهم، أي سفنهم. ومن بين

نينوى، قصر سنحاريب: «لولي» ملك صور وصيدا يفر هارباً باتجاه قبرص

هذه التقنيات التي سمحت لهم بالتفوق على جميع منافسيهم بين القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثامن ق. م نشير إلى استخدام القار لطلي غواطس السفن بعد اجراء عملية جلفطة الشقوق Calfatage ، مما أدى إلى احكام سد شقوق السفن وتقوية الغاطس بداعمة الصالب (إذ أن بناء هيكل السفينة على شكل قفص بمساعدة الأربطة، لم يكن قد ابتكر، حتى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، في منطقة الشرق القديم).

لقد سمحت تلك الوسيلة بالحصول على سفن طويلة، مجهزة بشكل أفضل لعمليات الإبحار الطويل المدى، وكان بإمكانها الإبحار بطمأنينة بعيداً عن السواحل[١٣]. كما كانت جزر البحر المتوسط تُعتبر أيضاً محطات توقف ممكنة. وكان الملاحون، في بداية الأمر، وفي طريقهم إلى الغرب، يصلون بسهولة إلى اليونان وموانيء الساحل المصري. وكان لهذا التوسع التجاري هدفٌ وحيد هو الإنتفاع، وبأفضل الظروف، من مصادر المواد الأولية التي كان الساحل السوري الجنوبي يخلو منها. وفي مقدمتها المعادن الثمينة كالذهب والفضة، إضافة إلى القصدير والرصاص والحديد. وكان الفينيقيون، من جهتهم، يقدمون أخشاب الأرز والسرو والصنوبر الضرورية لعمليات البناء البحري، كما كانوا يعرضون أيضاً الصوف والأقمشة المصبوغة بالأرجوان والطور والخمر والتوابل، ويقدمون بشكلٍ خاص

منتجات صناعة نشيطة، إذ كانت لديهم حُرَف قادرة على تصنيع كل أنواع التحف والزجاج ذي النوعية الرديئة(*).

إن «رجال الأعمال» الجسورين أولئك لم يكونوا ليتخلوا عن الربح الذي يمكن لتجارة العبيد أن تعود به عليهم، وهم، بعملهم هذا، كانوا يقلدون جيرانهم. ويروي لنا «هيرودوت» (56, 54, II, 1, I) أن «إيو IO» ابنة «ايناكوس Inachos» ملك «آرغوس Argos» الأسطوري، بيعت في مصر، كما اقتاد قراصنة فينيقيون آخرون كاهناتٍ تم اختطافهن من «طيبة» إلى «دودون Dodone» [إبير Epire] إلى (ليبيا).

كما نتبين في احدى صفحات الأوديسة، التي يرخي فيها العنان للنزعة المعادية للسامية(**)،(11) نتبين موقفاً ناتجاً عن التنافس الإقتصادي الذي لم يكن قد اتضح بشكلٍ تام زمن الإلياذة، ففي تلك الصفحة يروي المنشد الإغريقي بإسهاب أساليب «الصيدونيين» الذين «يبالغون في حيلهم»... «فمن سفنهم السوداء» كانوا يقومون بعرض تحف رخيصة، مثل شالات الكتف، وبعد أن يملؤا قعر سفنهم، كانوا يعمدون إلى الرشوة، والغش بهدف اختطاف بعض سكان البلاد، آملين من وراء ذلك تحقيق ربح وفير، ثم يولون بعد ذلك الأدبار:

... «وصل الفينيقيون بغتة ذات يوم، وهم بحارة مشهورون ولكنهم اناس جشعون، وقد حملوا في سفينتهم السوداء مجموعة من التحف، وكانت في منزل والدي امرأة فينيقية، جميلة المنظر، طويلة القامة، ماهرة بالأعمال الدقيقة. وتمكن

---

* يفهم من كلام المؤلف أن الفينيقيين كانوا ينتجون سلعاً على درجات متفاوتة الجودة وبأسعار مختلفة.

المحقق

** إن مصطلح «العداء للسامية» هو في الواقع وليد القرون المتأخرة في أوروبا، لذا فإن الحديث عنه فيما يخص العصور القديمة غير منطقي. وكان من الأفضل لو عبّر المؤلف عن هذه الفكرة بالعداء الإغريقي للفينيقيين، إذ أن لفظة «سامية» في ذلك العصر، لم تكن معروفة.

المحقق

الفينيقيــون المحتـالـون من خداعهـا ؛ فذات يوم ، كانت المـرأة في المغـسـل قرب السفينـة ، فانفـرد بهـا أحد أولئك البحارة ، وبدأ يغازلها بكلمات لطيفة ، وهذا مايدير عقول النساء حتى أفضلهن ، وسألها بعد ذلك من هي ومن أين أنت ، فأشارت له إلى منـزل والـدي العـالي وقـالت : إني فخورة لأني وُلـدت في صيـدا ، المـدينة الغنية بالبرونـز ، إنني ابنة «أريبـاس» الـوافر الثراء ، ولكن القراصنة «التافيين» (Taphiens) اختطفـوني حين كنت عائـدة من الحقـول وجلبـوني إلى هنا ، إلى منزل هذا الرجل ، وباعـوني له وقبضـوا ثمني مالاً كثيراً . فقال لها ذلك الفينيقي : «والآن : ألا تودين العـودة معنـا ، إلى بيتـك لرؤيـة أبيـك وأمك وبيتهما ذي السطح المرتفع ؟ إذ أنهما ، لِعِلمِكِ ، مازالا يعيشـان وافـري الثـراء ، أجـابت المرأة : «نعم ، هذا ممكن ، ولكن عليكم أيهـا الرجـال أن تقسمـوا لي بأن تصحبـوني سليمـة إلى بيتي» . وأقسـم لها الجميـع اليمين الـذي طلبتـه . قالت لهم بعـد ذلـك : «تـذكـروا نصيحتي ، عليكم التعجيـل بشراء شحنتكم ، وحينما تصبح سفينتكم مليئة بالبضائع ، أبلغوني بسرعة ، فسأحمـل معي ذهباً وكـل مايقع تحت يدي من متاع البيت ، كما أنني سأسعى لأقدم لكم شيئـاً آخـر مقـابـل سفـري إلى شاطئكم ، فأنـا أقـوم بتربية ابن معلمي في قصر ريفي ، وهـو صغير ماكـر ، يجري إثري حينما أخرج ، وبمقدوري أن آخذه معي إلى بلادكم ، لتبيعـوه هنـاك بثمن مرتفـع جداً . » قالت لهم ذلـك ، واتجهت بعـدهـا إلى المنـزل الجميـل . . . بقي الفينيقيـون عندنا طوال العام وتزودوا بمؤ ن كثيرة ملؤ ا بها عنـابـر سفينتهم ، وعنـدمـا هيأوا أنفسهم للسفـر ، أرسلوا رسولاً لإخطار المرأة ، وكان شخصاً ماكراً جداً ، إذ دخل إلى منزل والدي وهو يمسك بيده عقداً ذهبياً انتظمت فيه حبـات الكهـرمـان . وفي القـاعـة ، أخـذت أمي المحترمة وخادماتها يجسّن العقد ليشبعن أنظـارهن منـه واقترحن سعـراً له ، غير أن الرجل لم ينطق بكلمة واحدة ، بل أشار إلى المرأة التي انطلقت إلى السفينة وقد امسكتني بيدي . مشينا مسرعين حتى وصلنـا إلى المينـاء الـذي أعـرفـه جيداً ، فهناك كانت ترسو السفينة السريعة . وسلك البحـارة الطـرق التي يعـرفـونها جيداً ، ولستة أيام «أرسل «زيوس» ريحا مواتية ، وكنا نبحر ليل نهار ، ولكن حينما أظهر «زيوس» ابن «كرونوس» اليوم السابع ، قامت

«أرتميس»(*) الصيادة برمي المرأة الفينيقية بسهامها وأصابتها، فسقطت وسمعنا صوت ارتطام جسدها في الفنطاس، مثل ارتطام النورس في البحر. فقام البحارة بإلقاء جسدها إلى عجول البحر. أما أنا، فقد تركوني هناك، مقبوض الصدر وكانت الريح والماء يدفعاننا نحو «إيثاكا»، حيث اشتراني «لايرت Laerte» بحرِّ ماله»(١٠) (**).

ورغم بعض أعمال القرصنة من هذا النوع، وضمن تلك الظروف، بإمكاننا أن نلاحظ أن الجارية الصيدونية نفسها ـ والتي اتفقت سرا مع مواطنيها ـ كانت هي أيضاً ضحية عملية قرصنة قام بها القراصنة الإغريق. ومما لاشك فيه أن الفينيقيين قد حازوا، رغم محافظتهم على علاقات متواصلة مع زبائنهم الأجانب، على شهرة واسعة كرجال مهرة ودهاة، فنحن نعرف أنهم كانوا يحترمون تعهداتهم التجارية، وتلك هي أول نتيجة من نتائج هذه التجارة الحذرة، ويوجد من ذلك الكثير.

إن الطابع التجاري لهذا التوسع، والسلع ذات «النوعية العالية» التي كانت الورش الفينيقية تنتجها، والتي صدرت إلى مختلف بلدان المتوسط، تُخفي قدرة خلاقة لهذا الشعب الذي لم يرضَ أن يسكب مهارته التقنية في مصنوعات مبتذلة.

لقد كان لدى جبيل وصور وصيدا فنانون حقيقيون، فالصاغة على سبيل المثال، كانوا يبدعون أعمالاً ذات إتقان عالٍ جداً حازت على إعجاب الخبراء في هذا المجال. ويكفي إن رجعنا إلى «هوميروس» إن نورد مقطعاً من «الإلياذة» - 743s]

---

* هي، في الأساطير اليونانية، ابنة «زيوس» وتُمثّل بهيئة صيادة شابة، وكانت إلهة الطبية والخصب.

المحقق

** إذ صياغة قصة من هذا النوع، وبهذه التفاصيل، تترك لدى القارىء المتمعن انطباعاً فإنها لاتخلو من الخيال. إذ أننا نفهم، من أسلوب القصة، أن الولد الذي اصطحبته المرأة معها هو ابن ذلك الثري صاحب المنزل الذي كانت تعمل في خدمته. فهل يقبل العقل أنها تستطيع أخذ الولد معها بهذه السهولة، وأمام أعين أهل البيت! وهو الأمر الذي لم يعلق عليه الكاتب.

المحقق

[XXIII يتحـدث فيـه عن كأس قدمت كجائزة في سبـاق: «بـاطية»(*) فضية تزن ستة أوزان، هي أجمل ماهو موجود في بلاد الدنيا، صنعها نقاشوا صيدا بمهارة، وجلبها الفينيقيون فيما بعد في البحر المعتم، كي يعرضوها في الموانيء [. . . .]».

وعلينـا أن لاننسى أخيـراً أن الإغـريق، وهم السباقون في كل شيء(**)، كانوا مدينين مباشرة للفينيقيين بإبتكار أساسي ساهم في انتشار فكر وتاريخ الثقافة الغربية: إنهـا الأبجـديـة الصـوتية. ونحن نسلم عموماً، لأن هذه المسألة لم تُحل بعد بشكل حاسم، أن الكتبة الكنعـانيين كانوا أول من اقتبس الكتـابـة «الفينيقيـة البدائية» من أصـول فينيقيـة وعبـريـة وآراميـة(***). ولم تكن بعض هذه المجموعات تضم، ومنذ ماقبـل أواسـط الألف الثـاني ق. م، سوى عدد قليـل من الإشـارات توسعت بشكـل تدريجي، إذ أُحصي في بعض الـوثـائق المكتشفـة في أطلال مدينة أوغاريت (رأس

* باطية: إناء لمزج الخمر بالماء، ذو عروتين، كان يستعمله الرومان واليونان.

المترجم

** لابد من الاعتراض على هذا القول الذي يورده المؤلف، وألاحظ أنه يناقض نفسه أحياناً، فهـو في سيـاق حديثـه، سواء فيمـا سبق أو فيما سيلي من فصول، يُبرز الفينيقيين والبونيين كأمة سباقة في مختلف الميادين في وصفهم بأنهم ابتكروا التجارة، إلى وصف دساتير ـ استناداً لقول أرسطو في مطلع الفصل التالي. «بأنها أرقى من الدساتير الأخرى» أو وصف ملاحتهم بالتفوق والإبتكار في العالم القديم كافة، وبعد ذلك يعتبر الإغريق سباقين في كل شيء! إن الأدلة الثابتة على أقدمية، وتفوق الفينيقيين ـ وسكان الهلال الخصب أسلافهم عموماً ـ في مختلف النواحي الحضـاريـة لأكثر من أن أحصيها هنا. فالمعروف اليوم أن تشريعات منطقة الرافدين ـ وأخص بالـذكـر منهـا قوانين «حمـورابي» ـ أقـدم وأكمـل تشـريعـات عرفهـا التـاريخ حتى الآن، كما أن مكتشفات المدن الكنعانية في غور الأردن «أريحا» مثلاً، والتي تعود لأكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، ومكتشفات أرشيف مملكة «إيلا» ـ والتي لاتزال ألواحها بانتظار الدراسة والبحث الدقيقين، والتي تعود إلى منتصف الألف الثالث ق. م. كل هذا يعود لفترات لم يكن فيها لدى الإغريق مايعطيهم الأسبقية في كل شيء. واكتفي هنا بما يذكره باحث الآثار البريطاني «M. E. L. Mallowan» في الجزء الثاني من كتابه «Nimruuud and ist Remains» الصادر في لندن 1966،
←

To: www.al-mostafa.com

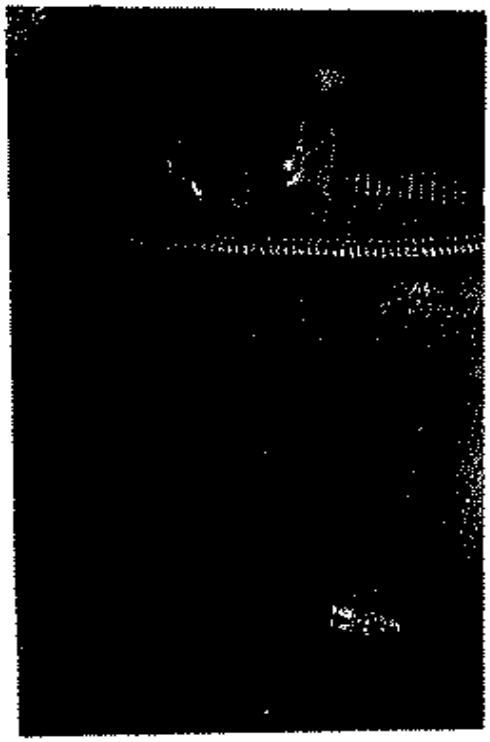

صيدا، ناووس الملك «اشمونازار» (تفصيل)

إذ يقول: «وقد بقينا طويلاً نعتقد أن الإغريق هم أول من استخدم طريقة الكتابة على ألواح الشمع وذلك في القرن الثامن ق.م. غير أن الإكتشافات التي وجدت في القصر الشمالي الغربي أثبتت أن الآشوريين سبقوهم إلى ذلك قبل ثمانمائة عام». هذا وإن المعبد الذي أعلن باحث الآثار الألماني «Hauptmann» ـ من جامعة هايدلبرغ ـ عن اكتشافه العام الماضي في موقع «نيفالي جوري» شمالي مدينة أورفة السورية ـ الخاضعة اليوم للسيطرة التركية ـ والذي يعود لسبعة آلاف سنة قبل الميلاد، ماهو إلا دليل جديد على قدم الحضارة السورية وتفوقها على الإغريق وغيرهم.

المحقق

* * * عند الحديث عن ابتكار الأبجدية في تلك الحقبة القديمة، يبدو تعبير «أصول عبرية» غير مقنع. فالمعروف أن العبرانيين تبنوا اللغة الكنعانية وتحدثوها بلكنة خاصة أعطتها طابع لهجة مميزة عُرفت فيما بعد باللغة العبرية. واستخدموا الرموز الكنعانية في الكتابة فكيف تكون لهم إذن أصولٌ لغوية؟.

المحقق

شمسرا)، في عام 1929 ، ثلاثون رمزاً من هذه الرموز، يمثل كل واحدٍ منها مقطعاً ويشار فيها إلى الحرف الساكن فقط*، كما أن النقوش التي اكتشفت في جُبيل على قبر الملك «حيرام»، والتي ربما تعود إلى القرن التاسع ق. م، لاتستخدم سوى اثنين وعشرين رمزاً. وقد استعار الإغريق هذه الأبجدية وشذبوها وطوروا فيها، وهم الذين تأثروا بها إلى حد أنهم احتفظوا بأسماء ذات أصل سامي للإشارة إلى حروفهم**، وأضافوا إليها رموزاً جديدة لكتابة الأحرف الصوتية، ولقد انتقلت هذه الأبجدية إلى الشعوب اللاتينية وإلى بقية شعوب العالم الغربي بواسطة الأتروسكيين.

الروّاد الفينيقيون على الشواطيء الغربية للبحر الداخلي (المتوسط)

كان العالم الغربي قد أقام منذ زمنٍ بعيد علاقات اقتصادية مع فينيقيا. بيد أن أول مشكلة تطرح في هذا المجال هي تاريخ التوسع الفينقي. ومثل كل مسألة تتعلق بتاريخ العصور القديمة، لايمكن الدخول فيها إلا حينما يتم جمع الشواهد التي يقدمها الكتاب الكلاسيكيون، ومن ثم مقابلة هذه الشواهد مع مختلف الوثائق التي يمكن أن تقدمها لنا الكشوف الأثارية. وبطبيعة الحال، لن نلتزم نحن بأية فرضية. كما أن أعمال الاختصاصيين الدارسين لهذه الظاهرة أو تلك من المجالات التي تهمنا ـ كالمستشرقين ومؤرخي أفريقيا الشمالية القديمة وعلماء الآثار الفينيقية والبونية، واللغويين والنحويين العاملين في الدراسات السامية ـ تقدم لنا الشيء

---

* لم تكن رموز الكتابة الأوغاريتية تمثل مقاطع كما يعبر المؤلف، بل كانت أبجدية حقيقية كتبت بالرموز المسمارية.

المحقق

** المقصود: بتعبير آخر، أنهم أخذوا مع كتابة الحروف كيفية لفظها بالكنعانية، فالألف الكنعانية أصبحت «ألفا» والبيت «بيتا». . الخ.

المحقق

الكثير، إلا أن كل ماقدمه لنا هؤلاء لم يكن سوى أجوبة عابرة كان مضمونها بعيداً دوماً عن إدراك حلول متقاربة.

إن الصعوبات تتراكم حينما نهمّ بذكر النتائج، فالاعتبارات التي تتبعها لاتهدف إلّا إلى تجاوز مجال التخمينات. وفي أحيان كثيرة، نكون بعض الفرضيات مفضلة لدينا على البعض الآخر، دون أن يكون ممكناً، وفي إطار هذا العرض العام، أن نبرز أسباب هذا الاختيار.

إن التضارب في مسألة دخول الفينيقيين إلى البحر المتوسط الغربي راجع في الأساس إلى مشكلة تحديد تاريخ هذا الدخول. إن الجدل يحتدم بين أنصار «تسلسل تاريخي أعلى Chronologie haute» الذين يرون أن دخول الفينيقيين يرقى إلى القرن الثاني عشر ق.م، وبين أولئك الذين يدافعون عن «تسلسل تاريخي أدنى Basse» إذ يرى هؤلاء أن الديباسبورا «الشتات» الفينيقي بدأ بعد قرن ونصف من التاريخ السابق، أي بدءاً من القرن العاشر ق.م (مع بناء مدينة «قادش Gades» في حوالي 970 ق.م، ومدينة «أوتيك Utique» حوالي 950 و«قرطاجة» في عام 663 ق.م)[16].

ومن الواضح أن تشابك مختلف المعطيات الآثارية والنقوشية والأدبية لايسمح بالوصول إلى حلول تحوذ على الرضى، كما أنه من الصعب علينا الاعتراف بوجود ثغرة في المعطيات التي أوردها الكُتّاب الكلاسيكيون مثل (ثيوسيديد «Thucydide» وبليني الأقدم «Pline l'Ancien» وديودور الصقلي «Didore de Sicile» وفيليوس باتركولوس «Velleius Paterculus») الذين رأوا أن التوسع الفينيقي في الغرب، وكنتيجة لإستقلال فينيقيا الذي تلى غزوات شعوب البحر ـ يمكن أن يكون قد بدأ منذ نهاية القرن الثاني عشر ق.م، ومن ناحية ثانية، تثبت المعطيات الموجودة في الوثائق الآثارية القديمة جداً هذا الوجود الفينيقي. غير أنه من النادر، في الواقع، وجود وثائق يمكن ردّها إلى ماقبل القرن الثامن ق.م. ويستنتج البعض من ذلك أن التوسع الفينيقي في أفريقيا وأسبانيا تبع توسع اغريقي «ساموس» وإنه قد لايرقى إلّا إلى مابعد القرن السابع قبل الميلاد[17].

وفي الحقيقة، تُترك هذه الفرضيات اليوم شيئاً فشيئاً، إذ لم يعد بالإمكان الأخذ بها. وبالمقابل، تبدو المواقف التي يدافع عنها أنصار تسلسل تاريخي يتفق مع مجمل ماأوردته نصوص الكتاب الكلاسيكيين وكأنها تقترب من الحقيقة التاريخية. وعلينا أن نلاحظ أولاً أنه لن يكون بوسعنا الإنطلاق من نتائج حصلنا عليها حديثاً من بين الأنقاض الأثرية كي نستخلص منها نتائج محددة. لذا يرفض الكثير من المؤرخين التسليم بأن الدليل a Silentio ـ ويعني نقص الوثائق الأثارية العائدة إلى حقب تاريخية قديمة جداً ـ يمكن أن تكون له قيمة أكيدة تهدف إلى إزاحة التأريخ المفروض بواسطة المراجع الأدبية. أما فيما يخص المادة الآثارية، فإننا نعرف أن وضوح التواريخ كان، ولأكثر من مرة، مدار نقاش. غير أنه علينا أن نفهم كيفية حدوث التوسع التجاري وأن نميز بين مراحله.

قد لاترقى أقدم الآثار المكتشفة إلى زمن المراكز الفينيقية الأولى، وهي تخص مراكز تجارية بسيطة كانت تديرها مجموعات صغيرة مهيأة لعقد صفقاتٍ مع أهالي البلاد الأصليين. وكان بإمكان التجار الذين يبحرون بمحاذاة هذه المحطات ألا يبقوا فيها إلا الوقت الذي يستغرقه عقد بعض صفقات المقايضة أو الوقت الذي تستغرقه دراسات مناطق الزبائن المحتملين. ولم تترك مجموعات «ماقبل الاستعمار» هذه، إلا نادراً، آثاراً تدل على وصولها أو إقامتها. وفي المقابل، تسجل الشواهد الآثارية بناء مراكز تم انشاؤها في عصر لاحق ـ خلال سنوات أو ربما خلال أكثر من قرنٍ كاملٍ، وكان دخول الفينيقيين قد تم قبل ذلك بوقتٍ طويل ـ وعلى هذا، فإن بمقدورنا أن نتحدث عن احتمال وجود عمليات تجارية ـ نطلق عليها اسم اليوم تسمية «دراسة السوق Les etudes des marches» ـ وكانت هذه العمليات، بالتجربة، رابحة، إذ تمّت بواسطة وكالات ثابتة تطورت فيما بعد وأصبحت نوّيات لمستعمرات حقيقية اجتمعت فيها العائلات الفينيقية التي تركت وطنها، دون أن يكون لديها فكرة بالعودة، واستقرت في تلك الأماكن حاملة معها تنظيماتها الأصلية، الاجتماعية والدينية. هذا وأن مدن المقابر تقدم للآثاريين أقدم الوثائق كتاريخ تقريبي «لموجة» الهجرة الثانية تلك غير أننا مازلنا حتى الآن بعيدين عن الوصول إلى طلائع هؤلاء

الـرواد الـذين واصلوا تقـدمهم إلى ماوراء «أعمـدة هرقـل»، ولم يكن لدى هؤلاء المغامرين سوى هدف واحد هو أن يملؤا عنابر سفنهم بالمعادن الثمينة والبضائع النادرة، ثم يغيّروا اتجاههم ويُقلعوا من جديد متجهين إلى شواطيء «فينيقيا».

ومن الطبيعي أن يبدأ الفينيقيون، وخلال تطور توسعهم هذا، بالابتعاد نحو الجزر المتواجدة على طول سواحل البحر المتوسط الشرقي، من كيليكيا وتخوم الأناضول، إذ وجد في «زنجرلي Zincirli» في سوريا الشمالية، نصبٌ يعود إلى القرن التاسع ق. م كُتبت عليه تقدمة إلى الإله «بَعل حمّون» باللغة الفينيقية إضافة إلى أنهم وصلوا إلى مصب دلتا نهر النيل، إذ يورد «هيرودوت II, 112» أنه كان يوجد في مدينة «ممفيس» مركز تجاري اسمه «معسكر الصيدونيين» كانت تُعبد فيه الإلهة «عشتروت» (عشتار). أما قبرص، التي كان غناها بالمعادن والمنتجات الزراعية مشهوراً، فقد أسست فيها مراكز فينيقية في زمن مبكر جداً، مثل «كيتيون Kition» التي كانت تابعة لملك صيدا والتي لجأ إليها «لولي» عام 701 ق. م هرباً من «سنحاريب» كما ذكرنا فيما سبق، كما دخلت «رودس»، «كريت» «جزر سيكلادس» وباقي جزر بحر أيجة ضمن مجال الملاحة الفينيقية. وتمكن هؤلاء البحارة من الوصول إلى جزيرة «مالطا». وفي هذا المجال كتب «ديودور الصقلي 12,V»: «لقد استعمر الفينيقيون هذه الجزيرة، إذ استولوا على هذا الملجأ الموجود في عرض البحر والمحروم من المرافيء خلال توسيع رحلاتهم التجارية باتجاه المحيط الغربي». إن الكشوف الأثارية[18] تسمح لنا التأكيد بوجود مرحلة فينيقية سبقت احتلال القرطاجين لهذه الجزيرة. كما لعبت جزيرتا «غوزو Gozzo» و«بانتالاريا Pantelleria» دور محطتي تبديل، في حين كانت صقلية وسردينيا تمثلان أسواقاً هامة.

لقد نوقش طويلاً نص الكاتب اليوناني «ثيوسيديد» [6, 2, VI] الذي يشرح فيه كيفية الدخول الفينيقي إلى جزيرة «صقلية»، ويتحدث عن تجمعاتهم، بُعيد قدوم الإغريق إلى نقاط في المنطقة الساحلية من الجزيرة، وخصوصاً إلى «موتيي Motye»، وهنا، تؤكد البقايا الأثرية[19]، مرة أخرى، قيمة النص الأدبي. فلقد أنشئت

«موتيه» على الطرف الشرقي لصقلية، وفي موقع مثالي لمرفأ فينيقي: جزيرة صغيرة مساحتها خمسون هكتاراً، ذات مرسى قليل العمق، غير بعيد عن عرض البحر، تحميه جزيرة متطاولة استخدمت كمكسر للأمواج مما سمح بالملاحة الساحلية في جميع الأوقات وفي كل الفصول. كما وجدت في المقبرة القديمة الواقعة في الجزيرة الصغيرة، أنواع مختلفة من السيراميك الذي يؤكد وجود مركز فينيقي، ربما يعود إلى القرن الثامن ق.م، ويمكن أن يكون قد سبق فترة الإحتلال القرطاجي الذي تواصل حتى عام 397 ق.م، وهو تاريخ تدمير المدينة من قبل «سيراكوز». وفي «سردينيا»، استخرج من موقع مستوطنة «نورا Nora» نقش اتفق الأخصائيون حديثاً على أنه يعود إلى القرن التاسع ق.م. ووجدت في جزيرة «سولسيس Sulcis» الصغيرة [واسمها اليوم سان انتيوكوس Saint Antioco، وتقع جنوب غرب سردينيا] آثار تؤكد التواجد الفينيقي فيها.

ونشير هنا إلى وجود صعوبات جمة، فيما يخص هذه المكتشفات، تكتنف العمل حين يراد التمييز بين المستعمرات الأولى «Primaires» والثانية «Secondaires»، أي تلك التي يرقى تأسيسها إلى مرحلة التوسع الفينيقي، وتلك المتأخرة: أي التي تعود إلى فترة الهيمنة القرطاجية. فهاتان المرحلتان، في الحقيقة، تتعاقبان بل وتتداخلان أحياناً على أساس تطور معقد. لقد وقعت «فينيقيا»، منذ بداية القرن السابع ق.م، تحت السلطة المركزية الآشورية، ومن المعروف أن هذه السلطة التي فرضها ملوك «نينوى» لم تتوطد بشكل دائم، إذ حدثت عدة محاولات استقلالية كالتي جرت عام 676 ق.م، إذ دُمرت «صيدا» حينما ثارت، ونُفي سكانها. أما بالنسبة لـ«صور» - التي كانت علاقاتها مع «مصر» تحّدُ من طموح الآشوريين - فإن ملوكها، ارغموا في بعض الأحيان على دفع الجزية لأسيادهم، ورغم أن هذه المدينة كانت محرومة من العمق الجغرافي فقد بقيت منيعة في جزيرتها. ونتيجة لهذه الهزّات، فقدت «الممالك» الفينيقية استقلالها شيئاً فشيئاً، كما توقفت وشُلت في النهاية المعاملات التجارية التي كان عمرها عدة قرون - مع أن البحرية التابعة لمدينة «صور» بقيت محافظة على قوتها لفترة طويلة (وقد وُضعت في

بعض الأحيان في خدمة الآشوريين كما حدث في الأعوام 676، 671 ق، م).

إن المراكز التجارية التي أسسها الملاحون القادمون من الساحل الفينيقي في الغرب كانت قاعدة لهذا العالم البوني الذي كان يتطور سريعاً حتى تمكنت «قرطاجة» في النهاية من التفوق فيه. لقد ورثت الحضارة البونية العادات الأصيلة للوطن الأم. ونتيجة لغياب أي معيار أكيد، من المشكوك فيه أن نطالب بضرورة تصنيف هذا المركز أو ذاك ضمن إطار مرحلة التوسع الفينيقي بدلاً من الفترة التي كان فيها «البونيون Poeni»، أو فينيقيو الغرب قد بدأوا بأنفسهم بناء مراكز تجارية أو مستعمرات لحسابهم الخاص.

وخلال القرن السابع الميلادي، تواصلت على مايبدو العلاقات بين الموانيء الفينيقية والقبرصية من جهة، وبين المراكز التي أنشئت على السواحل الافريقية من جهة أخرى. إذ أن بعض هذه المراكز كانت تستخدم كقواعد للترانزيت أو كمراكز لتوزيع النشاطات التجارية للمنتجات الفينيقية. وهذا مايفسر لنا عدم وجود أية فجوة في سياق تطور العالم الفينيقي ـ البوني.

إن هذا التطور لم يترك آثاره فقط على سواحل الجزر الإيطالية، إذ تم اكتشاف العديد من قطع العاج وعلب المجوهرات المحلاة بتزينات ذات أصول سورية في مدن «أتروريا» و«لاتيوم» القديمة. وهذا مايحمل على الاعتقاد بإمكانية وجود مستعمرة صورية في «روما»(*).

لقد أنشأ الفينيقيون، على الساحل الأفريقي وماوراءه، مراكزهم التجارية الرئيسية. وحقق بعضها ازدهاراً مدهشاً فاق ازدهار «المدن الأم». إن تلك المراكز لم تكن موجودة فقط على سواحل المتوسط بدءاً من الواجهة الشرقية لتونس وحتى أعالي «جبل طارق»، بل أيضا على سواحل المغرب وأسبانيا المتوسطية.

* طبعاً ليس المقصود هنا «روما» كمدينة، وإنما الأرض الإيطالية

المحقق

«إن الجـزائـر تنتظـرني وسفن ترشيش في الأول لتأتي بينـك من بعيـد ، وفضتهم وذهبهم .

(أشعيا 60 - 9)

ظهرت في أيامنا هذه مواد آثارية هامة من المراكز الفينيقية والبونية في الغرب ، يرقى بعضهـا . بإستثنـاء بعض تلك التي استخـرجت من اسبـانيـا وأفـريقيا الشمالية وأوتيكا Utique (**) . ـ إلى نهاية الألف الثانية ق . م . حسب بعض التقديرات . ومن الممكن ألا تكـون تلك الأثـار الأكثر قدمـاً سابقـة على النصف الأول للقرن الثامن ق . م . وإذا لم تسمـح المعطيـات الأثـاريـة أن نتمكن من تحـديـد بدايـة التـوسـع الفينيقي ، فقـد نقـل إلينـا الكتـاب القـدامي ، بالمقابل ، بعض الإيضاحات ، وليس المقصـود هنـا امكـانيـة وجـود شهادات مباشرة تهدف إلى توضيح ماقبل التاريخ هذا «Protohistiore» ، وتسمـح لنـا أن نعـرف ، بفضـل الكتـاب أنفسهم أو بواسطـة معـاصـريهم ، عوامـل هذا الاستيطـان عنـاصـر تسلسـل تاريخي مبني على أسس لايمكن دحضها .

وفيمـا يخص المستـوطنـات التي تم انشـاؤ هـا في أفـريقيـا ، يستخدم الأدباء الكـلاسيكيـون مراجـع قديمـة جداً مثـل : العادات : «القصص الفينيقية» ومصادرها مختلفة لم نتمكن من الوصول إليها . ونضيف أخيراً أنه ، ورغم أن هؤلاء الكتاب قد أجمعوا على أن الفينيقيين قد سبقوا الإغريق إلى المتوسط الغربي الذين تمكنوا من الـوصـول إلى «كـوميس Cumes» و«صقليـة» في حوالي القـرن الثـامن الميـلادي ، نضيف أنـه من غيـر المشكـوك فيـه أن يكـون الهـدف إبـراز الحقيقة التاريخية . «إن

---

* * أصـل هذا الاسم من الكنعانية « [illegible] » عتيقـا ، أي «المدينة القديمة» . وقد بقي هذا الاسم متداولاً فترة طويلة من الزمن .

المحقق

الفينيقيين الـذين كانـوا يبحـرون بلا توقف منذ عهـد بعيـد بقصـد التجارة، كانوا قد أسسوا الكثير من المستعمـرات على سواحـل ليبيـا وفي الأجـزاء الغـربيـة من أوروبا». هذا ماكتبـه «ديـودور الصقلي 1، 10، V » ـ معتمـداً بذلـك على المؤرخ الاغـريقي «تيمي دوتورمينيون Timee de Tauromenion » الذي عاش بين عامي 340 -250 ق. م ـ مشيراً بذلك إلى التوسع الفينيقي في ليبيا، أي في البلاد التي أطلق عليها اللاتين فيما بعد اسم «أفـريقيـا». ويـرى «ديودور الصقلي»، وهو بذلك يردد فكرة قديمة، أن التجارة كانت، بفضل وجود مراكز تجارية، سابقة على بناء المستوطنات، وربما كان النجاح الذي حققته هذه التجارة هو الحافز الذي أدى إلى خلق تلك المستوطنات.

تتفق المصـادر الأدبيـة إذن مع المعطيـات الأثارية الحديثة في الإشارة إلى أن أقدم المستوطنات الأفريقية التي بناها الصوريون هي «أوتيكا» التي تقع في منتصف الطـريق بين «تـونس» و«بيـزرت»، على بعـد اثني عشر كيلومتراً من البحر، إن سبب وجـود المـدينـة في موضعهـا الحـالي، في داخـل البـلاد، عائد إلى تغير مجرى نهر «المجردة» وإلى امتلاء الخليج الصغير بالوحول. وتقع «أوتيكا» في نقطة مختارة على حافة نتوء بمواجهة مضيق صقلية، وعلى المحور الذي يربط مدينة «صور» بـ«أعمدة هرقـل» [جبـل طارق]. لقـد لعبت هذه المدينة بالتأكيد، دوراً هاماً في المشروعات التجـاريـة الفينيقيـة كمركز تجاري وكمحطة استخدمت في عمليات التجارة البحرية اللامشروعة. وتم الكشف في بعض الحفر العميقة في مدينة المقابر عن آثار جنائزية مثـل «الجُعْـلان والتمـائم والخزف» ترقى إلى نهاية الألف الثاني ق. م[٢٢]. ومثل هذه الأشياء لا تسمح بالتأكيد على وجود «تسلسل تاريخي أعلى» ولكن، من الواضح، أن اكتشاف هذا الموقع لم ينته بعد.

ستكون لدينا فرصة التوسع في هذا الموضوع في الفصل القادم حين نتحدث عن أصـل مدينـة «قرطاجة»، التي بُنيت بالتأكيد بعد «أوتيكا» ـ ونشير أيضاً، وقبل أن نتـرك الـواجهـة الشمـاليـة الشـرقيـة لأفـريقيـا، إلى مركز اخر يعود ذلك العصر وهو: «هادرومانتوم Hadrumentum » [سوسة] التي بناها الصوريون أيضاً.

أما فيما يخص سواحل الجزائر والمغرب المتوسطية، فإننا لانملك أي مصدر

أدبي يوضح لنا حالة المراكز التجارية التي بناها الفينيقيون. غير أن الأبحاث الأثارية تسمح لنا بالإشارة إلى مستعمرات تعود إلى عهد التوسع الأول. إن هذه المراسي، التي استخدمت في البداية كمحطات توقف على الطريق إلى المحيط الأطلسي، كانت كثيرة العدد. ونذكر منها: «تيبازا Tipasa» الواقعة في غرب الجزائر، وكذلك، المركز الذي كان موجوداً في «مرسى مدّاخ Madakh» والواقع على مبعدة من خليج «وهران»، وجزيرة «رشغون Rochgoun» التي توجد في عرض مصب وادي «تافنا Tafna» والتي كانت تحوي على بناء يعود إلى القرن السابع ق.م.

وفيما وراء «أعمدة هرقل» تابع الفينيقيون تقدمهم على محورين. فعلى الشواطىء المغربية، أنشأوا في «ليكسوس Lixus» [لاراش] مركزاً تجارياً، كان في رأي «بليني الأقدم» سابقاً على كل المراكز التجارية الموجودة في أفريقيا وأسبانيا. وسنرى فيما بعد أهمية الدورالذي لعبه هذا المركز كمحطة توقف باتجاه السودان، على الطريق المؤدية إلى مناجم الذهب. وزرع البحارة الفينيقيون أخيراً، وعلى بعد ستمائة كيلومتراً إلى الجنوب من «طنجة»، قاعدة فوق صخرة بارزة في خليج «الصويرة» [Ex- Mogadore]، وهي جزيرة حقيقية تقع في «نهاية العالم» على حدود المجهول.

أما المحور الثاني الذي سلكه الفينيقيون فكان باتجاه موطن الثروة Eldorado، إلى اسبانيا. كتب «ديودور الصقلي»: «لقد جمع الفينيقيون بعدما نجحوا في مشاريعهم، ثروات عظيمة، وعزموا على مواصلة الإبحار فيما وراء «أعمدة هرقل»، في البحر المسمى بالمحيط، وبنوا في «آروبا»، أول الأمر، وعلى مقربة من المضيق، مدينة أطلقوا عليها اسم «غادير Gadir» (20, V).

هذا هو أصل مدينة «غادير» أو «قادس» Gades ـ وهي كلمة شاع استخدامها عند الفينيقيين للدلالة على المكان المحمي أو الأرض المحاطة بسور ـ. ومثل مواضع أخرى، بُنيت هذه المدينة فوق جزيرة قريبة من الشاطىء. ورُبط هذا النتوء الصخري الموجود قبالة مصب نهر «الريو غواديليت Rio Guadelete» فيما بعد باليابسة. ولايسمح لنا الركام الحديث الذي يغطي الموقع بنبش المقابر القديمة.

ورغم حجج أنصار التسلسل التاريخي الأعلى، الذين يتمسكون بالمعطيات التي تقدمها الآثار الدينية، فإن هناك فجوة واسعة بين المعلومات التي تقدمها الآثار القديمة المكتشفة والإشارات التي أوردها الكتاب الكلاسيكيون. إذ استخلصت بعض النصوص أن «الصوريين» هم الذين بنو«قادس» في حوالي عام 1110 ق. م، أي قبل عشر سنوات من بناء «أوتيكا».

وليس بمقدورنا أن نفصل مسألة أصل المستوطنات الفينيقية عن قضية أخرى نوقشت مطولاً(٣٣): هل كان بناء «قادس» له علاقة باستغلال المنطقة الخيالية المسماة «ترشيش Tarsis» أي هل علينا أن نربط بين «قادس» و«ترشيش» تلك؟ و«ترشيش» تلك؟ وبالتأكيد، ليس هنا المجال الذي يمكن أن نتوسع فيه في هذا الموضوع الشائك. ولكن، وضمن المعطيات الحالية للبحث، نسمح لأنفسنا أن نقول أن تسمية «Tarshish» ذات الأصل السامي، التي ورد ذكرها عدة مرات في العهد القديم، يمكن أن تنطبق على اسم «Tartessos» الذي ورد ذكره في عدة نصوص قديمة وخصوصاً على لسان «هيرودوت». ولايدل هذا الاسم على مدينة بل على منطقة يمكن أن تكون واقعة في وادي «بايتيس Baetis» الأسفل [الوادي الكبير guadalquivir] وهي منطقة غنية بالعروق المعدنية مثل ركائز الفضة والرصاص الممزوج بالفضة والنحاس والزنك. كما كانت الروابط متاحة، عبر عمق تلك البلاد الغنية بالمناجم، مع عدة محاور متجاوزة الحواجز التي فرضتها السلاسل الجبلية وتسمح بالوصول إلى ساحل البحر المتوسط. وعلى هذا، فمن المؤكد أن مواقع العديد من المراكز الفينيقية كانت موجودة على هذا الساحل، ويمكن أن ترقى إلى عصر بعيد، وهي دون شك معاصرة لـ«قادس»، مثل: «لوس توسكانوس Los Toscanos» على مقربة من «ملقا»، وترايامار «Trayamar» الواقعة إلى الشرق قليلاً في ساحل «المنقّر Al Munecar» حيث اكتشفت مقبرة في موقع مدينة «سيشي Sexi» القديمة. كان موقع مدينة «قادس» يضم مستودعاً تجارياً. ويورد لنا «ديودور» أن المواطنين الأصليين كانوا يجهلون استخدام الفضة، وكان الفينيقيون الذين نزلوا في المركز التجاري، يحصلون على منتجات «ترشيش» المعدنية مقابل سلع رخيصة.

ويقومون بعد ذلك بتحميل هذه المنتجات المعدنية على ظهور سفن معدة لهذا الغرض، قادرة على عبور المسافة الطويلة بين المحيط الأطلسي ومرافيء البحر المتوسط الشرقية وذلك بفضل سلسلة المحطات التي أنشئت على طول هذا الطريق، ونلاحظ من جهة أخرى، أن اسم «ترشيش» انطلق على عدة مواقع في الشرق كما في الغرب، مثل «تارسي Tarse» في صقلية، وجميع هذه المدن تشترك في كونها غنية بالمناجم. ونضيف أخيراً، أن كُتّاب النصوص التوراتية، في حديثهم عن «سفن ترشيش»، لم يكونوا بالتأكيد يقصدون دائماً تلك السفن التي تعرج على «قسادس» كي تجلب منها المعادن الواردة من «ترشيش ـ تارتسوس - Tarshish Tartessos» في اسبانيا. فنحن نعرف أن «سليمان» الملك أرسل مثل هذه السفن نحو بلاد «أوفير» البعيدة. أما ذلك التعبير الذي أخذ مدلولاً واسعاً جداً للإشارة إلى سفن تجارية ما، فهو يعود في جذوره إلى التنظيمات التقنية التجارية التي ربطت «صور» بـ«ابنتها» اسبانيا.

هكذا كان العالم الفينيقي في أوج توسعه، لقد كان مجد ورخاء «صيدون»، وأكثر منها، مجد ورخاء مملكة «صور» يبدوان كطغيان نعمة في نظر العبرانيين. وكان أنبياؤهم يتميزون غيظاً من النجاح الفذ الذي كان موضع شبهة في نظر العبرانيين. فهل من الممكن أن يكون «بعل» و«عشتار» و«أشمون» و«ملقارت»، آلهة كنعان، أكثر قوة من «يهوه»؟ يعرض لنا «حزقيال» في احدى «تجلياته»، وفي صورة بديعة هي في نفس الوقت صفحة خالدة في التاريخ، يعرض لنا المكان الواسع الذي احتلته صور المتجهة إلى «قلب البحور». ولكن، كان على هذه المدينة أن تواجه قدراً مأساوياً. لقد كان هذا النبي، الذي كتبت أقواله في الربع الأول من القرن السادس ق. م، كان شاهداً على خراب «أورشليم» ومعبدها عام 587 ق. م، قبل أن يُنفى هو أيضاً إلى «بابل». إنه يُبشر وشكواه تغطي تهليلاً عميقاً بزوال قوة هذه المدينة الفينيقية:

«ويرفعون عليك مرثاة ويقولون لك كيف بُدت يا معمورة من البحار الشهيرة التي كانت قوية في البحر هي وسكانها الذين أوقعوا رعبهم على جميع جيرانهم» .17) (26 . ففي لحظة الكارثة كانت «صور» قد تركت «أورشليم» تواجه قدرها بل وشمتت

لخرابها. إلا أن دورها سيأتي لتخرب هي أيضاً في قلب هذه الامبراطورية البحرية التي صنعت أمجادها:

«هكذا قال السيد الرب، ياصور أنتِ قلت أنا كاملة الجمال. تخومك في قلب البحور، بنّاؤوك تمموا جمالك، عملوا كل ألواحك من سرو سنير (حرمون). أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوه لك سواري. صنعوا من بلّوط باشان مجاذيفك. صنعوا مقاعدك من عاج مطعم في البقس من جزائر كتيم. كتانٌ مطرزٌ من مصر هو شراعك ليكون لك راية. الأسمانجوني والأرجوان من جزائر أليشة كانا غطاءك. أهل صيدون وأرواد كانوا ملاحيك. حكماؤك ياصور الذين كانوا فيك هم ربابينك. شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلّافوك. جميع سفن البحر وملّاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك. (. . .) ترشيش تاجرتك بكثرة كل غنى بالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك (. . .). سفن ترشيش قوافلك لتجارتك فامتلأت وتمجدت جداً في قلب البحور. ملاحوك قد أتوا بك إلى مياه كثيرة. كسرتك الريح الشرقية في قلب البحار. (. . .) من صوت صراخ ربابينك تتزلزل المسارح. وكل ممسكي المجذاف والملاحون وكل ربابين البحر ينزلون من سفنهم ويقفون على البر. ويُسمعون صوتهم عليك ويصرخون بمرارة ويُذرّون تراباً فوق رؤوسهم ويتمرغون في الرماد. ويجعلون في أنفسهم قرعة عليك ويتنطقون بالمسوح ويبكون عليك بمرارة نفس نحيباً مراً ويرثونك ويقولون أية مدينة كصور كالمُسكّتة في قلب البحر. (. . .) التجار بين الشعوب يصفرون عليك فتكونين أهوالاً ولاتكونين بعد إلى الأبد»[11].

لكن خراب صور لم يحدث إلا بعد قرنين ونصف من نبوءة «حزقيال». حيث حوصرت هذه المدينة الفينيقية العظيمة المتحصنة في جزيرتها، في عام 322 ق. م، ثم دمرت. وتم بعد ذلك بناء ممر من الساحل، وتمكن جنود «الإسكندر المقدوني»، بعد أن تلقّوا دعم أساطيل قبرص ومدن فينيقية أخرى، أن يستولوا على الجزيرة المحصنة حيث ذُبح سكانها.

وإذا كان احتضار المدينة المحاصرة «في قلب البحور» بطيئاً، فمما لاشك فيه

أنه ومنذ زمن بعيد. منذ نهاية القرن السابع ق.م ـ كان زوال امبراطوريتها البحرية يكاد يشرف على نهايته. لقد خضعت صور بشكل متوالٍ لسلطة جيرانها الأقوياء. ومثل باقي المدن الفينيقية، أبعدت من قبل مستعمراتها عن الميدان. كما أن قوتها في آفاق البحار كانت في تراجع. ولكن، كان مايزال لدى مستعمراتها الحيوية الكافية كي تختار بذاتها طرقها الخاصة. وعلى رأس «اسطول» ألقى مراسيه على شاطيء المتوسط الغربي، كانت «قرطاجة» تتهيأ لتفرض ذاتها كسفينة قيادة.

الفصل الثاني

قرت حدَشست ـ المدينة الجديدة

من الأسطورة إلى التاريخ: الملكة «إليسار Elissa»:

جاء اسم «قرطاجة Carthage» من «Carthago» وبدقةٍ أكثر من «Karthago» وهو لفظ لاتيني للكلمة اليونانية «Karchedôn» التي هي بدورها لفظ مشوه للتسمية الفينيقية المركبة (قرت حدَشت)، التي تعني «المدينة الجديدة». وفي وقتٍ ما، وبسبب المفاهيم السياسية للفينيقيين ـ الذين كان يسود في بلادهم نظام دول المدن كما مر معنا ـ فرضت قرطاجة نفسها بقوة على رأس العالم البوني، ونحن لانقبل بالترجمة التي تعطي كلمة «Qart» مدلول «عاصمة» فلقد كان الكُتّاب القدامى يدركون بدقة دلالة التعبير الفينيقي، إذ فسّر «كاتون Katon» أصل هذه الكلمة ومعناها، وأشار «تيت ـ ليف Tite-Live» إلى أن كلمة «قرطاجة» في اللغة البونية تعني «المدينة الجديدة»[٢٥].

إن هذا يدفعنا لأن نستنتج أن هذا الإسم قد اختير ليدلَّ على مدينة ورثت مركزاً أكثر قدماً منها في ذلك الموقع أو أنها ألحقت به.

ومن المحتمل جداً أن يكون الملاّحون الفينيقيون قد أعدّوا أول الأمر محطة توقف في تلك البقعة لأنها حازت على إعجابهم. كما علينا أن نلاحظ أن قرطاجة، التي زُرعت على الساحل الشرقي لأفريقيا الشمالية، كانت تعني «مدينة جديدة» بالنسبة إلى «أوتيكا» التي هي «المدينة القديمة» وتبعد عنها حوالي ثلاثين كيلومتراً وبنيت قبلها بزمنٍ بعيد جداً. لقد بُنيت في القرن الثالث قبل الميلاد «قرطاجة» أخرى - «قرطاجنة Carthagene» في إسبانيا، وكانت هي أيضاً مدينة جديدة، بالمفهوم الذي يدل على «تجديد» البناء الفينيقي القديم لـ«قادس».

إن المرويات الشفهية التي تحكي لنا عن أصل مدينة «قرطاجة» تقدم لنا بعض الفوائد التاريخية، غير أنها بالمقابل تكون غالباً محاطة بالأساطير. ومن المريح لنا أن نحدد أيضاً تاريخ وظروف والأسباب الحقيقية لبناء هذه المدينة. لقد نقلت لنا بواسطة العديد من الكتّاب مختلف المعطيات التي تلامس هذا الموضوع، وخصوصاً بواسطة «تيمي دوتورمانيون» وهو إغريقي من صقلية كان بمقدوره أن يقرأ النصوص البونية، إضافة إلى أنه كان يسأل القرطاجيين عما يعرفونه عن تاريخهم، وبواسطة «ميناندر الإفزي Menandre d'Ephese» أيضاً (بداية القرن الثاني ق.م) وتستند شهاداته على «الحوليات الصورية Les Annales Tyriennes»، وأخيراً، بواسطة «جوستينوس Justin» وهو مؤرخ لاتيني عاش في القرن الثاني ق.م، وينقل لنا بشكل مفصل مروريات شفهية عن سلفه «تروغ - بومبي Trogue-Pompee» وربما كانت هذه المرويات شائعة في أوساط القرطاجيين الذين كانوا على احتكاك مع العالم الإغريقي.

يحكي لنا «جوستينوس» أن «موتو Mutto» أو «ماتان Matan» ملك صور مات بعد أن أورث عرشه لولده الشاب «بيغماليون Pygmalion» وابنته «إليسار Elissa» أو «إليشار Elisha» التي كانت ذات جمال نادر، إلا أن الشعب خلع هذه الأخيرة، مفضلاً أن يكون «بيغماليون» وحده ملكاً. فتزوجت «إليسار» من عمها «أغريباس Acherbas» وهو الكاهن الأكبر لمعبد «ملقارت»، وكان ذا ثروة طائلة إضافة إلى أنه كان يحتل المكانة الثانية في المملكة. وخوفاً من جشع الملك قرر «أغريباس» الفرار

وجه نقدٍ ذهبي من قرطاجة

بعد أن أخفى أمواله تحت الأرض. غير أن «بيغماليون» لم يتوان عن اغتيال هذا الشخص الذي هو عمه وصهره في نفس الوقت. عندها، شعرت «إليسار» بأنها مضطرة إلى الفرار. فباشرت الإعداد لرحيلها بسرية قصوى، واشترك معها في مشروعها هذا بعضٌ من علية أهل صور، من خصوم الملك الجديد. وكان لابد لها، كي تنجح خطتها، من أن تلجأ إلى الحيلة. فادّعت أنها تود ترك قصر زوجها الذي يوحي لها بالحزن الدائم، فوافق الملك على أمل أن تجلب أخته معها أموال زوجها. أرسل «بيغماليون» بعضاً من عماله لمساعدة أخته على الانتقال، وحين هبوط الليل، كانت جميع ثرواتها قد حُملت في سفينة، ثم أخذت «إليسار» معها رُسل الملك، واتجهت السفينة إلى عرض البحر. حينذاك أعطت الملكة أوامرها إلى خدمها كي يلقوا في البحر بأكياس رُبطت بعناية لتوهم الناظرين أنها تحوي على أموالها، بينما كانت في الحقيقة مليئة بالرمل. كانت «إليسار» تبكي وهي تسترجع ذكرى زوجها، قائلة لصحبها أنها بعملها هذا إنما تقدم هبة جنائزية بهذا الذهب المشؤوم الذي كان المسؤول عن ضياعها. توجهت بعد ذلك إلى رسل الملك وأنذرتهم بأنهم سيلقون عذاباً شديداً من الملك لأنهم تركوا أموال «أغريباس» تضيع منهم، هذه الأموال التي اعتقد الملك أن باستطاعته الحصول عليها بالقتل. لذا قرر معظمهم، وخوفاً من المصير الذي ينتظرهم على يد الملك، الإنضمام إلى المجموعة الهاربة، وهكذا انطلق الجميع آملين حماية «ملقارت».

وحين توقفوا في قبرص، محطتهم الأولى، قدم لملاقاتهم كاهن «جونون Junon» مع عائلته، وعرض على الملكة أن يصحبها إلى منفاها مقابل أن تكون الرتبة الكهنوتية وقفاً على ذريته. قبلت «إليسار» هذا الشرط إذ رأت فيه فألاً حسناً للمستقبل. إن هذا التوقف في «قبرص» لم يقدم للملكة سلالة كهنة فقط، إذ قدمت إلى الشاطيء مجموعة من الفتيات، وكان ذلك اليوم يوم عيد، كي يقدمن للآلهة، حسب العادات، «بقايا عذريتهن»، وكن يتبعن هذه الوسيلة بهدف الحصول على مهورهن. غير أن الملكة «إليسار» رأت في ذلك فرصة لتأمين أجيال جديدة للمدينة التي كانت تنوي انشاءها، فتم اختطاف ثمانين من تلك العذراوات وحُملن إلى السفن. أما «بيغماليون» فكان، في هذا الوقت قد علم برحيل الفارّين، بيد أن العرافين منعوه من مطاردتهم، إذ كان كلامهم حاسماً: «لن تمر دون عقاب محاولتك عرقلة انشاء مدينة شملتها عناية الآلهة دون بقية أرجاء العالم».

وهكذا، تمكنت «إليسار» وصحبها من الوصول إلى سواحل أفريقيا. وكان أول ماقاموا به هو سعيهم لإقامة علاقات صداقة مع السكان الأصليين الذين رأوا في القادمين الجدد إمكانية إقامة عمليات تجارية مربحة. عرضت الملكة على السكان أن تشتري منهم قطعة أرض ـ بمقدار مايمكن لجلد ثور أن يغطيها كي تستريح هي وصحبها المنهكون بسبب الملاحة، لقد كان الأفريقيون يخشون هؤلاء الغرباء دون شك، الذين نزلوا بجوارهم بأعدادٍ كبيرة، إلا أن عرض الملكة بدا لهم متواضعاً فقبلوا، غير أن «إليسار» لجأت إلى حيلة جديدة، إذ قامت بقص جلد الثور إلى سيور رفيعة جداً، واستطاعت بذلك أن تحصل على رقعة أرضٍ واسعة جداً، ومن هنا أتى اسم «بيرسا Byrsa» [من اليونانية، بمعنى جلد] الذي أطلق على المكان فيما بعد.

بعد أن تكللت إقامتهم الأولى بالنجاح، انشأ الفينيقيون تجارة تبادلية مع سكان المنطقة كلها. وقام سكان «أوتيكا» الفينيقيون بزيارة أبناء وطنهم، حاملين معهم الهدايا، وحثوهم على إنشاء مدينة على هذا الشاطيء. وكان الأفريقيون يودون أن تدوم العلاقات مع هؤلاء المهاجرين الشرقيين، إذ أنهم كانوا يتقاضون منهم أتاوة سنوية كأجرة للأرض التي يشغلونها. ثم باشر الفينيقيون الحفر بهدف تأسيس

المدينة الموعودة، فعثروا على رأس ثور، فبدا لهم ذلك نذير شؤم، فاختاروا أرضا أخرى عثروا فيها على رأس حصان، ورأوا فيه رمزاً للقيم الحربية والقوة، فكان هو المكان المُختار. وفيما بعد، توافد الكثير من أهل تلك الناحية للسكن في هذه «المدينة الجديدة» بسبب ذيوع شهرتها.

لقد أصبحت قرطاجة مزدهرة وقوية. غير أن «هيارباس Hiarbas» ملك «المكسيتانيين Maxitani» ـ وهم شعب أفريقي ـ قام باستدعاء عشرة من علية أهل المدينة وطلب منهم، تحت التهديد باعلان الحرب، أن يزوجوه الملكة «إليسار». لقد سبب هذا الطلب الذعر للمندوبين، فلم يتجرأوا على نقل الرسالة إلى ملكتهم. غير أنهم، وإدراكاً منهم للمخاطر التي أحاطت بالمستوطنة، عرضوا عليها الأمر مستعملين «حيلة قرطاجية»، قائلين لها أن الملك طلب منهم ارسال شخص يقوم بتمدين الأفريقيين، ثم تساءلوا فيما بينهم عمن يتجرأ ويذهب للعيش مع هؤلاء البرابرة؟ غير أن الملكة وبختهم حينما سمعت منهم ذلك متهمة إياهم بالجبن والإحجام عن التضحية في سبيل سلامة وطنهم. حينها أعلموها صراحة بما طلبه منهم «هيارباس»، طالبين منها أن تنفذ النصائح التي تسديها للآخرين. بكت الملكة كثيراً حين فوجئت بالحيلة، وتذكرت طويلاً زوجها «أغريباس»، ثم قالت لهم أنها ستذهب إلى هناك حيث مصير «قرطاجة». وبعد مضي ثلاثة أشهر، وهي المهلة التي كان الملك الأفريقي قد حددها لتنفيذ طلبه، أقامت «إليسار» محرقة كبيرة عند بوابة المدينة، وقدمت الكثير من الأضحيات، كي تهدأ روح زوجها قبل إتمام الزواج. ثم تسلحت بخنجر وصعدت إلى المحرقة، وقبل أن تطعن نفسها وتسقط وسط اللهيب، استدارت نحو شعبها صارخة: «إني طوع رغبتكم فأنا ذاهبة إلى زوجي».

ومثلما كانت قرطاجة قوية، يضيف «جوستينوس»، حازت «إليسار» على الأمجاد الإلهية[٢٣].

إن من المناسب لنا بدلاً من الشروع بانتقاد هذه القصة الأسطورية، أن نحلل بعض عناصرها التي لها طابع المراجع فيما يخص بعض النقاط التاريخية التي

يمكن أن تكـون قد اثيـرت من قبـل الآخرين، أي أن الأمرليس كشفاً جديداً. وعلى هذا، نقل لنا «ميناندر الإفزي» بعض المرويات الفينيقية التي تقول أنه من بين ملوك صور (خَلفَ «بيغماليون»«ماتان»، وعاش ستين سنة، ملَكَ منها سبعة وأربعين. وفي السنة السابعة من حكمه، هربت أخته وبنت في «ليبيا» مدينة «قرطاجة»[٣٧]).

إضافة إلى هذا، توجد بعض النقاط الدقيقة، فالأسطورة توافق على أنه كانت لـ«أغـربيـاس» المرتبـة الثانية في المدينة. ومن الواضح أن كاتب هذه الأسطورة (أو كتـابهـا) كان يعـرف جيـداً الأهمية العظيمة لعبادة الإله «ملقارت» في «صور»، وكان يعـرف أيضـاً أن هذه الـرتبـة الكهنوتية كانت وراثية في العالم الفينيقي. أما المقطع الـذي يتنـاول النـزول في «قبـرص» - وهـو توقف كان سيطول بالنسبة لفريق «إليسار» الهـارب - فإنمـا هو إشـارة إلى عادة البغاء المقدس المرتبطة بعبادة «جونون Junon» الذي أشار إليه «هيرودت 199,I». وكما يذكر أحد مقاطع التوراة «الملوك الثاني، 7, 23». فإن مثـل هذه الطقـوس كانت متفشية في بابـل بين المؤمنين بعشتار. ونعرف أيضـاً أن القـرطاجيين واصلوا، وخلال عدة قرون، دفع أتاوة سنوية للأفريقيين، لقد كان مناسباً لفريق «إليسار»، حسب ماروى لنا «جوستينوس»، أن يدفعوا تلك الإتاوة: فهـذا كان يعني اكتسـابهم شرعيـة بنـاء مدينتهم فوق تلك الأرض، وإظهـارهم للمستـوطنـات وللأفـريقيين رغبة مشتركة بإنشاء علاقات طيبة. وأخيرا، فإنه مما يدل على الدقة أن يرد اسم «المكسيتانيين Maxitani» [في النص الأغريقي Mazices]، للإشارة إلى السكان الأصليين، إذ أنها أقدم تسمية استخدمت من قِبل سكان أفريقيا الشمالية القديمة[٣٨].

وإذا كانت بعض العناصر التي تحويها تلك المرويات تعبر عن مواقف تاريخية موثـوقـة، فهي، مع ذلـك، قد كتبت على شكل حبكة أسطورية. ومثلنا على ذلك، المقطـع الشهير الخـاص بجلد الثـور (Byrsa) الـذي كان مفتـرضاً أن يغطي مساحة الأرض المطلوبـة. وكـذلك اكتشاف رأس الحصان. وربما كان الإغريق قد لاحظوا وجـود بعض القطـع النقـدية البونية، ذات الطابع الفينيقي، والتي تحمل اسماً سامياً كانت كتـابتـه (أو لفظـه، تنطبق على الكلمة الإغريقية byrsa - التي يمكن أن يكون

لها عند القرطاجيين دلالة أخرى غير معنى «جلد» ـ وكذلك فيما يخص رأس الحصان، ولذا قام الإغريق بإعطاء تأويلاتهم الخاصة بغية خلق هاتين القصتين. إذ أن قصة جلد الثور المقصوص إلى سيور بهدف تحديد المستوطنة الجديدة. والتي ربما كانت تعود إلى طقوس دينية متبعة خلال عملية البناء ـ كانت ذات دلالات كافية للإشارة إلى سعة الحيلة أو الدهاء، وهما صفتان امتاز بهما التجار الفينيقيون في أوساط منافسيهم.

وبالمقابل، ليس من السهل أن نحدد أصل اسم «ديدون Didon» الذي سُميت به بانية مدينة «قرطاجة» في بعض المرويات. إذ يورد لنا «تيمي» في أحد نصوصه أن الملكة «إليسار» بعدما تعرضت لبعض المحن، رست في ليبيا، وهناك أطلق عليها هل البلاد الأصليون اسم «ديدون» وذلك بسبب الرحلات البعيدة التي قامت بها»[29]. كما أن الشاعر الروماني «فرجيل Virgile» يشير في «الإنيادة» إلى الأميرة الصورية باسم «ديدون»، إلى جانب اسمها «إليسار». ومن الواضح، أن لدينا الآن تسمية ألحقت بالاسم الحقيقي. ولكننا لانعرف بكل تأكيد كيف فسّر لنا المؤرخون الإغريق ذلك، فهذه الكنية يجب أن تُفسر إذن بالرحلات العجيبة التي قامت بها الملكة.

ومع سعينا لتمييز العناصر التاريخية التي تحويها هذه الإسطورة، فإن مسألة أخرى لابد أنها استرعت انتباه مؤرخي «قرطاجة»، وهي مسألة تحديد تاريخ بناء هذه المدينة العظيمة. ونقول فوراً: أن الفرضيات الحالية تبقى مستبعدة، فشرحها لايدخل في صلب موضوعنا. لقد حاولت بعض المؤلفات الحديثة أن تثبت أن إنشاء هذه المدينة ربما يكون أحدث من أن يرد في المصادر الأدبية، إذ أن البعض، وهم من محبذي ارجاع تاريخ بناء المدينة إلى عهد قريب، يرون أن هذه العملية قد تكون حدثت بين عامي 673-663 ق. م[30]. والبراهين المقدمة للتوصل إلى هذا الإستنتاج تبدو جريئة جداً، بل ومرتجلة أيضاً. إن القطع الأثرية المستخرجة من موقع العاصمة القديمة لايمكن بالتأكيد أن ترقى إلى ماقبل النصف الأول من القرن الثامن ق. م - وهو تاريخ لايزال مدار نقاش ـ بيد أن الخرائب ماتزال تنطوي على آثار أقدم. حتى أن

اختصاصياً في هذا المجال، وهو «بيير سانتاس Pierre Cintas»، الذي استخلص بعض النتائج من عمليات السبر، ينبه إلى المشاكل التي يمكن أن تطرحها الآثار البونية، إذ أن المدافن الأولى في المدينة ماتزال، كما يقول، في طور الإكتشاف[٣].

لهذا، يمكن لنا بالتأكيد أن نقبل مختلف المرورويات الكلاسيكية والشرقية، التي تتفق بمجملها في هذا الموضوع: إن بناء مدينة «قرطاجة» يرقى إلى الربع الأخير من القرن التاسع ق.م، أي فيما بين عامي 824-813، ويؤكد لنا «تيمي دوتورمينيون» - الذي يستمد معلوماته من مختلف المصادر البونية أو ذات الأصل البوني - أن إنشاء مدينة «قرطاجة» حدث في عام 814 ق.م، ويعتمد الكثير من الكُتّاب القدامى هذا التاريخ، كما هو حاصلٌ اليوم، فهو في الواقع تاريخ محتملٌ جداً. ومع ذلك، فلا شيء يسمح لنا أن نظن أن المستوطنة الجديدة تمكنت فوراً من الإستفادة من وجود المراكز التجارية والمستوطنات التي بنيت قبلها في المتوسط الغربي، ولكن، لو أجزنا ذلك، فإن القصة التقليدية لبناء المدينة من قبل «إليسار» ووجود أميرة من صور يضفي على هذه «المدينة الجديدة» سحراً خاصاً.

«ديدون التعيسة infelix Dido» هكذا كان «فيرجيل» يقول، فلقد اختفت الملكة بشكلٍ مأساوي، بيد أن موتها الدرامي دشن المصير العظيم الذي كان ينتظر «قرت حدَشت».

عاصمة في قلب المتوسط

أنشئت «قرطاجة» في أحد أجمل المواقع في العالم قاطبة، في موقع كان يقدم لها مزايا قيمة، إذ أنه كان يؤمن لها ضمانات كافية لتطورها كعاصمة ولحماية مجدها الصاعد.

لم يتغير هذا المنظر اليوم، فالسماء والبحر يتكئان على أفقٍ ذي زرقة أكثر شفافية بكثير مما يبدو في الجزر اليونانية، فيما تنحدر الجروف ذات اللون الأحمر باتجاه الساحل الذي يتطاول حتى يصل إلى النتوء الصخري حيث تتعلق أشجار

الصبار في «سيدي بوسعيد». هنا يتوقف الزمن، مع ذلك، وحين نألف مدينة تونس، الهادئة والرصينة ببيوتها الفخمة المختفية وراء مختلف أنواع العرائش والزهور، فإن قرطاجة ـ هانيبعل، النائمة في حرارة الصيف، والتي لاتصحو من خدرها إلا حين يهبط المساء، حزينة وقد تركها الجميع تحت مطر الشتاء، حينها، يشق علينا قليلاً أن نتخيل كيف كان حال أم المدن هذه، وحال شعبها الجوّال، وحشودها الملونة والصخّابة، وأسواقها النشيطة بتجارها المغامرين، وموانئها التي كان تضج بالحيوية، وورشتها الحربية التي كان باستطاعتها أن تبني وتسلح أقوى أساطيل المتوسط، ومعابدها الشامخة عالياً حاملة أسماء آلهتها القوية.

لقد كان موقع مدينة قرطاجة البونية واسعاً بما فيه الكفاية كي يضم مجمل المدينة الكبيرة إضافة إلى الضواحي والملحقات. ويوضح لنا المؤرخ «بوليبوس Polybe»، وهو مصدر موثوق جداً إذ أنه كان شاهداً على حصار وسقوط العاصمة، فيقول: «تقع المدينة ذاتها على شاطيء أحد الخلجان، في شبه جزيرة تكاد تكون محاطة إما بماء البحر أو بمياه بحيرة. وتصل بالقارة بواسطة لسان عرضه خمسة وعشرون غلوة (أي مايساوي 4400 متراً)، وعلى طرف هذا اللسان القليل من المساحة، توجد مدينة «أوتيكا»، وفي الجهة الأخرى، وبمحاذاة البحيرة، توجد مدينة «تونس» [...]، كما توجد في هذا اللسان مجموعة من التلال الصعبة الاجتياز إلاّ من خلال بعض الطرق المشقوقة بأيدي البشر لتربط قرطاجة بباقي البلاد» (75, 2, 73, 2, I).

وهكذا نرى أن الملكة «إليسار» وصحبها لم يتركوا اختيار الأرض التي بنوا مدينتهم عليها للمصادفة، إن هذا الموقع يوجد في منطقة ساحلية مألوفة. فهنا أيضاً تم إنشاء إحدى تلك القواعد المخصصة لتكون رابطاً بين مختلف المجالات: من جهة، المجال البحري، وهو المملكة الحقيقية للمستوطنين القادمين من صور، ومن جهة أخرى، مجالات الأقاليم التي تعود إلى شعوب سكنت فيها بشكل نهائي. وكي يؤمن القرطاجيون الحماية اللازمة وسط هذا العالم الذي كان دائم الإستعداد لأن يصبح معادياً لهم، كان من الضروري أن يشكل التوء الساحلي وضواحي المدينة

احتياطات أمنٍ إضافية، ومثل هذه الأسباب كما نعرف دفعت الفينيقيين، ولأسباب أمنية، إلى اختيار مواقع مدن «صور» و«صيدون» و«أرواد» و«قادس». لقد كانت شبه الجزيرة تلك التي وقع عليها بصر القادمين الجدد، تضم كافة الميزات الدفاعية؛ ففي حالة الحصار، كان بإمكان المحاصَرين أن يقاوموا طويلاً، إذ أنهم كانوا قد هيأوا في البقعة الجغرافية التابعة للمدينة أراضٍ زراعية واسعة تكفي لإنتاج الغلال الضرورية لتموين الشعب.

لقد كانت شبه جزيرة «قرطاجة» أشبه بمرساةٍ عملاقة مرمية صوب البحر، وكان مدخلها محمياً بسلسلة من الذرى تشكل خط الدفاع الأول (جبل نهلي)، إضافة إلى لسان يتقدم باتجاه الشرق إلى عرض البحر، وعلى طول خمسة عشرة كيلومتراً. وكان هذا اللسان يتصل ببحيرة شاطئية قليلة العمق وغنية بالأسماك ـ وهي حالياً بحيرة «تونس» أو سبخة «البحيرة» ـ عن أحد الخلجان، وهو اليوم مغطى بقسمه الأكبر بطمي نهر «المجردة» (وآخر شاهدٍ على هذا الخليج هو سبخة «الريانة»)، وكانت مدينة «أوتيكا» تقع في قلب هذا الخليج. وكان على القرطاجيين أن ينشئوا عبر هذا النتوء الجبلي الطويل، وعلى نقطة لايتجاوز عرضها الأربعة كيلومترات، خطاً دفاعياً متقدماً بلغ طوله ثلاثين كيلومتراً. ويضم خندقاً عريضاً محفوراً في الجهة الغربية، إضافة إلى قاعدة مركزية ذات حباك(*)، واستحكامات، وربما كانت توجد أيضاً مراصد، وأخيراً كان يوجد خندق خلفي.

كان هذا الخط الدفاعي يسد الممر المتجه إلى الشرق[٣٢]، لقد كانت المدينة مع ضواحيها تمتد على هذا القسم الذي تقارب مساحته الخمسة آلاف هكتار. ونقول، كي تكتمل الصورة، أن هذا الطرف الذي كان يتشكل من نتوء صخري مرتفع ـ وهو عبارة عن جزيرة قديمة اتصلت بالساحل بفضل تجمع الطمي ـ كان يمثل طرفي المرساة.

لقد بوشر بإجراء تحريات أثرية، تعود بدايتها إلى قرن مضى، تشمل كل

---

* حباك: حظيرة من القصب شُدَّ بعضه إلى بعض. المترجم.

موقع قرطاجة

منطقة قرطاجة وماتزال مستمرة حتى هذه الأيام. وسمحت هذه الأعمال بتحديد جزئي لطبوغرافيا المدينة. ونحن نعرف أن العاصمة البونية في أوج قوتها، كانت تمتد على رقعة أوسع بكثير مما كان بعض المؤرخين يتصورونه. ومع ذلك، فليس من السهل علينا أن نتمكن من تحديد محيط المدينة، فموقعها، الذي اتسع خلال عدة قرون، قد دُكَّ تماماً، وأعيد بناؤه عدة مرات. إن محاولة تحديد خريطة لموقع المدينة ستعتمد بالتأكيد على الخيال أكثر من الواقع. فقد أشارت لنا المعطيات الآثارية أن مدينة «قرطاجة» كانت تمتد بين خليج «كرام Kram» الصغير ومنحدر «سيدي بوسعيد». وبالطبع، فإننا نستعمل التسميات الحالية لهذه المواقع، وكان

هذا الشريط يضم بشكل خاص، شاطيء «سالامبو» والمكان المسمى «برج الجديد». ولم تكن قرطاجة ـ هانيبعل، فيما بين هاتين النقطتين، تغطي سوى حياً واحداً من العاصمة القديمة، ولكن هذا بالتأكيد كان قلب المدينة.

ويمكن أن نعتبر، بشكل ما، أن هذه السواحل كانت مهد المستوطنة الجديدة، ولكن علينا أن نبحث قليلاً من النقطة التي ثُبتت فيها هذه المستوطنة: هل في «دِرمش Dermech» الواقعة قرب «برج الجديد»؟ أم على شاطيء «سالامبو» مثلما يظن البعض حالياً؟ فهذه النقاط تمتد على مسافة تقل عن ثلاثة كيلومترات ولا تتغير المناظر فيما بينها إلا ماندر. ومن الواجب علينا أن نقرأ نصاً مثيراً كتبه عالم الآثار «بول كوكلر Paul Gauckler»، الذي عمل منذ نهاية القرن الماضي ولمدة طويلة على طول هذا الشاطيء.

«هذه المنطقة من قرطاجة (الواقعة على أطراف خزانات «برج الجديد» وفي سفح هضبة «الأوديون Odeon») والتي ربما شكلت [. . .] النواة الأولى للمدينة الكبيرة، كانت تبدو أفضل من أية نقطة أخرى على طول الساحل من أجل بناء مركز تجاري بحري، إذ أنها مفتوحة تماماً باتجاه الشرق، إلى الجنوب من الخليج المحمي من الرياح السائدة القادمة من المرتفعات الجبلية التي تبدأ من موقع «بيرسا» ثم تتجه إلى الغرب لترسم قوس دائرة، ولتنتهي في الشمال بتتوء «سيدي بوسعيد» الصخري الذي تتكسر عليه أمواج البحر. لقد كان هذا الموقع يقدم للسفن ملجأ طبيعياً هو الأكثر أماناً على طول الساحل. كما أن هذه المحارة ذات الشكل النصف دائري، والتي تكاد تكون معزولة عن بقية أراضي القارة، والمختفية تماماً خلف سور من التلال التي يسهل الدفاع عنها، قدمت للفينيقيين احتياطات أمن كانت هي هدفهم قبل أي شيء. لقد كان أولئك البحارة الجسورون في سعيهم لبناء مركزٍ تجاري دائم. يعاينون كل شطآن المتوسط دون أن يتجرؤ ا على اختراق أراضي القارة الأفريقية. وكانوا على أهبة الاستعداد دوماً لأن يلفوا مراسيهم حتى على الشطآن الأقل

ترحاباً، غير أنهم سرعان ماكانوا يبلغون عرض البحر حين صدور أية إشارة تدل على الخطر».

ويواصل «بول كوكلر» أنه «وكما يبدو، استطاع البحارة الفينيقيون الأول الذين عبروا الخليج، ثم ولجوا المياه الأكثر هدوءاً بعد أن تجاوزوا نتوء «برج الجديد» الصخري، وتمكنوا من التأكد أن هذا الشاطيء آمن ويمكن الوصول إليه بسهولة، إذ أنه كان يلي، وبشكل مفاجيء، جروفاً صخرية منيعة. لقد سعى هؤلاء التجار حثيثاً للوصول إلى مكان توقف ملائم، حتى ألقوا مراسيهم وسحبوا مراكبهم، بشكل نهائي، إلى رمال هذا الشاطيء، وقاموا بعدها برفع أول مبانيهم [. . . .]، وهنالك أيضاً، حفروا قبور موتاهم أسفل التل»[٣٣].

تم بناء المدينة إذن على شريط ساحلي ضيق يبدأ من شاطيء «كرام» وينتهي بنتوء «برج الجديد» الصخري. وعلى طول هذا الشاطيء ترتفع بالتدريج السفوح الشرقية لتلتي «بيرسا» [57 م] و«جونون» [54 م]، اللتين ترتفعان جنباً إلى جنب بمواجهة البحر. إلا أنه، كما يبدو، لم تصل المدينة، حتى في أوج توسعها، إلى خط الذرى هذا، الذي كان يحوي على دفاعاتٍ طبيعية جيدة. مع ذلك، فإن هذه المدينة لم تكن مغلقة ضمن حلقة مقفلة بين مقابرها وخطوط دفاعاتها والشريط الساحلي كما يحلو للبعض أن يصفها: فلقد أجمعت كتابات المؤرخين القدامى مثل: «بوليبيوس، تيت ـ ليف، سترابون، آبيان، ديون كاسيوس. . .» على اتساع المدينة الأم «قرطاجة».

وحين يقال أن قرطاجة كانت تمتد في شرق شبه الجزيرة، وراء خط الدفاع الذي يسدّ مدخل اللسان، فهذا لايعني أن الأبنية الحضرية كانت تغطي هذه المنطقة كلها، فبين هذه الأبنيةوبين الإستحكامات الدفاعية تلك، كانت تمتد أراضٍ مكشوفة شكلت جزءاً من النظام الدفاعي للمدينة، كما أن طول الأسوار التي أحاطت بكتلة المدينة وملحقاتها الأساسية تسمح لنا بتكوين فكرة عن طبوغرافيتها، إذ أن محيطها كان يبلغ قرابة اثنين وثلاثين كيلومتراً. و«قرطاجة الكبرى» كانت تمتد إذن على مساحة واسعة جداً. وضمن هذه المنطقة كانت توجد ضاحية «ميغارا»

الريفية [المغارة] التي أسهب «آبيان» في وصف حدائقها السبخية، وبساتينها التي كانت تُروى بواسطة أقنية عميقة ومتعرجة، وتخومها الحجرية الصلدة وأسيجتها الشوكية. وليس من الممكن أن نتعرف بدقة على هذه المنطقة التي ذكرت النصوص الأدبية أنها كانت قريبة من اللسان، وبعيدة في الوقت ذاته عن بقية أنحاء المدينة، يحف بها خط من الصخور المشرفة على البحر. ويبدو أن المقصود بذلك هو الريض الممتد في داخل المنطقة الشمالية لشبه الجزيرة، ومن الممكن أن تتطابق هذه الأراضي المستأجرة والمستقلة مع السهل، هذه الأراضي ذات المساحات المتواضعة والتي كانت موجودة في منطقة «المرسى»، وفي الغرب أيضاً، ضمن منطقة مرتفعات «جبل خاوي» و«برج ابن عياض» المشرفين على الشاطيء واللذين يفضيان إلى «رأس غامارث Gammarth» الذي يمكن أن تعود تسميته إلى تحريف لكلمة «ميغارا ـ المغارة» القديمة.

إن قرطاجة، حينما كانت عاصمة البحر المتوسط الغربي، كانت تشغل مساحة واسعة جداً. كما أن القرطاجيين، وبهدف توسيع نشاطاتهم، وفي سبيل الإكتفاء ذاتياً من المؤ ن، قد سعوا لإقامة علاقات مباشرة ويومية مع سكان المناطق البونية المحيطة بهم والموجودة خارج شبه الجزيرة. كتب «ستيفان غيزل Stephane Gsell» ـ المؤرخ الخبير في مجال تاريخ العصور القديمة ـ كتب يقول: «ان الشاطيء الغربي لشبه جزيرة «الرأس الطيب Cap Bon» كان، وبشكل من الأشكال، جزءاً من ضواحي قرطاجة»[٣٦].

من المرافيء إلى الأكروبول(*)

لن نتمكن بطبيعة الحال من معرفة كيف كان شكل مدينة قرطاجة في مختلف

---

* الأكروبول: Acropole، كلمة ذات أصل اغريقي، مؤلفة من قسمين: Akros أي «المرتفع» و Polis أي المدينة المرتفعة، وتستخدم للدلالة على جزء محصن في المدينة.

المترجم

مراحل تطورها التاريخي، فالإشارات القليلة التي وصلت لنا عبر المصادر الأدبية، وكذلك المعطيات الآثارية، وهي الأكثر مصداقية، سمحت لنا، على الأقل، بمعرفة بعض المظاهر المدينية بحيث نتمكن من تكوين صور متداخلة ضمن إطار شامل.

لقد كان أول مايبحث عنه الفينيقيون، حينما يشيدون مركزاً ما، أن يراعوا في بنائه عناصر الحيطة والأمن، وذلك بتعزيز الدفاعات الطبيعية للموقع الذي تم اختياره. ومع أننا نجهل طبيعة الأعمال الأولية التي قام بها المستوطنون الأول النازلون في «المدينة الجديدة» فمن المؤكد وجود سورٍ كان يحيط بكتلة المدينة الأولية، مما سمح للسكان بمقاومة أية هجمات محتملة قادمة من القارة الأفريقية عبر الممر المفضي إلى اللسان. كما سمح لهم، في الوقت نفسه، بالبقاء مجتمعين أمام المرفأ، بحيث كانت السفن تمثل لهم الملاذ الأخير.

ويبدو أن القرطاجيين كانوا يتمكنون، غالباً، من صد هجمات جيرانهم الأفريقيين. ولم تتوقف مدينة «إليسار» خلال القرون التالية عن التوسع وخصوصاً في أزمنة السلم. كما رافق توسع المدينة اتساع موازٍ، وبشكل كبير، للأحياء السكنية على طول الشاطيء وفي الذرى المشرفة على الشريط الساحلي، حيث بنيت هناك منظومة دفاعية قوية، إذ أنها كانت تتعرض، وبشكل دائم، لتهديدات محتملة.

ومنذ نهاية القرن الرابع ق.م، وعندما حاصر «آغاتوكلس Agathocle» المدينة بين عامي (310-307 ق.م)، وفي زمن الحروب ضد «روما» أيضاً، كان على القرطاجيين أن يواجهوا الحصارات والهجمات الموجهة ضدهم. لذا، وتداركاً لمثل هذه الأخطار القاتلة، أنشأ سكان المدينة خطوطاً دفاعية قوية للغاية، لقد حولت منطقة قرطاجة إلى معسكر حصين، يحيط به سورٌ واسعٌ، طوّق المدينة كلها، إضافة إلى ضاحيتها «المغارة».

ومن الطبيعي أن يكون مكمن الخطر بالنسبة للمدينة في الجهة الغربية. فمن هناك كان يصل الطريق القادم من القارة. ولقد كان مقتل المدينة خلف الخندق وشبكة الحواجز التي تسد اللسان. لذا تم تعزيز السور الموجود في هذا القطاع بحيث أصبح مؤلفاً من جدارين يمتدان على عرض شبه الجزيرة كلها. وبُني هذا السور

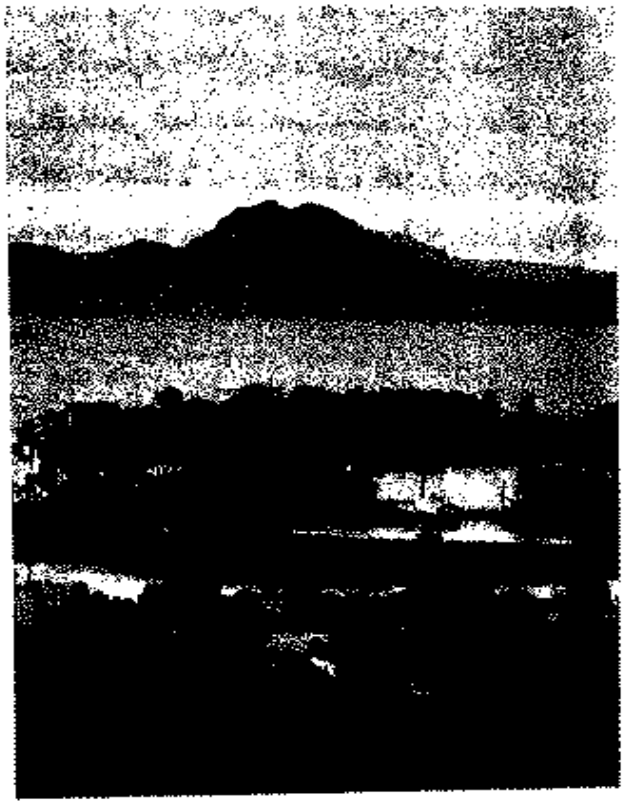

البحيرات الشاطئية في موقع المرافيء البونية في قرطاجة

بحجارة منحوتة، وبلغ ارتفاعه ثلاثين ذراعاً (13,22 م)(*)، واحتوى في أعلاه على طرق تفتيش وفتحات الإستحكامات، أما عرضه فبلغ عند القاعدة ثلاثين قدماً (8,88 م)، ودعم هذا السور بأبراج مؤلفة من أربع طبقات، تنتصب بشكلٍ ناتيء، وعلى مسافات منتظمة، بحيث كان باستطاعة المدافعين أن يصيبوا بحرابهم المهاجمين الذين يحاولون هدم الجدران أو تسلقها.

* المقصود بالذراع هنا وحدة قياسية تساوي حوالي 50 سنتمتراً، ولا تشبه الذراع بالمفهوم المستخدم لدينا.

المحقق

كان هذا السور المنيع يضم أيضا ثكنات ومستودعات حربية، وبنيت فيه حصون من طابقين تنفتح على داخل السور، ويضيف المؤرخ «آبيان»، الذي قدم لنا هذه الإيضاحات : «وكان يوجد في أسفل الأسوار أماكن تتسع لثلاثمائة فيل مع مؤونة غذائية كاملة لها. أما في الأعلى، فتوجد اسطبلات تتسع لأربعة آلاف حصان مع مخازن للأعلاف والشعير، إضافة إلى ثكنات يمكن أن تستوعب عشرين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف فارس» [Libyca, 95] ونذكر أخيراً، أن هذه القلعة الضخمة كانت محمية هي أيضاً بصور آخر أقل ارتفاعاً، كان المهاجمون يصطدمون به حينما يتمكنون من اختراق الخط الدفاعي المتقدم الذي كان يضم خندقاً ومنظومة دفاعية.

لقد كانت هذه المنشآت الدفاعية فعالة جداً. إذ لم يتمكن الرومان من فتح أية ثغرة في أسوار القطاع الغربي مطلقاً. غير أن المدينة لم تكن مشمولة بمجملها، بالشبكة الدفاعية الآنفة الذكر. إذ أن السور الذي كان يحمي منطقةً «المغارة» كان عبارة عن جدار بسيط يحاذي شاطيء البحر. وكان هذا السور، في نقاط أخرى، ينتصب فوق الصخور المشرفة على الشاطيء.

إن القرطاجيين، وربما بدافعٍ من إحساسهم بتفوق أسطولهم البحري الذي كان يقوم بحراسة هذه الشواطيء، لم يروا ضرورة لإنشاء سورٍ على طول الشاطيء شبيه بالسور الذي يسدُّ مدخل اللسان، إذ كان هذا السور، وبفضل الأشكال التضاريسية للقطاعات الشمالية والشرقية والجنوبية، كافياً لتأمين الحاجات الدفاعية، إننا سمعنا عن الإنجاز القليل الأهمية الذي حققه «ل. هوستيليوس مانسينوس L. Hostilius Mancinus» الذي تمكن في إحدى ليالي ربيع عام 147 ق.م ـ وقبل سنة واحدة من هزيمة قرطاجة، وخلال الحصار الذي كانت المدينة تتعرض له منذ سنتين ـ استطاع أن يحطم باباً سرياً في ضاحية «المغارة» المليئة بالأحراش، وشهن هجوماً مرتجلاً على تلك المنطقة. إلا أنه، في الصباح التالي، تعرض لهجوم من مختلف الجهات من قبل الفرق القرطاجية التي كانت موجودة في أحد معاقل «جبل خاوي»، وحينما رأى القائد الروماني وجنوده أنفسهم محاصرين ضمن هذا الفخ، اندفعوا باتجاه أسفل الجرف الصخري المشرف على الشاطيء.

وبمحض الصدفة، لم يكن «سيبيون» قد ثبت تواجده في تلك المنطقة، ولم يكن قد حاول فصل رأس الجسر هذا حيث وقعت مفرزة «مانسينوس» المحاصرة ضحيةً لمناورات قائدها، وأصبحت في موقف يائس.

لم يبق من سور قرطاجة الشهير الذي حدثنا عنه الكتاب القدامى أي أثر. أما الخندق العريض الذي كان يشكل خط الدفاع الأول المواجه للقارة الأفريقية، فقد كُشف عنه عام 1949 . بواسطة عمليات سبرٍ جوي، وتم التقاط الصور له، وظهر فيها أشبه بمحورٍ مستقيم يمتد بطول يزيد عن الكيلومترين، متميزاً بلونه الفاتح عن لون أرض اللسان. كما أظهرت التنقيبات الأثارية أساسات هذا الخندق[٣٥].

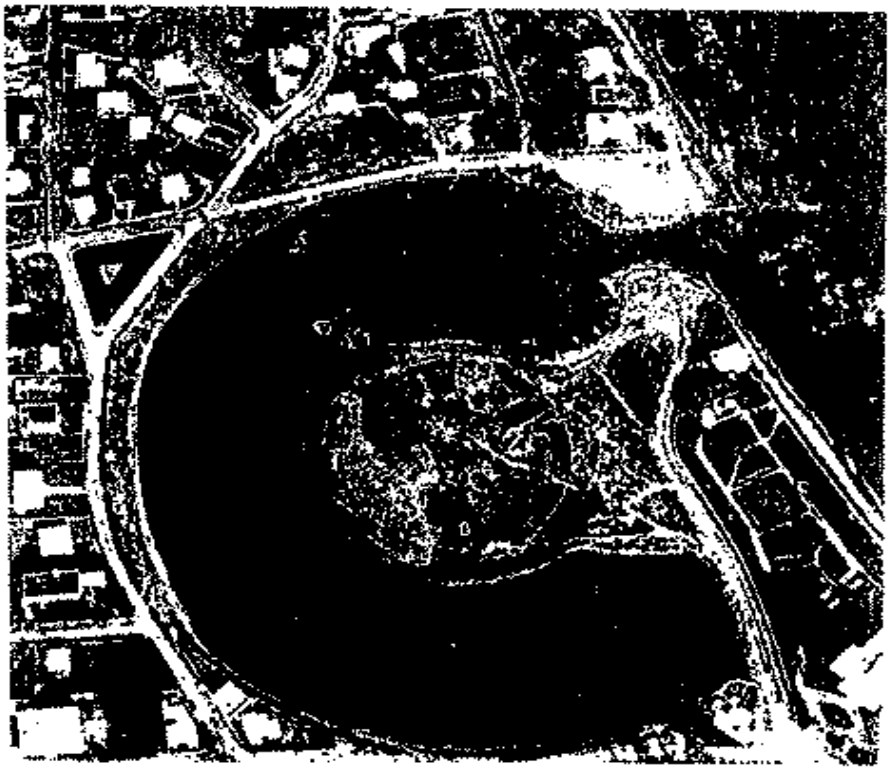

قرطاجة: المرفأ الحربي ـ الكوثون ـ حافظ على شكله الدائري رغم مرور السنين.

في الوسط: الجزيرة التي كانت قيادة البحرية تعطي أوامرها منها بواسطة قرع الطبول والمرايا العاكسة لأشعة الشمس.

نعم، لم يترك الرومان من هذه الأسوار حجراً واحداً، فهي التي سمحت للعاصمة البونية بتحدي هجماتهم لمدة طويلة. ومن ناحية أخرى. فمن الممكن جداً رؤية مابقي من مرافيء قرطاجة. إن أعمال السير إضافة إلى الخرائب الأثارية هي وحدها التي تسمح لنا بتقديم أجوبة موثوقة[٣٦].

لقد وصف الكُتّاب بدقة مرافيء قرطاجة تلك، ويعود الوصف إلى زمن الحرب البونية الثالثة. كان لقرطاجة ميناءان: واحد تجاري، والآخر حربي. وكان يطلق عليهما، أحياناً تسمية مشتركة هي «كوثون Cothon»، وربما يعود أصل هذه الكلمة إلى جذر سامي (وليس إغريقي»، وتحمل في أصلها مفهوماً يدل على: القطع Couper، أو القص Tailler، فلقد كانت أحواض هذه المرافيء صنعية حُفرت باليد في أرض شبه الجزيرة. يشير «سترابون» في أحد مقاطعة (14,3,XVII) إلى أن «الكوثون» كان يضم قسماً رباعي الزوايا، وقسماً آخر دائري. وكانت توجد على شواطئها أحواض مجهزة لاستقبال السفن على الأرصفة.

لقد قدّم لنا «آبيان»، نقلاً عن «بوليبوس»، أفضل وصف لميناءي قرطاجة. وها نحن نقدم ترجمته[٣٧]، إذ ليس هنا مجال الدخول في جدال عنيف مايزال يسببه هذا النص:

« جهز ميناءا قرطاجة بحيث كانت السفن تستطيع المرور من ميناء إلى آخر. ويتم الدخول إليهما من البحر عبر مدخل عرضه 70 قدماً (20,72م)، يُغلق بواسطة سلاسل حديدية، وكان المرفأ الأول مخصصاً للتجار، وقد جُهز بأقلاسٍ كثيرة متعددة الحجوم. وكانت توجد جزيرة في المرفأ الداخلي. وكانت الجزيرة والمرفأ محاطين بأرصفة واسعة توجد بمحاذاتها أحواض يمكن أن تتسع لـ 220 سفينة، وكانت توجد مخازن التجار فوق هذه الأحواض. وفي مقدمة كل حوضٍ كان يوجد عمودان أيونيان، مما يعطي للمرفأ والجزيرة شكلاً شبيهاً بالرواق. وبُني فوق الجزيرة جناح خاص بقائد الإسطول كانت تصدر منه إشارات النفير ونداءات الحرب. إضافة إلى أنه، أي قائد الإسطول، كان يقوم من هناك بمهام المراقبة، إذ أن الجزيرة تقع في مواجهة مدخل الميناء وتتميز بارتفاع يتمكن معه قائد الإسطول من رؤية مايحدث

في البحر، في حين لم يكن باستطاعة القادمين من عرض البحر أن يميزوا بدقة مابداخل المرفأ. وحتى بالنسبة للتجار الذين كانوا يدخلون بسفنهم إلى المرفأ، لم يكن بمقدورهم أن يروا ترسانات الأسلحة التي كانت محاطة بجدارٍ مضاعف بأبواب سمح للتجار بالمرور عبر أول باب إلى المدينة دون أن يكون بإمكانهم المرور على الترسانات» (Libyca 96).

ويرد في نصٍ آخر لـ«آبيان» أن سهلاً تراكمياً يدعوه (Choma) [*] كان يستخدم لتكديس البضائع ويشكل جزءاً من الأحواض، ويقع في مدخل القناة الفضية إلى المرفأ التجاري. إن احتلال هذا الرصيف بعد معارك ضارية، هو الذي سمح لجنود «سيبيون إيمليان» ـ وكان يوجد في مقدمتهم «تيبريوس سمبرونيوس كراكشوس Tiberius Sempronius Gracchus» ـ بفتح ثغرة دخلوا عبرها إلى حي المرافيء، ومنه انطلقوا إلى قلب المدينة.

قلنا سابقاً أن العديد من الأبحاث الطبوغرافية حاول أن يحدد موقع مرافيء قرطاجة، وبما أنه ليس من اختصاصنا أن نعرض مختلف الإفتراضات، فسنستعيد رأياً مشتركاً ومعروفاً حول هذه المسألة، بانتظار نتائج التنقيبات الجارية التي يمكن أن تقدم لنا معلومات حاسمة، إن البحيرتين الموجودتين في الطرف الجنوبي للسهل الساحلي قرب منطقة (سالامبو)، وعلى بعد مئة متر من الساحل الحالي، تشكلان بقايا (الكوثون)، وهذه الآثار، ذات المظهر المتواضع، هي لأحواض موحلة لانرى حولها أية بقايا تدل على وجود أرصفة. ففي الشمال، كان يوجد المرفأ الأول وله شكل غطاء دائري، وتقارب مساحته الثمانية هكتارات، في وسطه جزيرة تتصل بالشاطيء الداخلي بواسطة لسان أرضي، ومن المعتقد، حسب الأوصاف السابقة،

---

* من الأفضل ترجمتها «ساحة واسعة» وليس كما أرادها الكاتب «سهلاً تراكمياً». فاللفظة اليونانية «خوما χωμα» تعني بالواقع الأتربة المكومة أو الردم، أو السد الردمي والحواجز الردمية وماشابه ذلك. وأرى أن تفسيرها بالسهل التراكمي غير مناسب، وربما كان الأفضل أن نقول «ساحة تكديس البضائع» كالساحات المعروفة حالياً في المرافيء.

المحقق

أنـه كان المـرفأ الحـربي القـديم . وكـان هذا المـرفأ يتصـل بمسطح مائي آخر، ذي مسـاحـة مضـافـة وشكل مستطيل وربما كان المرفأ التجاري ، أما القناة القديمة التي كانت تمتد في خليج «كرام» الصغير، فإنها اليوم مغطاة بالطمي .

تبـدو هذه الأحـواض، دون شك، متـواضعـة للغاية أمام الشهرة الواسعة التي تمتعت بهـا مرافيء العـاصمة المتوسطية . إن نص المؤرخ «آبيان» الذي أوردناه قبل قليل - يشير إلى أن الميناء الدائري كان يضم مئتين وعشرين حوضاً، ومن المفترض أن يكون العديد منها واسعاً بحيث اتسع للسفن الخماسية الصفوف من المجاذيف، كمـا يشيـر «سترابـون» (15, 3, VII) أنـه خلال آخر حصارٍ تعرضت له المدينة، تمكن القـرطـاجيـون من بنـاء مئة وعشرين سفينة . ومن هذا نستنتج أن هذه المرافيء كانت تتمتع بمنشآتٍ هامة جداً، إذ ليس من السهل أن يتم تركيز إسطولٍ ضخم كهذا في حوض دائري .

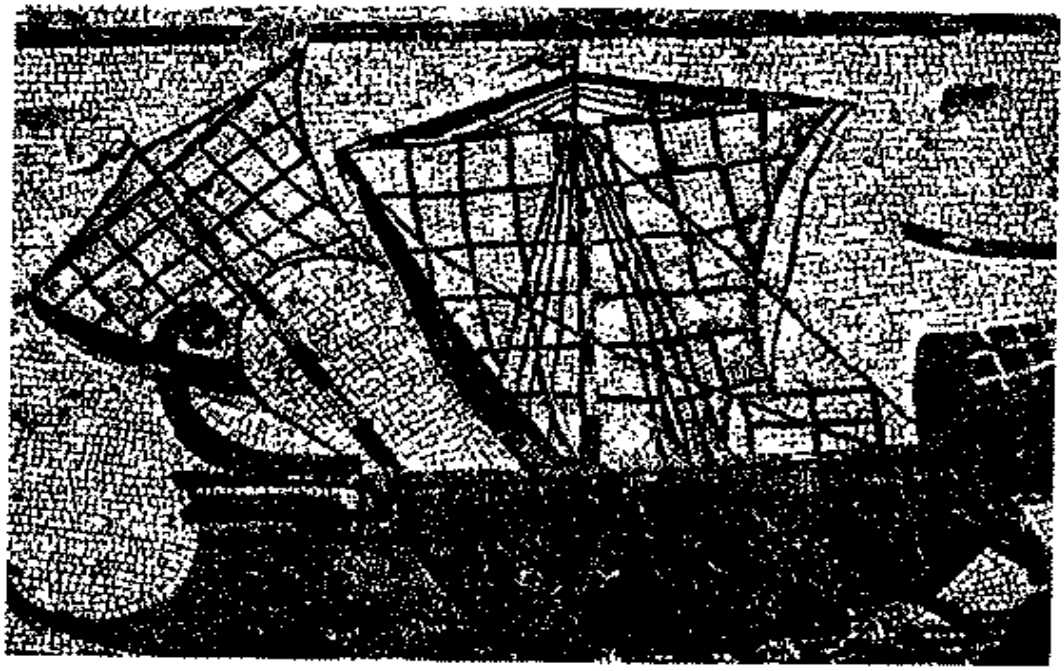

قارب تجاري قرطاجي . [متحف سوسة، تونس]
فسيفساء ترجع إلى بداية العهد المسيحي

ومع ذلك، لا يمكننا استبعاد فرضية تطابق المرفأين مع البحيرتين الشاطئيتين، إذ أن علينا أن نتذكر أن حي المرافيء ذاك قد دُمر أولاً حين سقوط المدينة، واستخدم مرة أخرى ورمم في فترة الاحتلال الروماني. حيث تمت إضافة منشآت هامة أخرى إلى الغرب من الحوض المستطيل. إلا أنها تعرضت للدمار عام 306 ب. م بفعل زلزال أدى، بكل تأكيد، إلى الإجهاز على مابقي من الآثار القديمة.

لاشك أن أول ماشغل المستوطنين الأول الذين نزلوا في الساحل الأفريقي هو السهر على حماية منشآتهم، لذا كان احتلال التلال المحاذية للساحل والتي كانت تشكل خطاً دفاعياً طبيعياً هو أول عمل توجهوا له. إذ قاموا ببناء حصن دفاعي. ويشير المؤرخون القدامى إلى أنه، وفي زمن الحرب البونية الثالثة، كانت توجد قلعة تحمل اسم «بيرسا» على قمة تل وتشرف على الذرى الشديدة الإنحدار. وعلى العموم، يمكننا القول، وهذا رأي «ستيفان غيزل» أيضاً، أن «بيرسا» القديمة كانت توجد فوق التل الذي عرف فيما بعد باسم تل «القديس لويس St. Louis» حيث بنيت «بازيليكا»(*)، وأصبحت اليوم متحف قرطاجة الوطني ـ المجاور لتل «جونون». وعلينا الإعتراف أنه إذا كانت قمتا هذين التلّين قد شُغِلتا بمدن المقابر وبالأبنية البونية، فإن قمة «سيدي بوسعيد» (129 م) كانت مناسبة بشكل أفضل لإقامة الأكروبول الذي يشرف ليس فقط على المدينة الواطئة وحي المرافيء، بل على المدينة بأسرها مع ضواحيها.

إن الخرائب الأثارية المكتشفة يمكن أن تحمل بعض الإشارات التي تسمح بتوضيح ماذهبت إليه النصوص الأدبية التي تذكر لنا أن موقع «بيرسا» المحصن كان معززاً بدفاعات، ربما كانت سوراً مزدوجاً. ومن الساحة الرئيسية [آغورا Agora، عند الإغريق، أو Forum عند الرومان] كانت تخرج ثلاثة شوارع تحف بها منازل

---

* أصل الكلمة من اليونانية «Baaxhokos» وتحمل مدلول: الملكي. انتقلت بعدها إلى اللاتينية وصار يقصد بها البناء الرسمي المستطيل الشكل في أحد طرفيه جزء ثانيء نصف دائري، ثم صارت الكنائس (الكاثولوكية خصوصاً) تسمى «Basilica».

المحقق

مؤلفة من ست طبقات، تصعد باتجاه القلعة. وفي موقع مطل على تل «بيرسا»، وفي نهاية درج فخم مؤلف من ستين درجة، كان ينتصب ضمن السور المقدس أجمل وأفخم معابد المدينة، إنه معبد الإله «إشمون».

سيبقى بالتأكيد كثير من النقاط الغامضة حتى يتم رفع أنقاض الأسوار وتحديد موقع حوض «الكوثون» وحصن «بيرسا»، مع ذلك، وإذا كانت طبوغرافيا قرطاجة القديمة غير معروف، بدقة، فإن معلوماتنا عن مقابرها وفيرة بما فيه الكفاية.

كانت المواقع التي شغلتها مدن المقابر بتتابع القرون تبتعد شيئاً فشيئاً عن المنطقة الساحلية حيث تركز السكان أول الأمر. وكانت المقابر تحدد بشكل من الأشكال حياة المدينة العظيمة، بل إنها شاهد على مجدها طوال ستمائة وثمانية وخمسين عاماً ومن وجودها. إلا أنه من الأكيد، وهذا ماسبق أن أوضحناه، أن مدينة المقابر الأقدم لم تكتشف حتى اليوم.

كانت المدافن الواقعة حول المدينة تتراجع تدريجياً أمام امتداد الأحياء السكنية، ففي البداية، تراجعت إلى تلي «بيرسا» و«جونون»، ثم إلى الشمال، باتجاه مرتفعات «دُعيمس» و«درِمش» وأخيراً باتجاه منحدرات «برج الحديد» وفوق هضبة (سان مونيك St. Monique) (سعيدة).

ونورد فيما يلي نصاً لـ«بول كولكر» الذي أمضى أربع سنوات في أعمال التنقيب ضمن المقابر البونية، يقول فيه: «إن الخرائب التي عملت فيها [...] ضمن مدينة المقابر البونية في «درِمش» القريبة من قرطاجة، سمحت لي بتوسيع الحفيرة التي كنت قد فتحتها، سابقاً، من الجنوب إلى الشمال [...]، وبمقدار ماكانت الحفيرة تبتعد عن قلب المدينة، كانت القبور تبدو أحدث، وكانت ميزاتها تتغير بشكل ملموس، أما في الحفر التي فتحتها في الرمال البكر، فقد تتابعت القبور المبنية والنواويس. وكلما صعدنا باتجاه مرتفعات «برج الجديد» كانت المدافن تصبح حديثة أكثر فأكثر»[٣٩].

وسيتم التطرق فيما بعد إلى مسألة الشعائر الجنائزية ـ التي تخص معتقدات شعب ما ـ إضافة إلى مسألة القرابين. وعلينا أن نوضح هنا أنه إذا كانت «فرت

حدشت» قد ذاع صيتها بقوتها البحرية وحيوية مرافئها (الكوثون)، وإذا كانت هذه العاصمة تحمي ثرواتها خلف أسوارها المنيعة، فإن لها أيضاً مكانة دينية سامية. إن هذه المدينة، ومنذ وصول الملكة الهاربة وحتى المذبحة النهائية، قد اثبتت وبلا توقف اخلاصها لآلهة «صور». ألم يُنشيء القرطاجيون في قلب قلعتها، هناك حيث لم يتمكن العدو من الوصول إلى المدينة إلا بعد تدميرها، معبداً لـ«أشمون» إله الحرب «الأمير المقدس» لمجمع الآلهة الفينيقي؟.

هكذا فإن «المدينة الجديدة» لم تكن فقط قاعدة بحرية واسعة لتجار مغامرين، ولا مركزاً تجارياً نشيطاً يديره رجال أعمال أثرياء، بل أيضاً، وربما أولا، كانت معبداً أقامه القرطاجيون لمجد الآلهة القادمة من فينيقيا!...

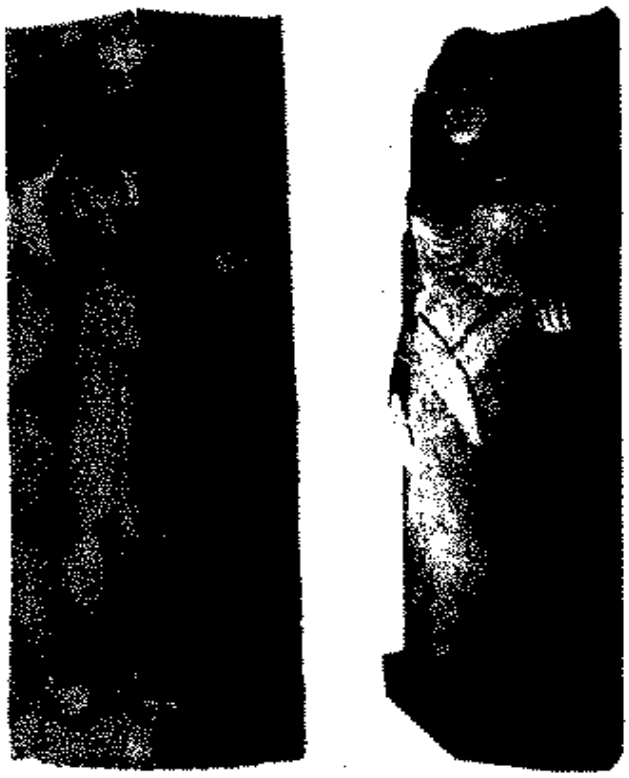

قرطاجة: غطاء ناووسين من الرخام المحفور،
(ربما يمثلان كاهناً وكاهنة) (القرن الرابع أو الثالث ق.م)

الفصل الثالث

المدينة والناس

«لقد عُرف القرطاجيون بأنهم منظمون بشكل جيد. كما أن دستورهم هو أرقى بكثير، وفي نواحٍ عديدة، من الدساتير الأخرى».

أرسطو

كم كان عدد سكان قرطاجة إبان اصطدامها مع روما؟ قد يكون من غير المجدي أن ننتظر اشارات واضحة حول هذه النقطة. يشير «استرابون» الذي كتب بعد مُضي قرنٍ ونصف ومن الحرب البونية الثالثة إلى أن المدينة نفسها كانت تضم (700) ألف ساكن ينتشرون فوق مساحة لاتتجاوز 250-300 هكتار، إن هذ الرقم مبالغ فيه بالتأكيد، أما فيما يخص ضاحية «المغارة» الواسعة والتي تقارب مساحتها 25 كم٢، فقد كانت الكثافة ضئيلة نسبياً في هذه الرقعة الريفية والفقيرة عموماً، فهل كان الرقم الذي أورده المؤرخ الجغرافي «سترابون» يعني في نفس الوقت سكان المدينة مع سكان العمق الجغرافي الأفريقي حيث استقر القرطاجيون؟ نبقى هنا في

مجال التخمينات. غير أن الشيء المؤكد هو أن عدد مواطني قرطاجة كان كبيرا نسبياً*.

ونلاحظ في هذاالمجال أن المواطنة، التي كان يحق لكل من تحدر من أبوين قرطاجيين التمتع بحقوقها، كانت، ومثل أماكن أخرى، ممنوعة على العبيد والمحررين. وبالمقابل، كان يوجد عدد كبير من الأجانب من أفريقيين وإيطاليين، ممن سكنوا في المدينة بصفتهم سكاناً أحراراً، إذ حصلوا على حقوقهم المدنية مقابل الخدمات التي أدوها للدولة، كجنود في جيشها بشكل خاص. وفي القرن السابع ق.م، وبعد دمار «صيدون» وخضوع «صور»لسلطة آشور بانيبعل، وجد الكثير من الفينيقيين، الذين تمكنوا من الفرار، أنفسهم مضطرين للقدوم والاستقرار في هذه المستوطنة الغربية التي كانت ثروتها تتزايد بسرعة. ولقد تمتع هؤلاء القادمون الجدد، دون شك، بالحقوق المدنية والسياسية بسهولة.

والآن، هل بمقدورنا أن نكون فكرة عن مؤسسات «قرطاجة» وتنظيماتها؟ يمكننا في هذا الخصوص أن نبدي ملاحظتين: الأولى هي أن الكتاب الذين تطرقوا

---

* هناك مصادر أخرى تعطي تقديرات متواضعة جداً لعدد سكان قرطاجة بحيث تعتبر أن سكان المدينة مع ضواحيها لم يكن ليتجاوز المئتي ألف. وتبرير ذلك أن قرطاجة في المرحلة الحرجة من الحرب وإبان انقطاع المدد لم تستطع أن تضع تحت إمرة «هاملقار» أكثر من عشرة آلاف رجل ومثلها تحت إمرة «حنون» كما أن مجموع الذين دافعوا عن المدينة خلال حصار عام 149 ق.م لم يتجاوز الثلاثين ألفاً.

- K. J. Beloch, Die Bevolkerung der griechisch- Romischen Welt. Leipzig 1886. P. 467.

انظر أيضاً الكتاب المترجم عن الفرنسية:

Ignaz Miller, Karthago, Leben und kultur, Stuttgart 1983, P. 66.

كما أن المعطيات التي تقول أن القرطاجيين زجّوا في الحرب البونية الأولى بأكثر من مئة وخمسين ألف رجل في أسطول مكون من ثلاثمئة وخمسين سفينة، تبررها هذه المصادر باعتماد قرطاجة الدائم على تجنيد المرتزقة الأجانب.

المحقق

لمثل هذه المواضيع قلّة، وهم جميعاً غرباء عن المفاهيم الفينيقية ـ البونية مثلما هم غرباء عن تاريخ المدينة، إضافة إلى أنهم عالجوا هذه المواضيع بمصطلحات لغاتهم الأم، وذلك حين أشاروا إلى مؤسسات محددة لا يمكن أن تماثل ماكان موجوداً في العالمين الإغريقي والروماني. إن مسألة عدم التطابق في عمليات نقل المعلومات هذه ـ والتي كانت أشبه «بترجمات حرفية» ـ لا يمكن لها أن تلقي الضوء على مختلف مظاهر التنظيمات السياسية البونية، حتى أن النصوص التي وصلت إلينا لاتقدم لنا إلاّ أفكاراً تقريبية.

أما الملاحظة الثانية فهي أنه من غير الممكن المطالبة باصطناع ترتيب مفصل ما لهذه التنظيمات، كما لو أنه كان يوجد «دستور» قرطاجي بقي دون تغيير منذ نشوء المدينة وحتى دمارها! إن هذا المفهوم الجامد Statique يعني لنا أن أم المدن الأفريقية كانت تبعاً له أداة طيعة في خدمة الارستقراطية التجارية، وهذا يمكن دحضه بسرعة وسهولة، فقرطاجة، في الحقيقة، مثلها مثل روما، أو الدول ـ المدن الإغريقية والفينيقية، عرفت تطوراً سياسياً انعكس على المستويين الاجتماعي والديني وكان على صلة مباشرة بمراحل التوسع الاقتصادي، أي مع مختلف مراحل المد والجزر اللذين شهدتهما العاصمة البونية في المتوسط الغربي.

ومن المحتمل أن «قرطاجة» اقتفت باديء الأمر آثار المؤسسات التي كانت موجودة في الوطن الأم. لقد كان النظام السائد في «صور»، كما في بقية المدن الفينيقية، هو النظام الملكي الوراثي. ومع ذلك، يبدو أنه إلى جانب السلطة الملكية تلك، كان يوجد ماسُمي «مجلس الشيوخ» [Anciens] الذي مُثّلت فيه العائلات الكبيرة. إن «جوستينوس»، في حديثه عن الرحلة العجيبة التي قامت بها الملكة «إليسار» يشير إلى «المواطنين الأول وأعضاء «مجلس الشيوخ» [Senateurs] الذين وقفوا ضد الملك الجديد «بيغماليون».

استأثرت عائلة «الماغونيين» بالسلطة ولثلاثة أجيال متتالية، وكانت أغنى العائلات التجارية في «قرطاجة»، وتتحدر من «ماغون Magon»، وهو قائد عسكري، أقتفى بدوره، على مايبدو، آثار قائد عسكري آخر اسمه «مالكوس

Malckus» وهو شخصية تاريخية موضع خلاف، وتمكنت «قرطاجة» في عهد هذه الأسرة، التي شكلت سلالة حاكمة حقيقية، من كبح جماح التوسع الإغريقي في المتوسط الغربي، واحتكرت المدينة لوحدها الإمتيازات التجارية مع اسبانيا واستثمرت ثرواتها المنجمية الهائلة في ترشيش ـ تارتسوس (ورد ذكرها فيما سبق)، ووسعت قواعدها في سردينيا وعلى جزء من صقلية حيث اصطدمت بعد ذلك بمقاومة شديدة من حكّام «سيراكوز». لقد تمكنت «قرطاجة»، آنذاك، من السيطرة على تجارة السواحل الأفريقية، بدءاً من خليج «سيرته» وحتى السواحل المغربية، وربما إلى ماوراءها ـ ومن الممكن أن يكون البحّار الشهير «حنون» قد قام برحلته العجيبة التي سيرد ذكرها فيما بعد، في فترة حكم الماغونيين ـ لقد أصبحت قرطاجة أمبراطورية بحرية وتجارية واسعة الأرجاء، كما تمكنت من التخلص من دفع الأتاوة التي فُرضت عليها حين تأسيسها إلى الأفريقيين، بل أنها فرضت سيطرتها على مناطق غنية وثرية في وسط تونس الحالية وشمالها.

إن معلوماتنا عن مؤسسات السلطة خلال القرنين السادس والخامس ق. م قليلة، ولكن يبدو أن المدينة قد خضعت لشكل من أشكال «الملكية» المبتكرة، إذ أنها كانت وراثية وانتخابية في نفس الوقت. وفي الواقع، ورغم أن جميع «الملوك» كانوا يتحدرون من عائلة واحدة هي العائلة «الماغونية»، إلا أن تقليدهم مناصبهم كان يتم من قبل مجلس مازلنا نجهل طبيعته، وكان هؤلاء «الملوك» يحتفظون بالسلطة حتى وفاتهم، ويبدو أن هذا المجلس كان يأخذ بالإعتبار الميزات العسكرية للمرشحين لشغل ذاك لمنصب. إذ تم اختيار «هاملقار» ملكاً، (وهو الذي قتل وهُزِم عام 430 ق. م في (هيمير Himere بصقلية)، ليس لأنه كان يتحدر من عائلة الماغونيين فقط، بل أيضاً بسبب شجاعته التي ذاع صيتها (هيرودت VII, 165). ونضيف أيضاً أن السلطة العليا في الدولة تطورت سريعاً، ونورد في هذ الخصوص نصاً معبراً لـ«جوستينوس» يقول فيه: «ولأن عائلة الماغونيين هذه كانت تضغط على الحريات العامة وتتدخل في سير أمور العدالة إضافة إلى حكم الدولة، فقد تم تشكيل محكمة وتعيين خمسة قضاة اختيروا من بين أعضاء مجلس الشيوخ، وكان

على قادة الجيش، بعد كل حربٍ، أن يمثلوا أمامها ليقدموا تقارير عن عملياتهم. وتهدف هذه العملية إلى زرع احترام سلطة الدولة في نفوس القادة، وكي تكون رهبة القضاء والقانون محركاً لهم في سبيل خضوعهم لقرطاجة» (5, 2, XIX).

وخلال النصف الثاني من القرن الخامس ق. م، قام هؤلاء «الملوك» شيئاً فشيئاً بتخفيف الدور الذي كانت تلعبه المؤسسات الدستورية. فبعد اضمحلال نفوذ «الماغونيين»، انتقلت السلطة إلى عائلة أخرى هي العائلة «الحنونية Hannonides» التي أسسها «حنون الكبير» وإلى منافيسهم من عشيرة «هاملقار». ويمكن أن نرى في محاولة «بوملقار»، الذي سعى لأن يقود عملية اصلاح للسلطة عام 308 ق. م، وطالب بتنصيبه ملكاً، يمكن أن نرى في ذلك رد فعل على التشريعات السائدة، غير أنه صُلب في ميدان قرطاجة، وتمكن، من على صليبه، من توجيه آخر خطبه إلى الشعب (جوستينوس XXII 11, 8,7). إن تفسخ السلطة الملكية أدى إلى تشكيل حكم أقلية من العائلات الكبرى التي جنت ثروات هائلة إبان فترة التوسع «الأمبريالي» في عهد الماغونيين، إذ رغبت هذه العائلات، إلى جانب ثرائها الفاحش، أن تمارس السلطات السياسية، ولقد عرض لنا «أرسطو» في كتابه «السياسة» طبيعة الهيئات الدستورية التي تطورت بسرعة والنظام الإنتخابي الذي كان سائداً في «قرطاجة» آنذاك، حيث يقول: «لقد عُرف القرطاجيون بأنهم منظمون جيداً، كما أن دستورهم هو أرقى بكثير، ومن عدة نواحٍ، من الدساتير الأخرى [. . .]، إن عدد المؤسسات في قرطاجة كبير وهذا يدل على الإحترام الذي يحظى به الدستور، لقد ظلت هذه المدينة متمسكة بهيئتها الدستورية بسبب اعتماد الدستور على إرادة الشعب، إذ لم يقع قط أي حدث جدير بالملاحظة كحوادث التمرد أو محاولات الإستيلاء على السلطة» ويضيف «أرسطو» قائلاً:

«إن لهذا النظام هيئات (مجالس) شبيهة بتلك الموجودة في دستور «لاكونيا Laconie»*، فالجمعيات السياسية (Hetairies) الموجودة في قرطاجة شبيهة بال-

* (لاكونيا Laconie)، وأصل الاسم «لاكيديمونيا Lakedaimon»، وهي الأرض الخصبة الممتدة

(Phitidies) الموجودة في «اسبرطة»، كما أن هيئة قضاة الـ«مئة وأربعة» تشبه مجلس Ephores (مجلس حكام اسبرطة)، وأخيراً فإن الملوك القرطاجيين، (أي القضاة Suffetes) ومجلس الشيوخ (Gerousia) يماثلون ملوك ومجلس شيوخ مدينة اسبرطة. إلا أن الميزة التي تتفوق فيها قرطاجة هي أن الملوك (أو القضاة) لم يكونوا منتمين إلى عائلة واحدة أو إلى عائلة بحدّ ذاتها. أما في حال وجود عائلة ما قوية، فإن التيار الملوك كان يتم بالإقتراع، بدلاً من أخذ كبر السن بعين الإعتبار[. . .]، إن الدستور القرطاجي يميل أحياناً إلى الديموقراطية، وأحياناً أخرى إلى الأوليغارشية (حكم الأقلية)، إنه ديموقراطي لأن «الملوك» كانوا، مع «مجلس الشيوخ» أحراراً في أن يعرضوا أو لا يعرضوا على الشعب قضية ما إذا كانوا جميعهم متفقين حولها، وإلا فإن بمقدور الشعب التدخل وحسم مثل هذه المسائل. أما بالنسبة للقضايا التي يتم طرحها على الشعب، فكان «الملوك» ومجلس الشيوخ، يتيحون له، ليس فقط الإصغاء لقرارات الحكومة، بل أيضاً، امكانية الحديث بحرية مطلقة، وكان بمقدور كل مواطن أن يناقش القضايا المعروضة للبحث، وهذا ماليس موجوداً في دساتير أخرى».

«من ناحية أخرى، ترك الدستور لحكومة الخمسة (Pentarchies) وهي هيئة مؤلفة من خمسة قضاة وتبتّ في القضايا الخطيرة بشكل غير قابل للنقض، ترك لها أن تشارك في عملية انتقاء الهيئة العليا لمجلس المئة. وكانت هذه الحكومة الخماسية تمارس سلطتها لمدة أطول من مدة أعضاء هيئة القضاة (فهم حتى لو تركوا مسؤولياتهم أو كانوا على وشك تحملها، يمارسونها عملياً)، وهذه هي الصفة الأوليغارشية في دستور قرطاجة. إضافة إلى ذلك، توجد في الدستور سمات

طولياً في البيلوبونيز، في منخفض Eurotas، على سفح جبل Taygetas. ويطلق هذا الاسم للدلالة، أحياناً، على عاصمة المنطقة اسبارطة Sparte، ويُدعى سكانها، تخفيفاً، اللاكونيين Lakones. وتبعاً لذلك كانت المنطقة غالباً ماتدعى «لاكونيا».

المحقق

ارستقراطية مثل القاعدة التي تنص على أنه لايجب على القضاة بذل أموالهم لقاء توليهم مناصبهم، ولايتم اختيارهم بالقرعة أوبأي طريقة مشابهة، وعلى هيئات القضاة أن تكون لديها إمكانية الحكم في كافة القضايا دون أن توزع الإختصاصات مثلما كان موجوداً في دستور (لاكيديمونيا)».

ويتابع «أرسطو» قائلاً:

«لقد انجرف النظام السياسي القرطاجي من الإرستقراطية إلى الأوليغارشية بفعل ضغط الرأي العام الذي رأى أن المعيار الذي يجب اتباعه في عملية انتخاب القضاة، ليس فقط جدارة المرشحين بل غناهم أيضاً. فالمواطن الفقير لايمكن أن يكون قاضياً جيداً، وبهذا أصبح انتقاء القضاة حسب ثرواتهم مبدأ «أوليغارشيا»، في حين أن انتقاءهم حسب الجدارة أصبح يُعتبر مبدأ ارستقراطياً، وأدى هذا إلى وجود تركيب ثالث استندت إليه القواعد الدستورية القرطاجية. لقد أصبح هذان الشرطان يؤخذان بعين الإعتبار خلال عمليات الإنتخاب وبشكل خاص انتخاب القضاة الأرفع شأناً كالملوك والقادة العسكريين. إلا أنه علينا، مع ذلك، أن نفسّر انحراف المبدأ الارستقراطي هذا على أنه خطأ المُشرِّع. [. . .] ومن الطبيعي أن يعتاد أولئك الذين اشتروا مناصبهم على جني الأرباح منها، إذ أن سبب قوة نفوذهم عائد إلى سعة ماينفقونه من أموال [. . .]. وكان بالإمكان، أيضاً، رؤية شخصٍ واحدٍ يمثل عدة مناصب في نفس الوقت، حتى أن قرطاجة اشتهرت بهذا التقليد. [. . .] ومع أن نظامهم أوليغارشي، استطاع القرطاجيون أن يتحاشوا بواسطة المخاطر وذلك بسبب غنى مواطنيهم، إذ أنهم كانوا يرسلون، وبشكل دوري، قسماً من الشعب إلى المدن التابعة لهم، وبهذا استطاعوا أن يحققوا، رسوخ دستورهم»[١٠].

وباستطاعتنا أن نتمم هذا العرض ذا المحتوى الفقهي Doctrinale ببعض المقولات المجتزأة التي يكن استخلاصهامن كتابات «ديودور الصقلي» و«تروغ بومبي»، إضافة إلى ماكتبه الجغرافي الإغريقي (ايراتوستين Eratosthene) في القرن الثالث ق.م، الذي كان يلاحظ أن البعض لم يكن يقيم أي اعتبار لأي من الشعوب

البربرية وبشكل خاص «للقرطاجيين الذين كان لديهم هيئات سياسية جديرة بالإعتبار»[١١].

من مجمل هذه النصوص يمكننا أن نستخلص أنه كانت توجد على رأس الدولة هيئة مكونة من أعضاء مجلس الشيوخ يطلق عليهم اسم Suffetes (القضاة Shofet)، وهي تسمية فينيقية معروفة لدينا بفضل النقوش البونية. نقلها لنا «أرسطو» بمدلول (Basileus باسيلوس = ملك) بيد أن المعنى الحقيقي لهذه الكلمة يطابق تماماً المدلول المستخدم به في «سفر القضاة» التوراتي.

كان يُنتخب قاضيان في كل عام لترؤس مجلس الشيوخ، وكانا يسيطران ليس فقط على السلطة القضائية التي تهتم بالمسائل الخاصة ـ ومن مسؤوليتهم هذه اشتقت تسميتهم Suffetes ـ وإنما على السلطة السياسية أيضا؛ إذ كان يحق لهما دعوة المجلسين اللذين نص الدستور على وجودهما والإشراف على أعمالهما لإحالة القضايا التي يجب البت فيها إليهما. ومع ذلك، يبدو أن هذين القاضيين قد أبعدا عن المؤسسة العسكرية التي عُهد بها إلى ضباط كبار «Genereaux». ومن ناحية أخرى، لاشيء يسمح لنا أن نظن أن السلطة الدينية كانت بمنأى عنهما.

تحدثنا فيما سبق عن مجلسين كانا يجتمعان بإشراف القضاة. فلقد كان يوجد في قرطاجة هيئة أطلق عليها اسم «المجلس الكبير Grand Consell» [بوليبوس Syncletos: 4, 1, XXXVI, 18, 2, X]، أو كما سماه المؤرخ الروماني «تيت ـ ليف» اسم «Senat» ـ وهي تسمية شائعة في العالم الروماني ـ. وكان أعضاء هذا المجلس يجتمعون في بناء واقع على مقربة من ميدان «قرطاجة» الرئيسي. وكان يضم زمن الحرب البونية، هيئة محددة ودائمة، أطلق عليها اسم «مجلس الشيوخ»، وماتزال المعلومات حول عملية اختيار الـ «Syncletos» قليلة، ولكن يبدو أن هيئته كانت مقتصرة على ممثلي العائلات البارزة. وكانت اختصاصاته واسعة: مثل القضايا السياسية والإدارية البت في مسائل الحرب والسلام، مناقشة الشؤون الخارجية والسفارات، الإشراف على تنظيم الجيش واختيار المرتزقة، تدريب الضباط القادة ومحاسبتهم بعد الهزائم والحكم عليهم، إضافة إلى كل مامن شأنه

المساس بأمن الدولة وإصدار القوانين المختلفة الخاصة بالضرائب والشؤون المالية.

لقد كان هذا المجلس واسعاً جداً بحيث كان ينبثق عنه مجلس آخر هو الـ«مئة وأربعة» الذي تحدث عنه «أرسطو» حين قال أن اختياره كان يتم «حسب الجدارة»، وكان شبيهاً بالمحكمة العليا، ومؤهلاً لمراقبة وتدقيق أي أمرٍ في شتى المجالات. وإضافة إلى صفتهم القضائية الخاصة بالحق العام، كان أعضاء مجلس الـ«مئة وأربعة» غير قابلين للعزل، ومسؤولين عن تحقيق الأمن العام بإشرافهم على شرطة قوية جدا. لقد تحدث أرسطو أيضاً عن «الحكومة الخماسية» [Pentarchies] ـ المؤلفة من خمسة أشخاص ـ وكانت مهمتها مراقبة قطاعات الحياة السياسية أو الاجتماعية المختلفة.

بهذا نرى أن حكام قرطاجة أسلموا زمام قيادةالدولة وإداراتها إلى هيئات متعددة بدلاً من أعضاء مجلس الشيوخ الذين كان كل واحد منهم مسؤولاً عن شأن معين وبصورة مستقلة، الأمر الذي ربما كان سببه الحذر من أية محاولاتٍ طموحة هدفت إلى إدخال الإصلاحات على نظام إسرة الماغونيين، التي استأثرت كلياً بالسلطة، كما رأينا.

كما أوضح لنا «أرسطو» في عرضه المبسط أن مجلساً آخر وكان يوجد في قرطاجة إلى جانب المجلس الكبير، سماه «مجلس المواطنين». وأكد العديد من النصوص القيمة وجود هذا المجلس الشعبي الذي كان يعقد اجتماعاته في الميدان العام، إما بدعوة من القضاة Suffeles، أو من تلقاء نفسه عند وقوع أحداث خطيرة. وكان هذا المجلس يتمتع بسلطات هامة، إذ أصبح من حق هذا المجلس وحده، بدءاً من القرن الثالث ق. م، اختيار قادة الجيش الكبار، ولهذا، كانت مسؤولية الهزائم العسكرية، حين حدوثها، تقع على عاتق الشعب كله. كما أصبح المجلس، زمن هانيبعل برقا، يعين القضاة ومجلس الشيوخ. كما كان يجتمع أيضاً للتشاور في القضايا التي وافق عليها المجلسان السياسيان الآخران، وهي عملية لم تكن بالهيئة، إذ كان لكل مواطن الحق في أن يعبر عن رأيه ويبدي الإنتقادات ويقترح التعديلات التي يراها مناسبة، وتعود إلى المجلس الشعبي هذا مهمة حسم الأمور

بشكل نهائي . إلا أن هذه العملية الديمقراطية لم تكن مطبقة بشكل حقيقي إلا في القرن الأخير من حياة قرطاجة .

لقد ولدت آمال عظام في العالم البوني كله إبان الحرب البونية الثانية ، وخصوصاً بدءاً من عام 202 ق . م ، في زمن الإنتصار الخارق الذي كان «هانيبعل» يحققه ، وبعد النهاية المأساوية للحرب ضد «روما» ، لقد تسارعت وتيرة التطور السياسي ، غير أن النظام القديم لم يكن قد أعدَّ العاصمة بشكلٍ جيد لمواجهة منافستها القوية «روما» لذا كان من المحتم استخلاص العبر من كل ذلك . لقد أدت هزيمة «زاما Zama» إلى كشف حقيقة هذا النظام بشكل تام ، وأظهرت بشكل جلي التوترات التي كانت تسري في المجتمع القرطاجي الذي فقد ، في الواقع ، الكثير من هيبته بسبب تضخمه المتزايد . لقد ذكرنا «أرسطو» في نصه السابق ، أن الحكومة كانت تلجأ إلى علاجٍ موروث ، بهدف التحقيق من حدة التناقضات الداخلية التي كانت تؤدي إلى الهزات الإجتماعية ، إذ كانت ترسل بشكل دوري قسماً من الشعب إلى المدن «التابعة» . وهكذا ، وبفضل الوظائف التي كان يعهد بها إليهم ، والخيرات التي كانوا يكتسبونها خلال فترة إقامتهم هناك ، كان يصبح بإمكان هذه العائلات المحروم من الحظوة في وطنها الأم ، أن تحمل إلى الفئة الحاكمة في العاصمة دماً جديداً ، بحيث كانت ، على الأقل ، تتواءم معها . غير أن هذه العائلات الفقيرة كانت تصبح ، عند خروج المدن «التابعة» عن سلطة قرطاجة ، أولى ضحايا الكوارث التي تحل بالمدينة . لذا سعت السياسات الأكثر حذراً لإقامة نظامٍ أكثر ديموقراطية ، تستطيع بواسطته إخفاء المشاكل الإجتماعية التي كان تلوح في الأفق . والنص التالي لـ«بوليبيوس» يقدم لنا دليلاً على ذلك إذ يقول : «يبدولي ، فيما يخص الدولة القرطاجية ، أن مؤسساتها مبتكرة جداً ، إذ كان يوجد ملوك [قضاة Suffetes] ومجلس شيوخ ذو طبيعة ارستقراطية ويمارس بعض السلطات . وكان بمستطاع الشعب التدخل في القضايا الداخلة ضمن اختصاص هذا المجلس . إن ترتيب السلطات القرطاجية يشبه ، بشكل عام ، ماكان موجوداً في «روما» و«اسبرطة» . غير أن هيبة الدستور القرطاجي أخذت تضعف في الوقت الذي بدأت فيه حروب هانيبعل ،

ليتفوق عليه دستور «روما» . إن تطور كل فرد أو منظمة سياسية أو أي عمل إنساني لابد أن يمر في مراحل ثلاث : مرحلة للنمو، وثانية للنضج وأخيراً مرحلة الشيوخة أو الإنهيار [. . .]. لقد أدرك القرطاجيون وسائل القوة والإزدهار قبل الرومان ، ولكن في الوقت الذي كانت فيه روما في أوج قوتها كان القرطاجيون قد تجاوزوا حدود الذروة .

كان صوت الشعب في قرطاجة قد أصبح مسموع في مداولات المجلس ، أما في روما فكان مجلس الشيوخ في أوج قوته . كان رأي أكثرية الأعضاء هو المسموع في قرطاجة ، في حين كان صوت من انتخبه المواطنون هو الحاسم في «روما»[11] .

بهذا الشكل يصف «بوليبوس» ، الذي قدم إلى أفريقيا ضمن مجلس قيادة «سيبيون إيمليان» ، التغيرات العميقة التي حدثت ـ والتي يرى فيها دلالة على الإنهيار ـ غير أن مرحلة التطور الأخيرة هذه ، المتأخرة بعض الشيء ، إنما كانت دليلاً على الفعالية المتأصلة التي كانت تنفح قرطاجة بالحياة حتى آخر أيامها .

جنود قرطاجة

كما ورد في سياق أسطورة تأسيس قرطاجة ، التي ذكرها «جوستينوس» ، قرر مرافقوا «إليسا» تثبيت موقع مدينتهم بعدما أخرجوا من باطن الأرض رأس حصان ، وكان هذا يمثل ، في نظرهم ، رمزاً لشعب محارب ، رأوا فيه إشارة إلى مستقبل سعيد . غير أنه نادراً مايتطابق التاريخ مع ماتعدنا به النبوءات[12] .

إن القرطاجيين ، بكل تأكيد ، أبدوا خلال حروبهم مع روما ، وفي مناسبات عدة ، قدرة حربية مشهود بها . كما أن مقاومة المدينة ، وخصوصاً خلال آخر حصار تعرضت له ، أثبتت أن جنود قرطاجة كانوا يوازون جنود روما شجاعة ، ويتفوقون عليهم بروح المواطنة التي حملوها ، إضافة إلى المآثر الفردية التي قاموا بها . ورغم هذا المثال الإستثنائي للحيوية والتضحية التي قدمها شعب قرطاجة في الظروف المأساوية ، فإنه ـ أي شعب قرطاجة ـ لم يكن يتمتع بنزعة حربية . إذا كان بمقدورنا أن نتحدث هنا عن «نزعة» ـ فهذا الشعب لم يُبدِ أي ميل لتذوق هذه الطقوس «البربرية» .

إن «قرطاجة» ـ وهي ابنة «صور» ـ لم تكن تهدف مطلقاً إلى تكريس نفسها كرأس جسرٍ لتوسيع المشاريع العسكرية. كما كان هناك اختلاف كبير بين وضع المواطن في الدول ـ المدن الإغريقية وفي «روما» الجمهورية في عصورها الأولى من جهة، وبين وضع المواطن في قرطاجة من جهة أخرى. فكما نعرف، على سبيل المثال، كان كل مواطن في روما مهيأ لأن يصبح جندياً، حتى أن «جمعيات المئة Comices Centuriates» التي كانت تحتشد في ساحة «مارس Mars»، وهي تمثل الشعب المعبأ تحت السلاح، قد حصلت على امتيازات سياسية وتشريعية وحقوقية، وبشكل خاص على امتيازات عسكرية. في حين لم يكن يوجد في قرطاجة مايشابه ذلك، فالشعب الذي كان يجتمع في «مجلس المواطنين» لم يكن ملزماً بأية واجبات عسكرية. وفي «روما» أيضاً، كان القناصل يتقدمون طلائع الفرق العسكرية ويقودون الحملات، أما في «قرطاجة» فلم يكن بمقدور «القضاة»، أن يتدخلوا في سير المعارك، إذ عُهد بهذه المهمة للضباط الذين اختارهم الشعب.

من الواضح أن الفئة الحاكمة في قرطاجة بقيت ولمدة طويلة حذرة من طموح قادة الجيش الذين كان وجودهم يفرض نفسه كضرورة لامناص منها، رغم أن هذه الوظيفة كانت غير مألوفة في التقاليد الفينيقية، البونية القديمة. على أي حال، كان «المجلس الكبير» يراقب مجموعات الضباط هذه بشكل دقيق. وقد أكد لنا «جوستينوس» هذا حينما قال أن محكمة «المئة» قاضٍ أنشئت وكان «على الضباط أن يقدموا لها تقارير عن عملياتهم»، ويبدو أن الهدف من هذا الإجراء كان منعهم من الذهاب بعيداً فيطموحات قد تتعارض مع سلطة الدولة.

نعم، كانت الأوساط القرطاجية الحاكمة تخشى من أن يفرض المرتزقة قانونهم، كما أن مهنة الحرب هذه كانت بمجملها موضع شك. وحول هذه النقطة يقول «ديودور الصقلي»: «إن القرطاجيين الذين يشنون الحروب لايثقون بجنودهم المواطنين» [3, 38, V].

رغم كل ماتقدم، كانت توجد استثناءات لهذا الإتجاه العام. ونورد مثالاً عن «المعركة المقدسة» التي خاضتها فرقة منتخبة من ألفين وخمسمائة شاب يمثلون

أقوى العائلات الأرستقراطية، وذاع صيتها بمعاركها ضد جيوش «تيموليون Timoleon »، وقد أُبيدت هذه الفرقة عن بكرة أبيها في نهاية الأمر في معركة «كريمزوس Crimisos » في صقلية عام 339 ق. م، وفي مناسبة أخرى، اختير عدد من المواطنين القرطاجيين لإعاقة مسير فرق «ريفوليوس Regulus » الذي نزل عام 250 ق. م في افريقيا. كما حدثت محاولات أخرى شبيهة في نهاية الحرب البونية الثانية. مع ذلك، يلاحظ أن عمليات التجنيد هذه «كانت قليلة وكان يتم اللجوء إليها في الظروف الإستثنائية. وعلينا هنا أن نضع على حدة التحرك الشعبي العام الذي حدث بين عامي 149 -146 ق. م، إذ أن الأمبراطورية البونية حينئذ كانت قد تضاءلت حتى اقتصرت على المدينة فقط. وفي نهاية مطافنا حول هذه المسألة، علينا أن نصغي إلى «بوليبيوس» وهو يقول لنا: «بالنسبة للحرب البرية، كان لدى الرومان أفضل الجنود، لأنهم كانوا يسخرون كل مابوسعهم في سبيل تدريبهم، في حين كان القرطاجيون يتهاونون في تدريب جنود المشاة، ولا يبالون كثيراً بخيالتهم، وهذا يفسر لنا سعي القرطاجيين الدائم لاستخدام المرتزقة الأجانب في قوام جيوشهم» [52, 7, VI].

لقد برز دور الفرق الأجنبية، وكانت تضم الليبيين بشكل خاص، في جيش «هاملقار الماغوني» إبان معركة «هيمير» في صقلية والتي دارت عام 480 ق. م. وفيما بعد، أصبح جيش قرطاجة يضم مجموعات مختارة من الأقاليم التابعة لها - من أفريقيا بشكل خاص - إلى جانب مجموعات مساعدة كان حلفاء المدينة يقدمونها، إضافة إلى مجموعات من المرتزقة الذين كانوا يتطوعون بشكل إفرادي أوينضوون تحت زعامة أحد قادتهم.

كانت قرطاجة مضطرة لتجييش الجنود الأجانب، إذ أن هذه المدينة، وبعد أن مدّت سيطرتها الاقتصادية على مناطق واسعة جداً، اصطدمت في مناسبات عديدة بمقاومة بعض الحكام المحليين، إضافة إلى مواجهتها مع منافسين آخرين كما حدث في صقلية وإسبانيا. ولم يكن باستطاعة مواطني قرطاجة أن يكونوا جيشاً كافياً قادراً على الدفاع عن تلك المراكز. كما أنه لم يكن بالمستطاع، ارسال مواطني

قرطاجة ـ وهم في نفس الوقت صنّاع المدينة وحرفيوها ـ إلى أماكن بعيدة وفي حملات محفوفة بالمخاطر، فلقد كان المواطنون في هذه المدينة ركيزة عظيمة الأمبراطورية.

وبعد السيطرة على بعض المناطق الليبية (الأفريقية)، التي تشمل حالياً وسط وشمال تونس، وذلك خلال القرن الخامس ق.م، أصبح لقرطاجة مدن كثيرة خاضعة لها. إضافة إلى ذلك، قدم لها حلفاؤها أمراء «نوميديا Numidie» وحدات عسكرية هامة. وقد شكلت قرطاجة من هؤلاء الليبيين والنوميديين عدة فرق عسكرية شاركت في مختلف الحملات التي وجهتها إلى صقلية وسردينيا واسبانيا وإيطاليا وأفريقيا. ومن بين العشرين ألف جندي الذين وصلوا إلى سهل «البو Po» في إيطاليا عام 218 ق.م، كان مجموع الليبيين والأفارقة اثني عشر ألفاً، ورغم كل ماأصاب هؤلاء الجنود من إنهاك وحرمان فقد كانوا محاربين ممتازين، مع أن تسليحهم كان متواضعاً، وغالبيته مما كانوا يغنمونه في معاركهم، كما حدث بعد معركة «تراسيمين». وكانت تلك الأسلحة، عموماً، عبارة عن خنجر، حربة وترس صغير مستدير الشكل، وغالبيتهم لم يكن لديه سيف أو خوذة أو درع.

ونشير في هذا المجال إلى أن «قرطاجة»، وبدءاً من القرن الثالث ق.م، بدأت تولي الفرسان النوميديين اهتماماً كبيراً، وحتى أن معظم الستة آلاف فارس الذين وصلوا إلى إيطاليا كانوا منهم. وكانوا يستخدمون خيولاً صغيرة الحجم، قوية وسريعة وكانوا يعتبرون، كما يقول (تيت ـ ليف 5, 34, XXIX) «أفضل فرسان أفريقيا إذ أن تدخلهم في أغلب المعارك كان حاسماً.

وكان لدى قرطاجة جيش آخر، هو جيش «الفيلة»، وهي بمثابة الدبابات في عصرنا هذا، وكانت توجد بكثرة في بلاد البربر، ويقودها في المعارك فيّالة مهرة لتشييع الرعب في صفوف مشاة العدو. لقد ثبت للقرطاجيين فائدة استخدام الفِيَلة أكثر من مرة، غير أن الرومان، ولكي يتفادوا خطر هجماتها أو يخففوا منها، لجؤوا إلى تشكيلات قتالية أكثر مرونة وذلك بتنظيم طرقهم على أرتال متباعدة جداً كانت تتفتح أمام الفيلة، إضافة إلى ذلك، لم تكن هذه الحيوانات قادرة على الهجوم إلا في

الأراضي المنبسطة، كما أنها لم تكن دوماً سهلة القيادة، فحينما تُجرح، وتُصاب بالذعر كانت ترتد باتجاه من يستخدمها.

كان جيش قرطاجة يضم، إلى جانب الأفريقيين، وحداتٍ من الإيبيريين والليغوريين والساردينيين والكورسيكيين والغاليين والأتروسكيين والإيتاليين القادمين من جنوب شبه الجزيرة الإيطالية. كما أسهم الإغريق في جيش المدينة، فحينما نزل «آغاثوكلس Agathocls» حاكم «سيراكوز» إلى أفريقيا عام 310 ق. م (*)، وجد في مواجهته فرقاً تضم مقاتلين إغريق وسيراكوزيين ضمن جيش المدينة البونية. كما تمكن القادة القرطاجيون، بعد نصف قرن، من تحقيق الإنتصار على جيش «ريغوليوس» بفضل خطة رسمها لهم، «اكسانتيبوس Xanthippe» قائد المرتزقة اللاكيديمونيين.

لم يعد في مقدورنا بعد كل ماتقدم، القول أن الفرق البونية كانت تشكل جيشاً وطنياً. غير أن القرطاجيين لم يهتموا بذلك حتى حينما كانوا يدركون مدى الحقد الذي يكنه الجنود المرتزقة إلى الدولة التي يقاتلون في سبيلها. لقد كانوا، أي المرتزقة، دائمي الشكوى من قسوة النظام العسكري ومن ضآلة الرواتب التي تُصرف لهم متأخرة دوماً، وكان قادة الجيش مجبرين على قمع انتفاضاتهم، مثلما حدث خلال التمرد الرهيب الذي حدث بين عامي 241-238 ق. م، وقاده «سبانديوس Spendios» الكامباني، و«ماثوس Matho» الليبي. وأدى هذا التمرد إلى «حرب لاتغتفر» كما وصفها الروائي الفرنسي «فلوبير» في رواية «سالامبو». وأظهر هذا التمرد

---

* تذكر بعض المصادر الأخرى، مثل «Worterbuuch der Antike, Stuttgart, 1989, P 6-7»، أن «آغاثوكلس» هذا، الذي لقب بـ«طاغية سيراكوز» عندما نزل على ساحل أفريقيا، قام بإحراق سفنه كي لايترك لجنوده خياراً آخر سوى النصر أو الموت. واستطاع بذلك احتلال الأراضي التابعة لقرطاجة. وقد مات مسموماً على يد أحد أحفاده. ومن المعروف أنه بعد هذه الحادثة بألف سنة تماماً، حوالي عام (711 ب. م) قام «طارق بن زياد» في عملية مشابهة بإحراق سفنه التي عبر بها مع جيشه إلى أسبانيا.

المحقق

درجة السخط الشديد الذي كان يعتمل في نفوس قادة المرتزقة، بحيث كان «هاملقار برقا» مضطراً لإبادة رفاق الحرب السابقين بمنتهى الشدة.

ونلاحظ في ختام هذا الموضوع، أن مصير المرتزقة الذين كانوا يخدمون في جيش قرطاجة، لم يكن أفضل من مصير الجنود الذين كانوا تحت أمرتها، حتى أنه مهنة الضباط وقادة الجيش كانت أشد خطورة، إذ كان دورهم في خدمة بلادهم صعباً جداً، رغم أن بعضهم كان يتمتع بمواهب فذة. كما أظهر قادة آخرون، مثل «هاملقار برقا» وولديه «هاسدروبعل» و«هانيبعل»، عبقرية حربية مدهشة، ونعلم أن الاثنين الأولين قُتلا في المعارك، في حين أجبر الثالث، وهو الذي كان يتمتع بهيبة واحترام شديدين، على الإعتزال بعد أن تنكر له وطنه.

كان يحكم على القادة المهزومين بالموت صلباً، مما دفع بالكثير منهم، لتحاشي هذه العقوبة الشائنة، إلى الانتحار. أما القادة الرومان من جهتهم فلم يكونوا يجهلون المصير الذي كان ينتظرهم، حين هزيمتهم، فيما لو كانوا يخدمون في جيش قرطاجة. ينقل لنا «تيف ـ ليف» أنه، وبعد هزيمة «كاني Cannes الرهيبة التي لحقت بجيش روما عام 216 ق.م. تم تشكيل وفدٍ يمثل الـ «Paters» لإستقبال القنصل «فيرون Verron» الذي نجى من المذبحة، وقدِم هذا الوفد ليقدم له التهاني على نجاته «ولو كان أحد قادة جيش قرطاجة، يضيف المؤرخ الروماني، لكان تعرض لأشد أنواع العذاب» [15, 61, XXII].

كان القرطاجيون لايرحمون القادة المهزومين. وحتى لوحقق هؤلاء القادة انتصاراتٍ عظيمة، فإنهم، عندها، يصبحون موضع شبهة على افتراض أنهم قد يقومون بتدبير انتفاضات بغية تدمير المؤسسات الجمهورية. وكان هذا الموقف بنتائجه السلبية على المصلحة العامة دليلاً على التناقض الطبيعي والجوهري أحياناً الذي يوجد بشكل دائم بين السلطة العسكرية والحريات الجمهورية.

الحياة اليومية في قرطاجة

روى لنا الخطيب الاغريقي «ديون كريسوستوم Dion Chrysostome» أن شخصاً اسمه «حنّون» غيّر القرطاجيون من صوريين، كما كانوا، إلى ليبيين. فبفضله سكنوا ليبيا، [. . .] وحازوا على ثرواتٍ كبيرة وأسواق واسعة [المحاورات XXV]، ولعل «ديون كريسوستوم» يلمح في هذا إلى الأراضي التي كان القرطاجيون يهيمنون عليها بدءاً من النصف الأول من القرن الخامس ق. م. إن مثل هذه المناطق لايمكن أن تكون قد ضُمت إلى قرطاجة إلاّ بشكلٍ تدريجي. فلقد كانت في وقتٍ ما مجزأة إلى سبع أو ثمان مقاطعات ـ ونحن نجهل تطورها واتساعها في الفترة الواقعة قبل الحرب البونية الثالثة. غير أنه فُرض على قرطاجة في عام 146 ق. م أن تتنازل عن أول أقاليمها الأفريقية إلى روما، وتم حفر خندقٍ للدلالة على الحدود الجديدة لقرطاجة. هكذا كانت قرطاجة آنذاك، بعد ماخضعت لروما قبل نصف قرن، وبعد أن اقتطع منها حليف روما البربري «ماسينيسا Massinissa» أجزاء واسعة من أراضيها بحيث لم تتعد مساحتها الخمس وعشرين ألف كيلومتر مربع. وأصبح بالإمكان تعيين حدود الدولتين ببعض النقاط[1]: كانت حدودها الشمالية تبدأ من مصب وادي (التوسكا Tusca) [وادي الكبير] قرب «طبرقا» [على الحدود الجزائرية التونسية حالياً]، وتتجه نحو الجنوب الشرقي باتجاه المراكز التي تعرف حالياً بـ«بيجة Beja» و«تيبورسوق Tebou Rsouk». دون أن تضم إليها مناطقها، ومن النقطة الأخيرة تلك، كانت حدود قرطاجة تتحول إلى الشرق، وثم، على وجه التقريب عند «جبل زغوان Zaghouan»، تندفع إلى الجنوب حتى تصل إلى شاطيء «سرته الصغير» [خليج قابس]، غير بعيد عن مدينة «صفاقس» الحالية. إن جزءاً صغيراً من هذه الأراضي القريبة من العاصمة والتي كانت قد الحقت بها ـ وهي غنية جداً مثل منطقة «الرأس الطيب» ـ كان قد شغله القرطاجيون تماماً، الذين حازوا هناك على أراضٍ كانوا يستغلونها بواسطة الخدم والعبيد. أما بقية أنحاء البلاد فكانت ملكيتها

تعود إلى الدولة بشكلٍ كامل، وكانت تُدار مع إبقاء الأراضي الزراعية بأيدي السكان الأفريقيين الذين فقدوا استقلالهم ـ باستثناء بعض العائلات التي حصلت على امتيازات وتمكنت من التكيف بسهولة مع النظام الجديد.

لقد سمح احتلال هذه المناطق لمدينة قرطاجة أن تنمو باضطراد، إذ أصبحت، إلى جانب قوتها البحرية والتجارية، قوة زراعية. ونمت إلى جوار الأقلية التجارية فئة ارستقراطية من ملاّك الأراضي. فهل أُضيف هذا الوضع الجديد إلى التوترات الإجتماعية التي كانت قد أصبحت ملموسة بين مختلف طبقات الشعب الحضري؟ إن هذه الفرضية ماتزال بحاجة إلى اثبات. ورغم نقص الأدلة التي تشير إلى هذه النقطة، يمكننا القول أن توسيع أراضي الدولة القرطاجية حدث بادىء الأمر بفضل أولئك الذين استفادوا من زيادة ثرواتهم عبر تنويع مصادرها، أي باستثمار جزء من الأرباح التي تم الحصول عليها من التجارة في الملكيات العقارية. ولهذا رأينا أن الأسرة الماغونية التي سيطرت على مقدرات قرطاجة بدءاً من منتصف القرن السادس ق.م. أي قبل أن يصبح لقرطاجة أراضٍ زراعية خارج أسوارها. هذه الأسرة تمكنت من فرض هيمنتها لأنها كانت في ذلك الوقت أغنى العائلات التجارية في المدينة. وهي التي باشرت فيما بين عامي 476-450 ق.م بتنفيذ سياسة «امبريالية» وتمكنت من إلغاء الأتاوة، التي كانت على قرطاجة دفعها للأفريقيين، إضافة إلى تأسيس دولة بونية على حساب الليبيين. لقد كان «حنون»، الذي اعتبره المؤرخ الإغريقي «ديون كريزوستوم» وراء سياسة الإلحاق هذه، هو ذاته ابن القائد الماغوني «هاملقار» وحفيد «ماغون» ولهذا الأمر دلالته، إذ أن بعض «السادة التجار» القرطاجيين استأثروا بملكية الأراضي التي انتزعوها من السكان الأفريقيين، ومن المحتمل جداً أنه كان في ذلك فوائد عديدة بحيث تركزت الثروات بين أيدي بعض العائلات صاحبة الإمتيازات.

لقد استرعت المزايا التي تقدمها الزراعة انتباه البونيين، ويكفي، لكي نقتنع بهذا، أن نقرأ ماوصلنا مما يمكن أن نسميه دراسة أعدها خبير زراعي قرطاجي اسمه «ماغون»، وربما يكون مؤلفه الذي ضم ثمانية وعشرين كتاباً قد نجا من الحريق الذي أتى على مكتبة قرطاجة عام 146 ق.م بحيث لم يبق أي شيء من الكتب

الأصليـة . ولكن نظـراً لمـا حمله من معلومـات قيمـة برأي الإختصـاصيين، ارتأى مجلس الشيوخ الروماني نقله إلى اللاتينية، وتُرجم بعدها إلى اللغة الإغريقية. لقد فُقدت هاتـان الترجمتـان أيضاً بحيث لم يصلنا منهما سوى حوالي أربعين استشارة زراعية ـ تشمل أحوال الزراعة والغراسة وإدارة الأملاك الزراعية ـ وذلك بشكلٍ متناثر وعلى يد عدة مؤرخين رومـان. ويـرى «كوليمل Columelle»، وهو خبير زراعي أيضا ويعرف أهمية كتاب سلفه، أنه يجب اعتبار «ماغون» (أباً للعلوم الريفية).

كانت المنطقـة التي سيطـرت عليهـا قرطاجة، وتضم السهـول الـوسطى والمنخفضـة المـوجـودة حول نهـر «المجـردة» إضـافـة إلى التـلال السـاحلية «لرأس الطيب» ومنحـدرات أقليم السـاحـل، كانت ذات تربـة خصبة بفضل هطول الأمطار الكـافي، والشـديـد في بعض الأحيان. ومنذ القدم، كان باستطاعة أهل تلك البلاد الحصـول على محـاصيل وفيرة من الحبوب دون أن يضطروا إلى إراحة الأرض. أما في المنـاطق الجبليـة ـ في جبـال الـ«كـرومير Kroumir» والـ«موغود Mogode» ـ فقد كانت قطعـان الثيران والأغنـام تمثل ثروة حقيقية. وبدون شك، لم تستطع الزراعة البـونيـة أن تنتـج ـ بهـذه الأراضي الغنيـة نسبيـاً ـ وكل ماقدمته لاحقاً حينما أصبحت أهراء قمحٍ لروما.

كانت المساحة المزروعة من السعة بحيث تمكنت من تلبية حاجات السكان الأصليين إضافة إلى تغطية احتياجات سكان قرطاجة الكبرى جميعهم. وتظهر على النُصب وقطـع النقـود البـونيـة نقـوش لأشكالٍ مختلفة من المحاريث السكك. ومن البـديهي أن الليبيين لم ينتظـروا قدوم الأجانب إلى أراضيهم كي يستخـدمـوا هذه التقنيـات الـزراعيـة البسيطة، كما أن مالكي الأرض الجدد لم يحاولوا مزاحمتهم في مجال انتاج الحبوب هذا، غير أنهم في المقابل سعوا للتخصص في مجالات زراعية معينة بحيث تمكنوا من احتكار بعض المحاصيل الغالية الثمن. فلقد تخصصت شبه جزيـرة «الـرأس الطيب» والإقليم الشمـالي الشرقي بإنتاج المحاصيل السباخية التي كانت رائجة جداً في أسواق العاصمة، إلا أن المجال الذي حدث فيه توسع كبير كان زراعة الكروم وغيرها من الغراس المثمرة.

كانت زراعة الكروم تحتاج إلى عناية دقيقة. ويقدم لنا الخبير الزراعي «ماغون» عدة نصائح في هذا المجال فيما يخص الظروف المناخية وأحوال الأرض. إن الخبرة العميقة التي كان القرطاجيون يتمتعون بها جعلتهم يوجهون اهتمامهم إلى انتقاء أفضل أنواع الغراس والعناية بها، إضافة إلى تسميد الأرض بشكل جيد. وفيما يلي نورد مقطعاً يحدثنا فيه خبيرنا القرطاجي عن كيفية صناعة النبيذ من العنب الجاف، ومازالت هذه الطريقة مستخدمة حتى الآن في تونس، وبفضلها يتم انتاج نبيذ لذيذ غالي الثمن:

«نقطف العنب الناضج، ونتقيه من الحبات العفنة والفاسدة، ثم نعرضه للشمس فوق عيدان قصب مرفوعة على أوتاد ومذاري غرست في الأرض على عمق أربعة أقدام ورُبطت بعصيٍ طويلة، ونغطيه ليلاً كي لاتبلله حبات الندى. وحينما يجف نفرط حبات العنب ونلقي بها في جرة أو خابية، ونسكب فيها أفضل أنواع المسطار(*) حتى يغمر حبات العنب. وفي اليوم السادس وحين تكون حبات العنب قد تشربت بالمسطار وانتفخت، نضعها في قفةٍ، ثم نكبسها لنأخذ منها عصيرها. بعد ذلك، نهرس الثفل ونضيف عليه المسطار الطازج المستخلص من عناقيد أخرى تُركت ثلاثة أيام تحت أشعة الشمس، ونضع هذا الخليط في المكبس بعد مزجه بشكلٍ جيد. ثم نقوم بوضع السائل الناتج عن وجبة العصير الثانية هذه في أوانٍ مغلقةٍ بإحكام بالطين كي لايصبح النبيذ لاذعاً. وبعد عشرين أو ثلاثين يوماً، حينما يتوقف التخمر، نفرغ النبيذ في أوانٍ أخرى وندهن أغطيتها فوراً بالكلس ثم نغطيها بالجلود»(**).

أما فيما يخص الأشجار المثمرة، فقد بلغ الإهتمام بزراعة أشجار الزيتون شأواً بعيداً. فحسب رواية نقلها لنا المؤرخ «أوريليوس فيكتور Aurelius Victor» ولها دون شك بعض الجوانب الأسطورية، أن «هانيبعل» خشي على جنوده من مفاسد البطالة بعد صلح عام 201 ق.م، فقام بتشغيلهم في الأعمال الزراعية، وبهذه

---

* المسطار: عصير الخمر قبل طبخه.

المترجم

الطريقة «امتلأت أجزاء كبيرة من أفريقيا بأشجار الزيتون» [3, 37, Caes] . لقد كان من السهل تطعيم أشجار الزيتون البرية، كما يفعل السكان البربر حتى أيامنا هذه، إذ كانت تشكل مع شجر المصطكة الجزء الأكبر من الغطاء النباتي لحوض البحر المتوسط، وكانت تكثر أيضاً في منطقة «الساحل». ولم يكتف القرطاجيون بالتطعيم بل قاموا بزرع غراس الزيتون الجيدة، وفي هذاالمجال يقدم لنا «ماغون» نصائح أساسية: إذ يجب تحديد الفصل المناسب للغرس حسب طبيعة التربة، ويجب ترك مساحات واسعة وكافية بين الأشجار، ويضيف بأن اتباع هذه النصائح يجعل بالإمكان الحصول على انتاج وفير.

ومن بين الأشجار الأخرى التي وجدت نقوشها على النصب المكتشفة في «سالامبو» أشجار الرمان والتين. كما انتشرت زراعة نخيل التمر في حدائق وبساتين الدولة كلها، ووجدت رسومها على القطع النقدية والنذور القرطاجية، كما أن «ماغون» مارس لمدة طويلة عملية تهجين البذور وتطعيم الغراس وزراعة أشجار اللوز.

إضافة إلى الزراعة والأشجار المثمرة، كان القرطاجيون يهتمون كثيراً بأهم مصدر كان موجوداً عند الليبيين، ألا وهو تربية الحيوانات، ويقدم لنا «بوليبوس»، الذي زار «سيرتا» [قسنطينة الحالية]، شهادة بارعة تصلح فقط للسهول المتوسطية، ذات المناخ الجاف والمناطق الجبلية في إقليم «التل» حيث كانت الزراعة قليلة الإنتشار، فيقول: «يوجد في أفريقيا خيول وثيران وأغنام وماعز من الكثرة بحيث لاأظن أنه بالإمكان وجود عدد يماثلها في بقية أرجاء العالم المسكون، وسبب ذلك، أن معظم الأفريقيين لايعملون في الزراعة، إذ أنهم يعيشون من قطعانهم ومع قطعانهم» [3, 3, XII] . كما أن تربية الحيوانات كانت لها أهمية كبيرة في الأراضي البونية نفسها، إذ كانت تقدم للسكان مايحتاجونه من الحليب واللحوم. والأدلة على مثل هذا الموضوع كثيرة. فخلال الحملات الرومانية في عام 256 ق.م، اندفع جنود القنصل «ريغولوس» في نهب أقليم «الرأس الطيب»، يقول «بوليبوس»: «إن الجنود الرومان الذين لم يلقوا أية مقاومة، خربوا الكثير من البيوت الفخمة واستولوا على

قطعان كثيرة من المواشي ، وساقوا إلى سفنهم عشرين ألف عبد» . [29, 1, I] . ونشير أيضاً، في معرض حديثنا عن هذا الأمر، أن المكتشفات الآثارية التي وُجدت في هذا الإقليم ذي الكثافة السكانية المرتفعة والأبنية الجميلة جداً . وخصوصاً بعد اكتشاف المدينة البونية «قِرقوان Kerkouane» ، سمحت لنا بإبراز مجموعة من المباني هي بلاشك هامة جداً في تقديم المعلومات من هندسة البناء السكني[46] .

هذا الساحل الشرقي تغطيه اليوم البساتين وبيارات البرتقال ويزدان بالتجمعات السكنية البيضاء، في حين كان سابقاً عبارة عن منطقة ريفية معروفة بثرائها، تسرح في أرجائها قطعان المواشي المكتنزة، إضافة إلى غناه في الحاصلات الزراعية، وكانت لهذه المواشي صفات مختلفة ، فمن أجل شراء الثيران ، يقدم «ماغون» وصفاً دقيقاً للحيوانات المناسب شراؤ ها . ونستنتج من ذلك أنه كان بالإمكان انتاج حيوانات قوية ذات أصول جيدة بفضل أساليب التربية التي كانت سائدة . أما بالنسبة للخيول، التي تظهر كثيراً على قطع النقود والنصب التذكارية اليونية ، فيبدو أن القرطاجيين لجأوا إلى استخدام الأفراس المغربية الشهيرة التي كان النوميديون يستعملونها . وعلى بعض النصب الأخرى، تظهر رسومٌ لكباشٍ وأغنام ذات أصول مغربية بأليتها العريضة والسمينة . ونضيف أخيراً، أنه بإمكاننا أن نجد إشارة واضحة عن تربية الحيوانات في الأراضي البونية في «تسعيرة ذبائح القرابين» التي نصّت على الأجور الواجب دفعها إلى الكهنة حسب نوع الحيوانات وطبيعة القرابين[47] . وتذكر هذه الوثيقة : الثيران والعجول والكباش والتيوس والحملان والجديان والطيور الداجنة .

لقد أصبحت قرطاجة قوة اقتصادية استطاعت توفير احتياجات شعبها بفضل الحبوب، والمزروعات الساخية والكروم وأشجار الزيتون والأشجار المثمرة المختلفة، إضافة إلى قطعان الماشية . وبفضل المصادر التي كانت تأخذها من القرى والأرياف التابعة لها حيث فرضت الضرائب الثقيلة واختارت الجنود لجيشها وسمحت قرطاجة للسكان الأصليين باستغلال أراضيهم وتربية قطعانهم ، كما كانت تتكفل بدفع نفقات إداراتها ومشاريعها هناك . وحين يعالج الأحداث التي وقعت

حوالي منتصف القرن الثالث ق . م بسبب تمرد المرتزقة وثورة السكان الأفريقيين، يعتقد «بوليبيوس» أن وراء هذه الأحداث الأعباء الاقتصادية التي فرضتها العاصمة، إذ يقول:

«كان القرطاجيون يأخذون حاجاتهم من منتجات الأقاليم التابعة لها «الكُوَر Chora»، أما العائدات الضرورية التي تكفل نفقات الدولة للجيش والخدمات العامة فكانوا يحصلون عليها من أفريقيا، [. . .] وخلال هذه الحرب التي انتهت قبل وقتٍ قصير، كان القرطاجيون يعتقدون أن الظروف قد قدمت لهم الأسباب كي يجنوا أرباحاً وفيرة من الشعوب الأفريقية. ففرضوا على جميع الساكنين في الأرياف تقديم نصف محاصيلهم، كما ضاعفوا الأتاوات التي فرضوها سابقاً على المدن، ورفضوا في نفس الوقت أي اعفاء منها، مع الإشارة إلى وجود عدد كبير من السكان المحرومين من أي مصدر رزق» [72, 71, 2, I] .

إن النشاطات الزراعية، التي كان يعمل بها جزء من السكان في المراكز السكنية وخصوصاً في العاصمة، كانت قد ضاعفت من عدد المشاريع الصناعية والحرفية. وكانت لهذه المشاريع أهمية بالغة في تموين التجارة والداخلية، إذ أن تصديرها كان ضرورياً جداً للقرطاجيين الذين كانوا يبادلون منتجاتهم بالمواد الأولية وخصوصاً بالمعادن الثمينة التي كانت أساس هذا الثراء المدهش الذي لفت انتباه الجميع. ولهذا كان القرطاجيون يظهرون كورثة حقيقيين لأسلافهم فينيقي الشرق.

لقد أشرنا كثيراً إلى أن الصناعة القرطاجية لم تكن ذات شهرة كبيرة، فالقرطاجيون الذين كانت تنقصهم ملكة الإبداع*، لم يكونوا قادرين، إلا ماندر، سوى على تقديم المصنوعات الرضعية، ومع ذلك كان يوجد ابداع فني قرطاجي يمثل حضارة أصيلة، بل وراسخة. ويُصر «بيير سانتاس P. Cintas» على «ضرورة

---

* قد يلاحظ القارىء في هذا الكلام بعض التناقض عند المؤلف إذ يجرد القرطاجيين هنا من ملكة الإبداع، ويعود في الصفحات التالية ليظهرهم على أعلى درجات الإبداع الفني.
المحقق

عدم اعتبار الحضارة البونية كنسخة مقلدة عن الحضارة الفينيقية، إذ أن قرطاجة لم تكن قرية تابعة لصور»[18].

ولسنا هنا في موضع سيسمح لنا بمجرد ماتحويه المتاحف من قطع تعتبر أكبر دليل على تنوع الذوق القرطاجي. بل يجب علينا أن نذكر المنتجات الرئيسية منها فقط.

علينا بادىء الأمر أن نحلل تطور الصناعة المعدنية. فمن بين المهن التي كانت موجودة في العاصمة - إلى جانب مهنة النجارة وبناء هياكل السفن - كانت توجد أيضاً مهنة الحدادة وصناعة الأسلحة. وكان الحرفيون يعملون في زمن السلم في مشاغلهم الخاصة ولحسابهم الخاص، أما في زمن الحرب، فكان عليهم العمل لحساب الدولة التي هي بحاجة إلى الأسلحة وبكميات كبيرة جداً. إن المدافن البونية تتيح لنا جمع العديد من نماذج أدوات العمل التي كانت شائعة آنئذ مثل الفؤوس والمطارق والملاعق والسواطير (وُجد سبعة عشر نصلاً في قبر صانع للسكاكين)، وبالمقابل، لم يعتد القرطاجيون على دفن الأسلحة في المقابر، وحول مصنع الأسلحة هذا، علينا أن نذكر مثالاً يعود إلى العام 149 ق. م، وهو بداية الحرب الثالثة مع روما، فبعد أن سلمت قرطاجة إلى عدوتها مئتي ألف قطعة سلاح وحوالي ألفين من الآلات اللازمة لصنعها.. » لمسنا بوضوح كم كانت هذه المدينة قوية، كما يذكر «بوليبيوس» [6, 1, XXXVI]. إلا أن قرطاجة لم تستسلم لهذه الشروط التي فرضت عليها وقررت أن تدافع عن وجودها، فأُطلق العنان من جديد لتسليح الجيش فكانت ورش تصنيع الأسلحة تنتج كل يوم مئة ترس وثلاثمائة سيف وخمسمئة خنجر ورمح وألف سهم خاص بالمنجنيقات وأكثر مايمكن انتاجه من هذه المنجنيقات.

كانت صناعة النسيج والصباغة تستحوذ على أيدٍ عاملة كثيرة العدد. ولكن لايوجد بين أيدينا سوى وثائق قليلة حول هذا الموضوع. فإلى جانب النساء اللاتي كن يغزلن وينسجن الصوف والكتان في البيوت للإستخدام العائلي الخاص - إذ وجدت بعض المغازل في عدد من القبور - ويبدو أنه كان يوجد نساجون يعملون في ورش خاصة. ولقد أشير إلى هذه المهن في بعض نُصب (سالامبو). أما صباغة

الأرجوان، التي كانت فينيقيا قد اشتهرت بها، فكانت شائعة جداً في العالم البوني. لقد كان «المُـرَّيق(*) Murex» ينتشر بشكل واسع في مياه الشواطيء الأفريقي مثل شواطيء «جربة» في تونس، و«كولو Collo» في الجزائر، و«الصويرة» في الشاطيء الأطلسي للمغرب، إضافة إلى شواطيء شبه جزيرة «الرأس الطيب» والمدينة البونية القديمة «قرقوان».

إلا أن صناعة الخزف كانت الأكثر اتساعاً في العالم البوني، إذ تم استخراج آلاف من القطع الخزفية من العاصمة وحدها، وهي في معظمها أدوات جنائزية، وتعتبر في نظر الباحثين موسوعة متكاملة عن مختلف النماذج والقوالب التي كانت تخرج من أفران خزّافي قرطاجية الذين كانوا دون شك، ينتجون لكل عائلة في قرطاجة ماتحتاج من أدوات ضرورية مثل: الصحون والأطباق والأقداح والجرار

قرطاجة: (مدافن «بومنيجل» و«دُغَيمس»): أقنعة رجال (القرن السابع أو السادس والقرن الرابع ق.م)

* المرَّيق: ضربٌ من الرخويات البحرية تنتج صبغاً أرجوانياً.

المترجم

والخوابي والقواريـر والـ Askoi (*) والمصـابيـح . لقـد كانت أواني المائدة هذه معبرة بشكـل كبيـر عن وضـع اجتمـاعي محدد وتطور تقني ما . وكانت صناعة الخزف هذه ذات نوعيـة متواضعة ، كما أن الصلصال الذي يتم شيه بشكل متقن كان يقدم أشياء متينـة . غيـر أن تزيين تلك المنتجـات كان ينحصـر ببعض الخطوط الأفقية أو أشكال هندسية نافرة قليلاً ذات ألوان داكنة ، سوداء أو غامقة .

إن هذه الصناعة الخزفية ، رغم اقتصارها على تلبية حاجات منزلية أو جنائزية ، كانت ، في نظـر المؤرخ المهتم بحضـارة ما ، تعتبـر مفيـدة إلى درجـة معقولة . ففي الحقيقة «أن عامة الشعب الذي هو عادة موضوع الدراسة لأية حضارة كان يكتفي بآنية عادية [. . .] . وهذه الآنية الشائعة جداً نجدها بشكل كبير ، وهي فقط ، التي يمكن أن تكون دليلاً على ماضٍ حقيقي»(١١) .

إلا أن صنـاعـة الخـزف القـرطاجية لم تنحصر في انتاج آنية ذات صفة نفعية . فهنـاك منتجـات أكثـر «خصـوصية» كالتماثيل الصغيرة والتماثيل الجرسية (تاج عمود على شكل جرس مقلوب) والوعائية(**) (تماثيل مصنوعة تتخذ أشكال أوعية متعددة) ، وكذلك تماثيل نصفية من الصلصال الأحمر تمثل نساء وأقنعة رجال .

إن أقنعة الرجال تلك تمثل وجوهاً مُرداً تعلوها تكشيرة تجلب الرعب ، وأشكالاً مشـوهـة تعلوهـا ابتسـامات ساخرة ، متهكمة وهازئة ، وغالباً ماتكون عينا القناع على شكل هلالٍ مقلوب ، أما الأذنان فمكشوفتان ، ويمتليء الخدّان بالندوب ، وأما جبهة القناع فتعلوها أشكالٌ متصالبة . وكان لبعض الأقنعة أشكالٌ مُفرحة ، كما وُجد قناعان متشابهان يمثلان وجهاً تزينه لحية ، له عينان لوزيتان ، يوحي بالذكاء والهدوء ، تعلوه ابتسـامـة غامضـة . وكـانت توجـد ، في عدة أقنعة ، حلقات معلقة في آذانها ، وحُلي ذات قيمـة جمـالية مثيرة للجدال ، إذ لا يمكن أن تكون قد استخدمت كزينة للنساء . إن جميع هذه الأشياء المصنوعة من الطين المشوي كانت ذات خاصية دينية محلية ،

---

* ليس معروفاً ماذا قصد المؤلف بهذه المادة .

المحقق

قرطاجة : (مدافن «إدرمش») : أقنعة نساء (القرن السابع أو السادس ق . م)

فلقد كانت مخصصة لإبعاد أو إرضاء الأرواح الشريرة، وكانت هذه الأقنعة تعلق في البيوت أو سراديب المقابر، ولهذا السبب كان معظم الخزافين يثقبون هذه الأقنعة بشكل يسمح بتعليقها.

ومن بين الكثير من الأشياء التي كان صانعوا الزجاج البونيون ينتجونها، إضافة إلى الأواني وقوارير العطر والحواجل ـ التي كان بعضها يتخذ أشكال حيوانات أو رموزاً دينية ـ كشف عن بعض الأقنعة الصغيرة المصنوعة من عجينة رمل الصوان المزخرف، وكانت نسخاً مقلدة عن الأقنعة الصلصالية المشوية، إذ أن القصد منها كان حماية من يحملها خلال حياته أو حماية من توضع معه في قبره. لقد كانت لبعض هذه التمائم جاذبية حقيقية، فبعض النماذج فيها من الرقة مايترك في النفس أثراً عميقاً، كما أنها كانت مزينة بزخارف ملونة فخمة تتناوب فيها الألوان : الأبيض والأحمر الفاتح والأسود الكستنائي والأزرق والأخضر والأصفر الفاتح والفيروزي.

لقد بلغ الصاغة والجواهريون البونيون، مثل أسلافهم في فينيقيا، حد الإتقان في أعمالهم. فكانت المجوهرات مزينة بحبيبات كالأساور الذهبية على سبيل المثال، التي صيغت بشكل حلزون واحد أو اثنين، مع عقود وردية يضاف إليها أحياناً

اللازورد، ومن أجل صناعة الرقائق الذهبية الخاصة بعصابات الرأس، كان الصاغة البونيون يلجأون إلى عملية الطرق. والواقع أن عمل هؤلاء الحرفيين جدير بالإعجاب وخصوصاً حينما نرى بعض أواني الخمر البرونزية المزينة والتي تمثل نماذج مختلفة كالوجوه البشرية ورؤوس السنانير، والتي كانت ذات جمال نادر.

لقد أتاحت لنا التنقيبات الأثارية جمع عدد كبير من هذه الحلي، وهي بمعظمها ذات استعمالات نسائية، غير أن قسماً منها كان قد جلب بالتأكيد من فينيقيا ومصر واليونان، ومنها مثلاً، الجواهر المعلقة بسلاسل، والحلي البيضاوية الشكل المحفورة والتي ترمز لأمور دينية مثل «قارورة المعبد» أو الهلال، إضافة إلى المشابك المزينة برسوم هندسية، والخواتم الذهبية ذات الفصوص الثابتة المنقوشة والتي تمثل أختاماً أو أشكالاً حيوانية أو رسوم أبطال أسطوريين، كما أن العقود كانت غالباً مصنوعة من كريات ذهبية أو زجاجية مشكوكة بالتناوب مع تماثيل صغيرة متعددة الألوان من الخزف أو العظام أو العاج أو الصوان، وكانت هذه التماثيل الصغيرة تمثل عناصر نموذجية مأخوذة من العالم المصري مثل الآلة «بتاح» و«توث» و«ايزيس» و«الصقر حورس»، إضافة إلى الأقنعة البونية ذات الوظيفة الدينية، وكانت هذه العقود تحوي على عناصر مختلفة مثل: هلالٍ من الفيروز، أو أقراص من الصفير أو أنواط ذات أشكال مختلفة مرتبة بشكل متناظر[٥١].

وتجدر الإشارة أيضاً إلى بعض الأشياء المعدنية المنقوشة والتي كانت مخصصة لأغراض السحر مثل الأغلفة الطلسمية ذات الأشكال المصرية حيث كانت تُكتب نصوص تلك الطلاسم على رقائق ذهبية أو فضية، وكانت هذه الأغلفة تدفن مع الأموات، وقد وُجد عددٌ كبير منها يمثل أشكال بلطات صغيرة تنتهي بساقٍ على شكل عنق الثّم. وكانت شفرات تلك البلطات الصغيرة مزينة بأشكال مصرية أو فينيقية بونية ومنقطة أو منقوشة برموز دينية أو حيوانية أو بأشكال نباتية مثل النخيل والورود. ويضاف إلى المتاع الجنائزي أيضاً المرايا المصنوعة من أسطوانات برونزية طُلي أحد وجوهها بطبقة من الفضة وكان لبعضها ساعدٌ من الخشب أو العظام أو العاج، وبعضها الآخر زُود بثقبٍ، وكان بدون شكٍ مجهزاً بسلسلة. وتم أيضاً

اكتشاف عدد كبير[٣٣] من قشور بيض النعام الملونة بالأسود والأحمر، وإضافة إلى أشياء كثيرة من العظام أو العاج مثل الأساور وعلب المجوهرات والتماثيل الصغيرة المختلفة، كما كانت الأمشاط الصغيرة والكبيرة تصنع من العاج وتزخرف أحياناً بالنقوش.

ونذكر أخيراً، وليس آخراً بطبيعة الحال، المختارات الفنية جداً من الجُعلان المكتشفة بالمئات في قبور قرطاجة، إن هذه الطلاسم صنعت، حسب العصور والبلدان، من عجينة مزخرفة في البداية، وثم من اليشب أو العقيق الأحمر، كما صنعت أيضاً، وإن بشكلٍ قليل من اللازورد أو من العقيق، وكان الجزء المستوي من هذه الطلاسم محفوراً برسومٍ غائرة. ولهذه الجعلان قصة، إذ أن أقدمها صُنع في مشاغل مدينة «نوكراتيس Naucratis» [وهي مدينة في دلتا النيل]، وكانت تحمل أشكالاً متأثرة بالفن المصري أو الفينيقي (السوري). وبعد اضمحلال الدولة المصرية في القرن الخامس ق.م، أصبحت الجُعلان المصنوعة في سردينيا البونية هي السائدة، وتتسم خصوصاً باستعمال اليشب الأخضر الغامق الذي يقترب من اللون الأسود، كما أن من المؤكد وجود صناعة خاصة بالجعلان في قرطاجة ذاتها. مع ذلك نلاحظ، أورغم المواضيع المختلفة ظاهرياً، أن الجُعلان المصنوعة في العالم البوني بإمكانها إعادة نسخ الصور التقليدية مثلما نمنمها الفن الإغريقي وطبعها بطابعه. بهذا الشكل كانت تبدو هذه النماذج الرائعة المكتشفة في «أوتيكا» و«قرطاجة»، ومنها جعلان مصنوعة من الكريستال الصخري نقشت عليها صور «محاربين» بخوذهم وسيوفهم وتروسهم.

ستكون لدينا فيما بعد مناسبة للحديث عن النصب والتواويس. ولايسعنا قبل إنهاء هذه اللمحة الموجزة عن الإنتاج الفني في العالم القرطاجي إلا أن نستعرض هذه النصوص التي كتبها «بول كوكلر» في نهاية القرن الماضي، يدفعنا من خلالها إلى التأثر الذي شعر به هو حينما اكتشف في أطلال مقبرة «برج الجديد» قبراً مليئاً بالأدوات الجنائزية:

«كان الهيكل العظمي، وهو لامرأة من المحتمل أنها كانت كاهنة، ممدداً.

وكانت الجمجمة ملتفتة إلى الجهة الشرقية، نحو باب المدفن. وفي يدها اليسرى توجد مرآة برونزية وفي اليمنى صنوج ثقيلة برونزية أيضاً، وكان معصمها الأيسر مغطى بأساور اللؤلؤ والجُعلان والتماثيل الصغيرة المختلفة، وتنتظم في ذراعها اليمنى عدة حلقات فضية وعاجية، أما أصابعها فكانت مزينة بخواتم فضية، إضافة إلى خاتم ذهبي يحمل فصه نقشاً لرؤوس أربعة كلاب. ويتدلى من الأذن اليسرى قِرط ذهبي على شكل حرف T، وفي رقبتها عقدٌ كبيراً من الذهب المصمت صيغ بأربعين شكلاً مختلفاً، رتبت بشكل متناظر في طرفي سيخ يمثل هلالاً من الفيروز يتهدل على قرصٍ من الصفير».

ويضيف: «وتكتمل زينة تلك المرأة بعقد آخر من الفضة. كما وجدت في القبر أيضاً، أشكال من الأربيال والمرمر ذات مسحة فنية كورنثية، وقارورة عطرٍ كبيرة من المينا مغطاة بأوراق الذهب، وتمثال خزفي متعدد الألوان، وجميعها متأثرة بأسلوب الفن المصري. ووجدت، عدا عن ذلك، أطباق من بيض النَعام الملوّن، وأوان خزفية إضافة إلى مصباح.

ثم يقول: «وبالنهاية، فإن هذه التنقيبات التي تمت في أقدم مدافن قرطاجة، تضعنا في أجواء حضارة غريبة، تبدو نقية أحياناً، بيد أنه سرعان ماتظهر فيها المؤثرات السورية والمصرية، إذ أن هذه الحضارة لم تكن قد تأثرت بعد بالعالم الغربي الذي دخلت معه فيما بعد في صراعٍ مرير. هنا تظهر لنا بالتأكيد معالم قرطاجة الفينيقية بكل أصالتها المبكرة وقبل أن تتحول إلى مدينة بونية غيرتها بشدة المؤثرات الإغريقية»(*).

وإذا كان بمستطاع القرطاجيين تجميع ثرواتٍ هائلة، فإنما يعود ذلك إلى حركة التجارة الكثيفة التي مارسوها. فالشعوب الأفريقية المجاورة لم تكن تملك سوى قطعان ماشيتها وزراعتها التي كانت تسد رمقها(**). كما أن المتروبول البوني كان، خصوصاً، مركزاً لتجارة المعادن الثمينة، فلقد كانت العاصمة البونية، في الحقيقة، تستعمل الكثير الكثير من الذهب والفضة.

لقد عرفنا بوجود سباكي الذهب في قرطاجة بفضل بعض النذور التي تم

اكتشافها. كما وُجد منذ عهد قريبٍ جداً في قلب المدينة القديمة نقشٌ يذكر هذه المهنة[٣٦]، فمن بين المجموعات الست التي ذكرت في هذا النقش، نلاحظ وجود مجموعة «سباكي الذهب» و«صانعي الأواني». وهذا الإصطلاح الأخير لايشمل الفاخوريين فقط بل جميع من كان يصنع الأواني[٣٧]. مهما كان نوع منتجاتهم، ومن بينهم بالطبع الصاغة الذين كانوا يصهرون ويزينون طسوت البرونز المطلية بالذهب، والكؤوس والأباريق التي اكتشف بعضها، والتي ذهب معظمها كغنائم استولى عليها الرومان خلال حروبهم مع قرطاجة.

لقد كانت بيوت العامة ومنازل العائلات الكبيرة في قرطاجة مزينة بشكلٍ يدل على ثراء فاحش، وقد لفت هذا الترف أنظار الرومان. ويذكر «بليني الأقدم» (18, XXXIII) أن هذه الزخارف الفخمة المذهبة شوهدت للمرة الأولى في كابيتول روما بعد تدمير العاصمة البونية. ويشير هذا المؤرخ أيضاً إلى الملاحظات التي كان السفراء القرطاجيون يذكرونها بدهشة وخبث في نفس الوقت، إذ كان أولئك السفراء معتادين في قرطاجة على السكن في بيوت واسعة مجهزة بأوان فضية، لذا كانوا يُظهرون فيما بينهم تململهم من رؤية نفس أواني الطعام التي كان مضيفونهم يضعونها أمامهم في جميع البيوت التي دعوا إليها» (50, XXXIII).

لقد كانت الثروات التي جمعتها مائة عائلة قرطاجية كبيرة للغاية. فعندما هاجم «سيبيون الأفريقي» قرطاجنة في عام 209 ق.م - والتي كانت الأسرة البرقية تعتبرها عاصمة الأمبراطورية الإيبرو - بونية - استولى من أعدائه على كميات ضخمة من الذهب والفضة. كتب المؤرخ وتيت - ليف»: «كان من بينها مئتان وستة وسبعون طبقا من الذهب، يزن كل واحد منها قرابة ليبرة واحدة، وثمانية عشر ألفاً وثلاثمائة ليبرة من الفضة المشغولة والمسكوكة، إضافة إلى عددٍ كبير من الآنية الفضية، وتم وزن وإحصاء كل هذا. [7, 47, XXVI]». وفي اسبانيا أيضاً، وحينما اجتاح «لوكيوس ماركيوس Lucius Marcius» معسكر «هاسدروبعل»، شقيق «هانيبعل»، استولى على كمية ضخمة من الغنائم وكان من بينها تروس فضية (أوذهبية كما يروي «بليني

الأقـدم») تزن مئة وسبعاً وثلاثين ليرة (أي حوالي خمسة وأربعين كيلوغراماً)، وجميعها تحمل صورة القائد البرقي.

لم تكن، بكل تأكيد، الأراضي الأفريقية البسيطة التي انتزعت من الليبيين هي التي قدمت للبونيين كل هذه الثروات، لكن قرطاجة مثل صور، التي قال عنها «حزقيال»: «في أعالي البحار تمتد أراضيك».

الفصل الرابع

امبراطورية البحر

«لقد ابتكر البونيون التجارة»
«بليني الأقدم»

شهد القرن الثامن ق. م اضمحلال قوة المدن الفينيقية التي كان «أشعياء» قد خاطبها قائلاً: «وحيٌ من جهة صور. وَلْوِلي ياسفن ترشيش لأنها خربت حتى ليس بيت حتى ليس مدخل... اخجلي ياصيدون لأن البحر حصن البحر نطق قائلاً لم أتمخض ولا وَلَدْتُ ولا ربيت شباباً ولا نشَّأت عذارى... من قضى بها على صور المتوجة التي تجارها رؤساء. متسببوها موقرو الأرض. ربُّ الجنود قضى به ليدنس كبرياء وكل مجدٍ ويهين كل موقري الأرض..» (23 -1, 2, 4, 8, 9) (*).

* إن من يستعرض أسفار العهد القديم في كافة المراحل الزمنية التي كتبت بها يلاحظ أن الإله «يهوه» كما تصوره العبرانيون وكما دعوه غالباً «رب الجنود» لم يكن له من شاغل سوى الحقد على الشعوب الأخرى وضربها وتدميرها. هذا الحقد الذي انصب خاصة على الكنعانيين والذي جاء دائماً على لسان كتاب اليهود وأنبيائهم. وهذه الأقوال الواردة هنا إضافة لما مر في ←

لقد حافظ القرطاجيون بشكلٍ تام على التقاليد الفينيقية. فكانت شهرتهم كتجار ليس لها مثيل. كتب «بليني الأقدم» [8-9, 57, VII] : «إن للمصريين الفضل في الإصلاحات التي ادخلت على النظام الملكي، أما الإصلاحات الديموقراطية فالفضل فيها يعود إلى أثينا، في حين، يضيف الكاتب الروماني، ابتكر البونيون التجارة».

مع ذلك، لم تجلب هذه العبقرية التجارية التي اعترف بها الأقدمون للبونيين، لم تجلب لهؤلاء سوى حسد الشعوب الأخرى. ففي أحد فصول مسرحيته الشهيرة «Poenulus» ـ وهي مسرحية مستوحاة دون شك من الأدب الأغريقي ـ يرسم الشاعر «بلاوتوس Plautes »(*) صورة ساخرة لشخصية «حنّون»، حيث يصوره كتاجر نزل بـ«كاليدونيا Calydon »، في ولاية «ايتوليا Etolie »(**)، وهي كلمة ساخرة استعملت للدلالة على القرطاجيين، كان شخصاً ورعاً وأباً طيباً، غير أن الكاتب قدمه لنا على أنه شخصٌ حاذق وماكر: «كان يفهم جميع اللغات، غير أنه كان يتظاهر عن خبثٍ بأنه لايعرف منها شيئاً. إنه قرطاجي حقيقي، وهذا كل مايمكن أن نقوله». ونكتفي في هذا السياق باقتطاع جزء من حوار المسرحية بين «آغاراستوكلس Agarastocles » وعبده «ميلفيون Milphion » حينما لمحا «حنّون» وصحبه :

ميلفيون : ولكن، من هو هذا الطائر الذي حط عندنا بملاءاته؟ هل سُرقت ثيابه وهو يستحم؟

فقراتٍ سابقة من أقوال «حزقيال» ليست سوى أمثلة على هذا الحقد الذي من أسبابه الرئيسية الغنى والإزدهار عند الكنعانيين. ومن طبع اليهود في كل زمان ومكان كراهية الغنى والرفاه عند غيرهم.

المحقق

* شاعر كوميدي لاتيني (254 - 146) ق. م.

المحقق

** منطقة يونانية كانت على عداء دائم مع مقدونيا.

المحقق

آغاراستوكلس: وحق الآلهة! إن شكله يشبه القرطاجيين.

ميلفيون: إنه «gugga»(*) ولديه، باعتقادي، عبيد عُجزّ على حافة قبورهم.

آغاراستوكلس: وكيف عرفت ذلك؟

ميلفيون: ألا تراهم يلحقون به وقد أحنوا ظهورهم بأحمالهم الثقيلة؟ أتصور، إضافة لذلك، أنه لاتوجد أصابعٌ في أيديهم.

ونحن لانعرف إن كان الإغريق والرومان بالمقابل موضع سخرية وهزء أيضاً في الجانب الآخر من «المتوسط»، عند خصومهم السعداء. وحينما نقرأ ماكتبه «بلوتاركسوس Plutoraque» نفهم أن القرطاجيين لم يكونوا مولعين بمثل هذه الدعابات. يقول هذا الكاتب: «إن هذا الشعب تغلب عليه الخشونة، نكد المزاج، يخضع لمن يحكمه، يستعبد الشعوب التي يحكمها، يصبح أكثر تواضعاً حينما يشعر بالخوف، أما حينما يثور فإنه يتحول إلى شعبٍ شرس، وهو شعبٌ حازم في قراراته، وقد أدّت صراحته إلى ابتعاده عن الدعابة والمزاح»[38]. هذه الصورة ولاشك قاتمة، ولكن الشيء الصحيح هو أننا لاننتظر أبداً أن يكيل الأغريق الإطراء على الشعب القرطاجي الذي حرمهم من التوغل في البحار خلال عدة قرون، هذه البحار التي أطلق عليها الرومان اسم «البحار الصورية Maria Tyria».

إن البحار الصورية هذه لم يُقصد بها فقط الحوض الغربي للمتوسط بدءاً من شاطيء «سيرتيه»، بل تمتد أيضاً إلى ماوراء أعمدة هرقل. فحتى القرن الثالث ق.م، كانت الدولة القرطاجية تحتكر لنفسها التجارة في جميع هذه المناطق.

لقد عقدت (كما نعرف من المراجع التقليدية)، أربعة اتفاقات بين قرطاجة وروما. ويُرجع «بوليبوس» تاريخ أول اتفاقية بين الدولتين إلى عام 509 [39]، وتحدد المنطقة التي كانت حكراً للقرطاجيين.

«للرومان وحلفائهم حرية الملاحة في ماوراء منطقة «Beau- Promontoire» [أي إلى الجنوب من رأس «فارينا Farina»]، أوراس «سيدي علي المكّي» إلى

---

* كلمة ساخرة استعملت للدلالة على القرطاجيين. المحقق

الشمال الغربي من قرطاجة]، إلا إذا تعرضت سفنهم للمواصف أو لسفن معادية منعتهم من ذلك. وإذا جنحت سفينة رغماً عنها فيما وراء هذا الرأس، فمحرمٌ على بحارتها أن يبيعوا أو يشتروا شيئاً، إلا مايكون ضرورياً لإصلاح السفينة الجانحة أو مايلزم لتقديم قربان. ويجب أن تكون السفينة جاهزة للإقلاع خلال خمسة أيام».

«وإذا قدِم تجارٌ ليبيعوا بضائعهم، فيجب الإمتناع عن عقد أية صفقة مالم يحضر العملية كاتب رسمي. أما فيما يخص تنظيم عمليات الشراء المنفذة بحضور ذلك الموظف الرسمي، فإن الدولة تضمن حقوق البائع ـ وهذا البند بخصوص عمليات البيع المنفذة في سردينيا وأفريقيا...

«وكل روماني رجع إلى سردينيا، في المنطقة الخاضعة لنفوذ قرطاجة، يحظى بنفس الحقوق التي يتمتع بها الآخرون.

«يمتنع القرطاجيون عن القيام بأية عمليات عدائية ضد «آردي Ardee» و«آنتيوم Antium» و«لورانتوم Laurentum» و«سيسِّي Ciceu» و«تيراسينا Terracina» وجميع المدن اللاتينية الخاضعة لروما. أما المدن المستقلة، فعلى القرطاجيين أن يتحاشوا مهاجمتها، وإذا اضطروا لاجتياح إحداها، فعليهم أن يسلموها بشكل كامل للرومان.

«على القرطاجيين ألا يبنوا أي حصنٍ في «لاتيوم Latium»، وإذا حدث ودخلوا مسلحين إلى الأراضي اللاتينية، فعليهم الإنسحاب منها قبل مُضي ليلة واحدة على دخولهم» [22, 1, III].

إضافة إلى ذلك، لاحظ المؤرخ «بوليبيوس» أن هذه المعاهدة «تدل على أن القرطاجيين كانوا يعتبرون سردينيا وأفريقيا مجالاً خاصاً بهم وحدهم، غير أنهم لم يميلوا إلى هذا الإتجاه في جزيرة صقلية حيث كانوا يميزون بدقةٍ الجزء الذي كان خاضعاً لهم. (23, 1, III).

ويذكر لنا «بوليبيوس» اتفاقيتين أخريين، تعودان إلى عامي 348, 279 ق. م، يشير من خلالهما إلى أن حقوق الرومان التجارية كانت مازال مقيدة:

«لقد أدرج القرطاجيون في هذه المعاهدة الصوريين [يقصد دون شك هنا

المراكز الصورية وبشكل عام الفينيقية الموجودة في الغرب] وسكان «أوتيكا» أيضاً. ثم «ماستيا تارسيون Mastia Tarseion » [وتقع على الساحل الاسباني دون شك، في أعالي رأس «بالوس Palos » إلى الشمال من «المريه Almeria » حيث كانت توجد قبيلة «الماستيانيين Mastianoi » الذين كانوا على علاقة مع «الترشيشيين Tarseioi » أهل المنطقة الغنية بالمناجم المسماة «ترشيش ـ تارتسوس Tarsis-Tartessos »]، إلى جانب منطقة «بو ـ برومنتوار Beau-Promontoire (الرعن الجميل)»، على أنها حدود حُرم على الرومان أن يمارسوا فيها أعمال القرصنة أو تأسيس المدن. [. . .].

«يُحرم على الرومان تحت أي ظرف ممارسة التجارة أو تأسيس المدن في سردينيا وأفريقيا، ويسمح لهم فقط التوقف فيها للتزود بالأقوات وإصلاح سفنهم، أما من يضطر منهم إلى اللجوء إلى سواحل هذه المناطق بسبب العواصف، فعليه الرحيل منها خلال خمسة أيام.

«أما في صقلية القرطاجية وفي قرطاجة ذاتها، فإن الرومان يتمتعون بحرية التجارة وممارسة بقية النشاطات مثلهم مثل كافة المواطنين. ويتمتع القرطاجيون بنفس الحقوق في «روما» (24, 1, III) .

لقد تأكدنا مما سبق أن قرطاجة أصبحت وارثه لـ«صور». لا بل إنها شغلت في الواقع مكاناً متفوقاً بين المستوطنات التي أسسها المتروبول القديم في الغرب. وبورود اسم الساحل الجنوبي لـ«الرأس الطيب» الذي يضم المراكز التجارية الموجودة في «سيرته» الصغرى، فإن المعاهدة الأولى كانت تشير إلى الحدود الشرقية للأمبراطورية البونية طور التكوين، وكانت أداة دبلوماسية شديدة الدقة. إن المجال الذي تمكن القرطاجيون من مدّ نفوذهم فيه بحريةٍ كان يشمل حتى الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الإيبرية التي كان الإغريق قد طردوا منها في وقتٍ سابق.

ومما تجدر إضافته، أن العاصمة البونية، كي تحفظ حقوقها في هذا البحر الذي اختصت به لمدّ شباك تجارتها، لم تركن فقط إلى هذا التحالف المعزز بالقوانين إذ كانت تدرك أنه لن يصمد طويلاً أمام طموحات منافستها روما. لذا عمدت قرطاجة إلى تعزيز أسطولها الحربي الذي كان يشكل القوة الأولى في تلك

التوسع الفينيقي والبوني في البحر المتوسط الغربي

المنـاطق، وكـانت سفن هذا الأسطـول تراقب بحـرص جميـع محاولات المغامرين الـذين يودون الإبحـار في الميـاه المُحـرّمـة عليهم. ويـذكـر نصّ لـ«سـترابون» هذا المـوضـوع فيقـول: «علينـا أن لاننسى أن القـرطـاجيين أغـرقوا بلا رحمة كل سفينةٍ صادفوها تبحر في مناطقهم وتتجه إلى سردينيا أو إلى أعمدة هرقل» (19, 1, XVII).

لقـد كانت المـراكـز التي أسسهـا الفينيقيـون أول مادخـل تحت سلطة العالم البـوني. وبعـد الهجـرة الأولى قام البـونيون - كما أصبح اسمهم - بإنشاء مستوطنات أخـرى داخـل المناطق الواقعة تحت نفوذهم. وكما رأينا في فصول سابقة، ليس من السهل علينـا أن نميز بين المنشآت التي تعود إلى العصور الأولى وتلك التي أسسها القرطاجيون أنفسهم.

علينـا في هذا السيـاق أن نشيـر إلى المـراكـز التجـاريـة التي كان يضمها هذا «المثلث البوني»[١٠] الذي كانت تتشكل زواياه من قرطاجة وأراضيها الليبية وصقلية وسردينيا.

ففي صقليـة، حيث كان الإستيطـان الفينيقي قد تركـز قبـل زمنٍ سابقٍ، لم يتمكن القـرطـاجيـون من الإستقرار إلا في جزء صغير من أراضي شبه الجزيرة. فبعد «موتيي Motye» [San Pantaleo]، كُشف عن عدد كبير من القطع الأثارية في مواقع أخـرى تدل على وجـود القـرطاجيين، مثل جبل «إيريكس Eryx» [حيث يوجد حالياً موقـع «إيـريس Erice»، على بعـد خمسـة عشـر كيلو متراً من «تـرابـاني Trapani»] و«ليليبي Lilybee» «مـرسـالا Marsala»]، وجميـع هذه المـواقـع توجـد على الطـرف الغـربي للجـزيـرة. أمـا على الشـاطيء الشمـالي، فقد كشف عن آثار قرطاجية في «بانورموس Panormos» [باليرم Palerme]، و«سولويس Soleis» [سولونتي Solunte][١١]. ويبقى أنه كان على القرطاجيين، خلال صراعهم مع الإغريق الذين كانت لهم قاعـدة أسـاسيـة في «سيراكوز Syracuse»، كان عليهم أن يحدّدو منطقة نفوذهم في الإقليم الـواقـع إلى الغـرب من خطٍ يصـل بين «هيميـر Himere» بـ«سيلينـونتي Selinonte».

ورغم المصـاعب التي كان القـرطـاجيـون يواجهـونها خلال توسعهم في تلك

الأراضي، فإنهم سعـوا لإقـامـة علاقات مع الجزء الآخر من الجزيرة الذي أفلت من قبضتهم. فخـلال الحـروب التي دارت بينهم وبين منـافسيهم، نشطوا بتوسيع تجارة قويـة مع «صقليـة» الإغـريقيـة، وكـان البـونيـون يسعـون للإتجـار ليس فقـط في «سيلينونتي»، بل أيضاً مع «أغريجانتي Agrigente». التي كانوا يحملون إليها النبيذ والزيت ـ إضافة إلى «سيراكوز» حيث أنشئت مستعمرة لتجار قرطاجة الأغنياء في هذه المدينة القوية.

كان باستطـاعـة السفن المنطلقـة من العاصمة البونية باتجاه «موتيي» أو جنوب سردينيا، وتبعد المنطقتان نفس المسافة عن قرطاجة ـ أن تصل إليهما خلال رحلة يوم كامل. وفي سردينيا، وخلافاً لما كان قائماً في صقلية، كان باستطاعة قرطاجة أن تمد في كافـة أرجـاء الجـزيرة شبكة من المراكز التجارية، إذ أنها تتمتع بحقوق الإحتكار الكـامـل لأسـواق هذه الجـزيـرة كمـا رأينا. وانتشرت الوكالات التجارية Emporia، وخصـوصـاً على طول السـاحـل الجنوبي الغربي في مرافيء أو مواقع تتمتع بميزات أسـاسية للمنشآت الفينيقية البونية مثل «كاراليس Caralis» [كالغاري]، «نورا Nora». «بيثيـا Bithia»، «سـولسيس Sulcis»، و«ثـاروس Tharros». إضـافة إلى المركز المـوجـود في الجنـوب الشـرقي وهـو «أولبيـا Olbia». وعلينـا أن نلاحـظ أن حركـة الإستيطان تلك لم تكن مقتصرة على المراكز المبعثرة في المناطق الساحلية. فمعقل «مونتي سيري Monte Sirai»(٢٦)، بمعبده الموجود في محيط الـ«توفه Tophet» وسوره وقلعتـه المـرتفعـة، كان يبـدو كمكـان مشـرف. وفي هذا دليل على أن البونيين كانوا يرغبـون السيطـرة تمـامـاً على مجمل أراضي هذه الجزيرة، التي كانت تتمتع بأهمية عظيمـة من أجـل استمرار سيطرتهم على البحر المتوسط. وعلى الرغـم من تأسيسهم العديد من المعاقل في داخل الجزيرة، إلا أنهم لم يتمكنوا من إخضاع جميع السكان الأصليين. يقـول «ديـودور الصقلي»: «رغم أن القـرطـاجيين كانـوا في أوج قوتهم وأصبحـوا سادة هذه الجـزيـرة (سـردينيـا) إلا أنهم لم يتمكنـوا من إخضـاع سادتهـا السـابقين، «الأيـوليين Ioleens»، الـذين التجأوا إلى المنـاطق الجبليـة. ومـع أن القـرطـاجيين كانـوا يهاجمونهم بجيوشهم الضخمة، فإنهم ـ الأيوليون ـ كانوا يفلتون

دوماً ويختبئون في معاقلهم المنيعة أو في سراديب يعرفونها» (15, V) . إن هذا الصدام بين القرطاجيين والسردينيين، الذين استبسلوا في الدفاع عن حضارتهم الخاصة، يُعد أحد أبرز النقاط في تاريخ العصور القديمة. وفيما بعد، في عام 238 ق. م، قامت روما، التي استغلت الأزمة الخطيرة التي نجمت في قرطاجة عن تمرد المرتزقة والتي هزت العالم البوني كله، قامت بضم سردينيا وكورسيكا إلى مجال نفوذها بعد أن أبعدت حليفتها السابقة عما كان لها من قواعد.

كانت الأمبراطورية القرطاجية تضم أيضاً، إضافة إلى صقلية الغربية وسردينيا، جزر «مالطا» و«جوزو Gozzo» و«لمبيدوزا Lampedusa» و«بانتالاريا Pantelleria». وقد سبق للفينيقيين، كما رأينا، أن أسسوا في هذه الجزر مراسي مؤقتة[٣]، كانت بمثابة نقاط ارتكاز لمراقبة مدخل المتوسط الغربي. وحسب مايقوله «ديودور» (16, V) قام القرطاجيون في عام 654 ق. م، أي بعد قرن ونصف من تأسيس مدينتهم، بالإستيطان في جزيرة «بيتيويز Pityuse» [إيبزا Ebiza]. أما في جزيرة «مينورقا»، فتلاحظ أن مدينة «ماهون Mahon» [ماغو Mago] قد حافظت على اسم أصبح شهيراً جداً فيما بعد ألا وهو اسم العائلة الماغونية. وتقع هذه الجزيرة على بعد مئة وثمانين ميلاً من السواحل الغربية لسردينيا. وحينما كان البحارة ينطلقون من الموانيء السردينية في طريقهم إلى اسبانيا، كانوا يصادفون في طريقهم جزر «الباليار Baleares» بمراسيها المهمة.

«التوسع» البوني في أفريقيا

لم يكن بمقدور العاصمة البونية التي وطدت نفوذها في أفريقيا أن تتجاهل الأسواق التي كانت مهيأة على طول السواحل الأفريقية والتي كانت تسيطر عليها بشكل مطلق. ولم يكن عليها سوى متابعة عمليات التجارة التي بدأت إبان التوسع الفينيقي، إذ تم تعزيز المراكز التجارية القديمة، كما افتتحت مراكز أخرى، فعلى طول الساحل الممتد من خليج «قابس» إلى «طنجة» أسست قرطاجة وبشكل

تدريجي ومنتظم محطات تبعد الواحدة عن الأخرى حوالي أربعين كيلومتراً بهدف تعزيز التجارة الساحلية والمسافة المذكورة (40 كيلومتراً) تعادل مايمكن للسفن أن تقطعه في اليوم خلال إبحار متواصل وفي ظروف مناخية جيدة[٦٤]. لقد كان مفيداً للبحارة بالتأكيد أن يتعرفوا على المراسي، مهما كانت متواضعة، والتي كان بالإمكان انشاؤها في الخلجان الصغيرة المحمية من الرياح أو في مصبات الأودية، من أجل الإبحار قرب الشاطيء. ومع ذلك، فإننا لانستبعد أن البحارة كانوا كل مساء يسحبون زوارقهم إلى اليابسة، الأمر الذي تطلب وجود مرافقين مخصصين لأعمال التحميل والتفريغ[٦٥].

إن التنقيبات الأثارية على السواحل التونسية والجزائرية والمغربية قد سمحت بالكشف عن العديد من الآثار البونية. ونلاحظ أيضاً أن العديد من المرافيء التي اشتهرت في الحقبة الرومانية، كان يحوي في تسميته على البادئة السامية «Rus» ـ في العربية (رأس Ras) ـ وفي هذا دلالة على أن هذه المواقع أنشئت حيث كانت توجد المستوطنات الفينيقية. البونية. وفيما يلي بعضٌ من «رؤوس الجسور» تلك التي كانت منتشرة على ساحلٍ يقارب طوله الألفي كيلومتر.

تم الكشف في تونس عن آثار استيطانٍ بوني في «تاينساي Thaenae » [«هانشيرثينا» إلى الجنوب من صفاقس]، وفي «آكولا Acholla » [رأس بوتريا Botria]، و«غومي Gummi » [المهدية]، و«ثابسوس Thapsus » [رأس ديماز] حيث اكتشفت مدينة للمدافن، و«ليبتس مينور Leptis Minor » [لمتا]، و«هادرومانتوم Hadrumentum » [سوسة]، و«نيابوليس Neapolis » [نيابول]، و«كلوبيا Clupea » [قليبية]، و«قرقوان Kerkouane » و«رأس الدرك» و«رأس فورتاس»، [هذه المواقع الخمسة الأخيرة توجد في منعلقة «الرأس الطيب»[٦٦]]. وبعد «قرطاجة» و«أوتيكا» يوجد «رأس سيدي علي المكيّ» [قرب «بورتوفارينا Farina »]، و«هيبّو آكرا Hippo Acra » [بيزرت]، وتوجد على الحدود التونسية الجزائرية الحالية «ثابراكا Thabraca » [طبرقة] بجزيرتها الصغيرة المسماة «غاليت Galite ».

ومن المعروف أن الإستيطان القرطاجي لم يقتصر فقط على القطاعات

الساحلية وحدها. ولاشك أن «سترابون» كان يبالغ ـ لأغراض دعائية ـ حينما كتب: «في ليبيا (ويقصد هنا أفريقيا الشمالية كلها)، استطاع الفينيقيون أن يسيطروا على جميع الأراضي الحضرية. ونتيجة احساسهم بقوتهم تلك، فرضوا مدينة «قرطاجة» كمنافس لروما. وشنّوا على الشعب الروماني ثلاث حروب رهيبة، لقد أظهرت هذه الحروب الثلاث بوضوح ضخامة مصادرهم [. . .]، فحينما بدأت هذه الحروب، كانت تتبع لقرطاجة ثلاثمائة مدينة، كما أن العاصمة البونية ذاتها كانت تضم على الأقل سبعمائة ألف ساكن» (15, 3, XVII). وعلينا الاعتراف أن الوجود البوني في أراضي تونس الحالية كان قد وصل إلى أعماق هذه البلاد. فقد استوطنوا في «سيكا Sicca» [الكف]، وفي أواسط وادي نهر المجردة حيث أصبحوا سادة منطقة «السهول الكبرى Campi Magni»، في المناطق التي تسمى حالياً «سوق الخميس» و«سوق الأربعاء»، وكان هذا أحد أسباب الصراع الذي نشأ بين القرطاجيين والنوميديين بين عامي 193-152 ق. م، إذ أن «ماسينيسا Massinissa» النوميدي كان يطمح لإعادة نفوذ أسلافه فوق تلك الأراضي.

إن تغلغل القرطاجيين هذا بين المجتمعات الأفريقية أسفر عن نماذج أدى إلى رابطة إثنية وثقافية وثيقة، فعلى سبيل المثال، وفي زمن القديس «أوغسطين» كانت شعوب تلك المناطق ماتزال تتحدث بلهجة هي مزيج من الليبية والبونية[٧]. لقد فرضت حضارة قرطاجة نفسها شيئاً فشيئاً، كما أن بعضاً من عادات السكان الأصليين ومعتقداتهم الدينية أثّر في عادات ومعتقدات أولئك الفينيقيين الذين أصبحوا ليبيين ـ فينيقيين[*] أعطيت هذه التسمية للفينيقيين الذين سكنوا في مستوطنات الساحل الأفريقي، وفيما بعد شملت الليبيين الذين أخذوا بالعادات البونية، ويعتقد أن هذه التسمية أصبح لها مدلولٌ حقوقي وإداري للإشارة إلى مواطني المدن البونية الذين تمتعوا بالحقوق نفسها التي كانت لسكان العاصمة.

---

* لو أردنا استخدام تعبير أخف لقلنا «أفروفينيقيين».

المحقق

قرطاجة ملتقى الحضارات المتوسطية

وباختصار، نهلت هذه الحضارة القادمة من الشرق من أفضل المصادر في الأراضي التي اختارتها. إن عملية «الأفرقة Africanisation»، تلك، والتي ساهمت في إغناء الحضارة البونية تنتهي، بشكل شرعي إلى الإرث الثقافي لشمال أفريقيا. يقول «جيروم كاركوبينو Jerome Carcopino»: «إن هذه المستوطنات كانت عبارة عن مراكز لحضارة مختلطة Mixte، انتشرت فيما بعد على طول الساحل، وباتجاه المحيط، وتفوقت على أفريقيا الشمالية كلها. ويضيف: أن هذه الحضارة كانت تمثل روح قرطاجة»[٦٨]. وعلى هذا، فإن الدولة التونسية الحالية تحظى من جهتها بالجزء الأكبر من هذا الإرث العظيم.

لقد كان عدد المستوطنات البونية كبيراً على السواحل الجزائرية. فمن الشرق إلى الغرب كانت توجد مستوطنات. «هيبوريجيوس Hipporegius» [عنابة]، و«روزي كاد Rusicade» [سكيكدا]، و«كولّو Chullu» و«إيجيلجيلي Igilgili» [جيجل]، و«سالداي saldae» [بوجاية]، و«روزازوس Rusazus» [الزيفون]، و«ايونيوم Iomnium» [تجزيرت]، و«روسغونياي Rusgunioe» [برج البحري، وقديماً كان يسمى «رأس ماتيغو»]، و«ايكوزيوم Icosium» [الجزائر]، و«تيبازا Tipasa»، و«ايول Iol» [شرشال]، و«غونوغو Gunugu» [غرّية]، و«كارتينّاس Cartennas» [تنس]، و«بورتوس ماغنوس Portus Magnus»، [«بيثيوا»، قديماً «سان لو»]، و«الأندلسيات»، «مرسى مدّاخ»، «بوزجار» [وتوجد المواقع الثلاثة الأخيرة إلى الغرب

من «وهـران»]، وأخيراً، «راشغون Rachgoun»[11]، تلك الجزيرة الصغيرة التي تبلغ مساحتها حوالي خمسين هكتاراً، وتبعد ميلاً واحداً عن الساحل، وتقع أمام خليج صغير يصب فيه نهر «التفنا»، وبمواجهة بلدة «سيغا Siga» عاصمة «سيفاكس Syphax»، ملك «المازايسزيليين Masaesyles»، الخصم العنيد لـ«ماسينيسا Massisnissa».

ونتوقف قليلاً في جزيرة «راشغون» التي ترتفع هضبتها عن سطح البحر حوالي خمسين متراً، وهي دائمة التعرض للرياح المحملة بالرذاذ، وكان من الممكن الوصول إليها عبر طريقٍ شديد الإنحدار، حُفر في الجرف الوعر. إن التنقيبات التي أجريت فيها فيما بعد كشفت عن وجود أبنية إضافة إلى مدينة مدافن تضم مئة وأربعة عشر قبراً ـ ومعظمها استخدم لحرق الأموات ـ إضافة إلى تجهيزات هامة. وجميع هذه اللقى تعود إلى ماقبل القرن الخامس ق. م، ولوحظ، في أسفل سطحها الشرقي، وجود حوضٍ صنعي، مستطيل الشكل (طوله عشرون متراً وعرضه خمسة عشر)، مجهز بخليج صغير بحيث كان بالإمكان الدخول إليه عبر شق عرضه أقل من مترين. وفتح هذا الشق في قلب الصخور (صورة الغلاف). لقد كان سكان الجزيرة يقودون زوارقهم إلى هذا الخليج الصغير، دون شك، حين عودتهم من الشاطيء حيث كان عليهم. مثلهم مثل جميع المقيمين في المراكز التجارية البونية الموجودة على الساحل. أن يقيموا علاقات تجارية مع السكان المحليين أو من أجل التموّن بالأقوات والمياه العذبة.

إن «كوثون Cothon» [مرفأ] «راشغون» هذا، الواقع في هذه التخوم القصية من شواطيء المتوسط، ورغم حجمه الصغير جداً، والذي صُنع بأيدٍ بشرية، أمام جرف جزيرة شاطئية هجرها الجميع، إن هذا المرفأ كان يبدو تعبيراً مدهشاً عما توصلت إليه مغامرة هذا الشعب الصغير القادم من سوريا واستقر هذه السواحل الموحشة. لقد كان هذا الشعب البوني مستعداً دوماً للمواجهة، مستبسلاً في الدفاع عن مراكزه، بيد أنه كان قليل التأثر بميول الحياة الناعمة، وكان يمكن أن يفقد الثقة بقَدَره الخاص، هذا القَدَر الذي اقتضى أن يواجهه دوماً بجرأة وإرادة صلبة.

طـرق الثـروة

أقـام البـونيـون أيضـاً مراكـز تجـارية على شاطيء المغرب المتوسطي، فلقد أنشئت مدينـة «روزاديـر Rusaddir» [مليلة] في بقعة محمية من رأس «الثلاث شُعَب Trois-fourches» غير بعيد عن مصب نهر «الملوية»، وبعدها كانت توجد بلدة «إمسا Emsa» ثم «سيدي عبد السلام البحّار» و«تمودا Tamuda» [قرب تطوان] وأخيراً «طنجة».

ورغم أن الـوجـود القرطاجي كان كثيفاً على طول السواحل الأفريقية، فلايبدو أن السبب الأسـاسي لهـذا الـوجـود كان فقـط إقـامـة علاقـات تجـارية مع الشعوب المجاورة لهذا الإقليم. إن مثل هذه العلاقات كانت موجودة بالتأكيد، ولكنها لم تكن تثمر عن صفقاتٍ تجارية رابحة، إذ لم يكن لدى السكان الأصليين سوى القليل من البضائع التي كانوا يبادلون بها المنتجات المصنوعة في «قرطاجة»، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يغـزلـون وينسجون ملابسهم الصوفية بأنفسهم، وكما أن الحرف المحلية عنـدهم كانت تُصنّع أدواتٍ بدائيـة تفي بالحـاجـات الـزراعيـة، لكل ذلك لم يكن ضـروريـاً اللجـوء إلى المصنـوعـات الأجنبيـة. ومـع ذلـك يمكن أن نستثني بعض المصنوعات الكمالية مثل المجوهرات والعطور والسيراميك الدقيق والأواني الزجاجية والأقمشـة الفـاخرة والأسلحة، التي كان القادة وأبناء العائلات الثرية يحصلون عليها من المراكز التجارية المتواجدة على الساحل. ومن بين هؤلاء النوميديون والمغاربة الذين خدموا سابقاً في جيوش قرطاجة وتذوقوا طعم حضارتها ومن ثم تعودوا على مظاهرها.

وفي الحقيقـة، كمـا أوضحنـا في مقـاطـع سابقة، كان السبب في إنشاء هذه المراكز البونية أنها كانت محطات استراحة على الطريق إلى الأقاليم الغنية بالمعادن

الثمينة(*). وعلينا أن لاننسى أن رخاء قرطاجة كان مردّه استيرادها المعادن كالحديد والنحاس والقصدير والفضة والذهب. وأصبحت الدولة البونية بفضل هذه التجارة الأغنى في المتوسط الغربي. كتب «بليني الأقدم» أنه «لكي يشار إلى صنف حجر العقيق الأحمر النفيس، كان يطلق عليه اسم «القرطاجي» وذلك بسبب وفرته في قرطاجة العظيمة» [1, 25, XXXVII].

وكما رأينا فيما سبق، كانت تجارة المعادن تلك هي أكبر مصدرٍ للأرباح بالنسبة لصور وبقية المدن الفينيقية، ويقارن البعض هذه الثروات بتلك التي جلبها الغزاة الاسبان من أمريكا وأغنوا بها بلادهم. إلا أن «الألدورادو» تلك التي ذهب الإسبان للبحث عنها في مجاهل الأمازون، كان الفينيقيون وبعدهم القرطاجيون قد وجدوها في أسبانيا نفسها.

هناك في بلاد «تارتسوس Tartessos» الواقعة في حوض نهر «الوادي الكبير» كانت «سفن ترشيش» تملأ عنابرها بالفضة والعروق المعدنية المستخلصة من جبال «مورينا Morena» قبل أن تقفل عائدة بإتجاه الشاطيء السوري. وهناك أيضاً بنيت «قادس» قبل أن ترى قرطاجة النور، بينما كان الفينيقيون يواصلون تأسيس المراكز التجارية على طول السواحل الأوسط لإسبانيا.

لقد كانت عائدات هذه الأسواق من الأهمية بحيث قامت قرطاجة، بعد أن

---

* في الواقع، لايكفي أن نعتبر هذه المراكز محطات استراحة فحسب، إذ أن هناك أسباباً أهم من ذلك عبر عنها «فرانتس كارل موفرز F. K. Movers» في «تاريخ الفينيقيين» بقوله: «وكان تأمين المواصلات التجارية سبباً أساسياً لنشأتها... كانت الرحلات البعيدة التي قام بها التجار والصغار ليبادلوا السلع التي حملوها في سفنهم مع السكان المحليين، كانت غالباً مصحوبة بالصعوبات... بالنسبة للسلع المستهلكة بكثرة لم تكن مخزونات السفن منها كافية... وبالنسبة للسلع القليلة الإستهلاك، وخاصة في حال وجود منافسين، كان يدوم الإنتظار أحيانا حتى السنة على السواحل ريثما تنفذ البضاعة، علماً أن التاجر المتجول في القارة كان يلاقي متاعب مشابهة... وهكذا نشأت المستوطنات ومخازن البضاعة في البلدان الغريبة....».

المحقق

ورثت نفوذ صور وصيدون، بفرض احتكارها على منطقة المعادن الغنية تلك التي كان اغريقيو «فوسيه Phocee» هم أول من استثمرها. لقد أقفل القرطاجيون مضيق «جبل طارق». وبهذا الخصوص، كتب الشاعر الإغريقي «بينداروس Pindare»: «لم يكن من السهل الدخول إلى البحر الموجود فيما وراء أعمدة هرقل التي رفعها هذا البطل للإشارة إلى خاتمة رحلته البعيدة» (Nemeennes III, 20-21). ويبدو أن القرطاجيين، كي يراقبوا هذا المضيق الذي كانت له أهمية عظيمة لتجارتهم في اسبانيا وشواطيء الأطلسي، قاموا بتأسيس قاعدة بحرية في خليج «الجزيرة Algesiras» الصغير حيث كانت توجد مدينة «كارتيا Cartela» القديمة «سترابون، III, 1, 7» وإلى الشرق أيضاً، قاموا بإنشاء مستوطنات هي: «ملقا Malaga»، و«سيكسي Sexi»، و«أبديرا Abdera»، و«باريا Baria» [فيلاكروز][٧٠]. ومع ذلك، فلا توجد أية معطيات تمكننا من الجزم بأن الفينيقيين البونيين. حتى القرن الثالث ق.م، قد تجاوزوا القطاع الساحلي هذا وتوغلوا إلى عمق البلاد.

لقد استقر هذا الوضع في تلك النواحي حتى تولى «هاملقار برقا» أمورها وبدأ في تأسيس امبراطورية حقيقية في اسبانيا. ولقد عملت العائلة «البرقية» الشهيرة، حسب بعض المرويات[٧١]، على تأسيس «منطقة نفوذ برقية» كي تتمكن من فرض سياستها الإنتقامية بعد أن تمكنت روما من ضم صقلية وسردينيا وكورسيكا في الظروف التي نعرفها. ومهما تكن واقعية هذه الأسباب، فإن «هاملقار» أعلن مايشبه «الثورة» في سياسة بلاده. فخلال عشر سنوات بين 237-228 ق.م، توجت مشاريعه الناجحة بتأسيس مدينة «أكرالوكي Akraleuke» [«أليكانتي» الحالية Alicante] التي مثلت ذروة أعماله. وحينما مات، بطريقة عنيفة، خلال حصار مدينة «هيليكي Helike» [إلشي Elche] ترك لصهره أرضاً تشمل جميع الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الإسبانية، وتابع «هاسدروبعل» سياسة سلفه تلك، إذا قام بتأسيس أكبر المدن البونية في اسبانيا، «قرطاجنة Carthagene» وتعني «قرطاجة الجديدة» [Carthago Nova] في موقع مدينة «ماستيا Mastia» القديمة، الواقعة قرب منطقة غنية بمناجم الفضة (سترابون III, 2, 10). إلا أن «هاسدروبعل» اغتيل عام 221 ق.م.

فتولى «هـانيبعل» ابن «هاملقار» زمام الأموروكان في سن السادسة والعشرين. وتابع القـائـد الجـديـد عمليات الفتح بحماسة شديدة حتى وصل إلى وادي نهر «التاجوس Tage». ومـع ذلـك، كانت السيطـرة البـونيـة هشـة باستثناء المناطق المسماة حالياً «الأندلس» و«موريسي Murice» و«فالانسيا Valence» إذ اصطدمت بالقبائل الكلتو-إيبـريـة المحاربة. غير أن القائد القرطاجي اللامع واصل، رغم ذلك، تقدمه في عام 219 ق. م، وفـرض الحصـار على مدينـة «سـاغـونتي Sagonte» ليعبـر بعد ذلك نهر «الإيبر Ebre» [٣٢]، ويبدأ مسيرته الشهيرة نحو روما.

لـم تكن اسبـانيـا الجنـوبيـة بالنسبـة للقـرطـاجيين مصـدراً للمعادن فقط، بل سـمحت لهم أيضـاً بالإنطـلاق إلى دروب الثـراء، وكـان «أرسطـو» قد أشـار إلى دور المـدن «التـابعـة» في ثراء المـواطنين القرطاجيين، إذ أن الوضع الإجتماعي والمالي لتلك المـدن كان معقـولاً، وكـانت سواحلها مفتوحة على المحيط الأطلسي ومحمية من أي تسلل غريب محتمـل، وكـانت تضم، بفضـل موانئهـا الهـامة مثل «قادس»، قاعدة انطلاقٍ ممتازة لعمليات البحث البعيدة عن المعادن الثمينة.

إن البحـارة البـونيين كانـوا ولاشـك سباقين في الوصول إلى بعض الشواطىء البعيدة وإقامة علاقات تجارية فيها، كما أن وجود هذه الأقاليم خارج الطرق البحرية المعروفة وعدم اعتياد سكانها الأصليين على عمليات بيع منتوجاتهم يمكن أن يفسر سبب تأخر القرطاجيين في سكِّ نقودهم الخاصة التي ضُربت للمرة الأولى عام 404 ق. م في صقليـة وليس في العـاصمـة، حيث اعتـاد المواطنون على استخدام النقود الأجنبية التي كانت سائدة قبل ذلك التاريخ، أو كانوا يستعملون أيضاً سبائك مصنوعة على شكـل قضبـان ذات أوزان مختلفـة. وبـالمقابل، كان القرطاجيون يلجأون في معـامـلاتهم التجارية مع البلدان «المتخلفة» إلى عادتهم القديمة التي اشتهروا بها، وهي المقايضة. يروي لنا «هيرودت» إحدى عمليات المقايضة الصامتة تلك فيقول: «يـروي القـرطـاجيـون هذا أيضـاً، إذ توجد خلف «أعمدة هرقل» بلادٌ تابعة لـ«ليبيا» يسكنها ناس يعرجون عليهم، حيث يقومون بإنزال بضائعهم ويعرضونها بشكل دقيق على شاطىء البحر، ثم يعودون إلى سفنهم ويشعلون ناراً لإعلام أهل البلاد الذين

يقتربون من الساحل عند رؤية الدخان، ويضعون بجانب السلع ذهباً، ثم يرجعون، وبعد ذلك، يهبط القرطاجيون من جديد ويعاينون الذهب الذي تركه هؤلاء، فإن وجدوا أن كميته توازي قيمة السلع فإنهم يحملونه ويرحلون بسفنهم إلى عرض البحر، وإلا فإنهم يعودون إلى سفنهم وينتظرون مرةً أخرى. أما الأهالي فإنهم يعودون بدورهم ليضيفوا ذهباً، وهكذا حتى يحوذوا على رضى القرطاجيين. ولايحدث خلال هذه العملية أي تلاعب، فالقرطاجيون لايلمسون الذهب قبل أن يروا في كميته مايوازي قيمة سلعهم، والأهالي بدورهم لايلمسون السلع قبل أن يأخذ القرطاجيون الذهب»[٣٣].

إن لنص «هيرودت» هذا أهمية خاصة. فمقابل المعادن النفيسة، كان التجار القرطاجيون يعرضون سلعهم مثل: منتجات الصناعة القرطاجية، إضافة إلى منتجات كانت ترد من اليونان وإيطاليا وسوريا وكان أولئك التجار يتقاضون مقابلها عمولات كبيرة. لقد تمكن القرطاجيون بإتباعهم هذا «التقدم التقني» أن يستحوذوا على الأسواق التي كانوا يصرفون فيها سلعهم والتي كانت في نفس الوقت مصدراً للمعادن الثمينة التي خلقت ثرواتهم. وهذا النظام الإقتصادي، يشبه حالياً، تجارة الدول الصناعية مع دول العالم الثالث.

أين يوجد بالضبط ذاك السوق النفيس الذي قال عنه المؤرخ اليوناني أنه يقع خلف أعمدة هرقل؟ إن حملات البحارة البونيين قليلة، فالنصوص القليلة التي وصلتنا لاتفي بالغرض كما أنها صعبة التفسير، إذ أن المكتشفين والتجار القرطاجيين لم يبوحوا أبداً بسر طرقهم البحرية، بل على العكس كانوا يسعون إلى عرقلة أية محاولة من جانب أية جهة أخرى لاكتشاف هذه الدروب بنشرهم حكايات أسطورية عن تلك البحار التي كانت سبيلهم إلى الأراضي البعيدة.

ومع ذلك، لم يكن كل شيء أسطورياً، إذ أننا نعلم أن التجارة البحرية البونية تمكنت من الوصول إلى منطقتين تم اكتشافهما في «رحلات بحرية» [Periples] ويعني هذا المصطلح عمليات الإكتشافات البحرية المنظمة لحساب الدولة، وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس ق. م. ففي تلك الفترة أصبحت العلاقات

حكومية (شعبية Publiques)، بشكل جزئي وذلك بعد حدوث «تسويات»، ولقد وصلنا بفضل الكتاب الكلاسيكيين بعضٌ من أخبار هذه «الرحلات البعيدة» التي دشنت خطوط الملاحة التجارية.

لقد نظم «هاميلكون» القرطاجي رحلة بحرية سلك فيها خط سير قديم كان بحارة بلاد «تارتسوس»، دون شك، قد افتتحوه، حيث انطلق من السواحل الإيبيرية باتجاه الشمال. ولقد خصص المؤرخ الروماني «فستوس أفينوس Festus Avienus » مقطعا من كتابه «Ora Martima» لرحلة «هاميلكون» هذه. فبعد أربعة أشهر من انطلاقهم من «قادس»، وإبحار صعب جداً «كانت حقول الطحالب تعرقل السفينة كأنها سياج»، إضافة إلى القيعان القليلة العمق والضباب الذي لايمكن اجتيازه والوحوش البحرية المخيفة، رغم كل ذلك تمكن البحارة من بلوغ بلاد «الأوستريمانيين Oestrymnides » الغنية بالقصدير والرصاص، ولقد نوقشت مطولاً عمليات التجارة مع «الكاسيتريين Cassiterides » في الإغريقية Kassiteros » قصدير - فبعض الفرضيات حاولت مطابقة «جزر القصدير» مع مجموعة الجزر الصغيرة المبعثرة في الشمال الغربي من إسبانيا، بين «فيغو Vigo » و«رأس فينستر Finisterre »، أو اعتبارها إلى الشمال أيضاً في المياه البريطانية ومطابقتها مع أرخبيل «سورلانغ Sorlingues » [جزر شيلي Scilly] في عرض رأس «لاندز إند Lands End »، أو أيضاً، في جزيرة «آرموريك Armorique » في خليج مغطى الآن بالطمي كان يقع أمام مصب نهر «اللوار». غير أن بإمكاننا أن نطرح المسألة بشكل مغاير، فحينما تحدث الكتاب القدماء عن «الكاسيتريين»، فربما كانوا يشيرون بهذا المصطلح إلى المراكز المعروفة بأنها أسواق معدن القصدير، وليس إلى تسمية جغرافية محددة - تلك الأسواق التي ربما كانت مستودعات للمنتجات المنجمية ولاتقع بالضرورة في مناطق المناجم ذاتها[٧٤].

لقد كتم القرطاجيون معرفتهم للطرق التي كانت تؤدي إلى جزر «الكاسيتريين» بهدف المحافظة على احتكار العمليات التجارية معها. وقد حاول الرومان خلال الحرب البونية الثانية الخروج من البحر المتوسط، حيث ظلوا حتى

تلك الفترة محصورين فيه وذلك بهدف الشروع في عمليات تجارية مشابهة. إلا أن «قرطاجة»، التي كانت قد فقدت اسبانيا وجميع جزر المتوسط، وبفضل شجاعة بحارتها ومقدرتهم ومعرفتهم التامة لتلك الطرق البحرية، استبسلت في الدفاع عما تبقى من امبراطوريتها العظيمة. يروي لنا «سترابون» قصة طريفة عن تلك المعركة الخفية التي كان هدفها المحافظة على «الإرث القديم»:

«كان سكان الجزر الكاسيترية، وهم يعيشون بشكل بدائي، يملكون مناجم قصدير ورصاص ويبادلون بذلك بعض المنتوجات، كما يبادلون جلود الحيوانات التي يربونها بالمصنوعات الفخارية والملح والمواد البرونزية. وسابقاً، كان الفينيقيون وحدهم يرسلون سفنهم لهذه التجارة انطلاقاً من «قادس»، وكانوا يكتمون بشكل تام معرفة الطرق المؤدية إليها. وذات يوم لحق بعض البحارة الرومان بإحدى تلك السفن لمعرفة تلك الطرق، إلا أن قائد السفينة الفينيقية، وكي يحافظ على سرية الطريق البحري، حوّل اتجاهها وجنح بها في المياه الضحلة كي يجر مطارديه إلى نفس المنطقة ويكبدهم نفس الخسارة، أما هو فتمكن من الخروج سليماً، وسددت الخزينة العامة ثمن سفينته» (11, 5, III).

كانت طرق الفضة والقصدير والذهب تتجه إلى الجنوب أيضاً. إذ قاد البحارة البونيون سفنهم على طول السواحل الأطلسية لأفريقيا. وقد وُجد على نقش كان يزين معبد «بعل حمّون» في قرطاجة (يقابله عند الإغريق «كرونوس»)، وُجد نص يحكي قصة الرحلة الطويلة التي قام بها «حنّون»، وبما أنه ليس بمقدورنا أن نتوصل إلى الأصل المكتوب باللغة البونية، فإن بين أيدينا ترجمته اليونانية[٣٥] التي تبدأ على هذا الشكل:

«قصة الرحلة التي قام بها ملك القرطاجيين «حنّون» حول الأقاليم الواقعة فيما وراء أعمدة هرقل، نُقشت على ألواح وعُلقت في معبد «كرونوس».

وتُعد هذه القصة إحدى أغرب القصص والمذكرات التاريخية التي كانت شائعة في العصور القديمة. إذ يوجد فيها أحياناً الكثير من المتناقضات. كما أن نقصان التوثيق والترجمة الإغريقية لم يوصلا لنا سوى القليل القليل من أصل القصة.

وأي محاولة لتفسير أسماء الأمكنة التي وردت فيها يجعل عملنا افتراضياً[٧٦]. وحينما نقرأ قصة هذه الرحلة، يمكننا أن نرى أن هدفها كان مزدوجاً:

«قرر القرطاجيون أن يقوم «حنّون» بالسفر إلى ماوراء أعمدة هرقل بهدف بناء مدن قرطاجية. فأقلع مع 60 سفينة خماسية المجاذيف، مصطحباً معه حوالي 30,000 رجلاً وامرأة، إضافة إلى المؤن وكل مايلزمه لهذه الرحلة. وبعدما تجاوزنا أعمدة هرقل، وأبحرنا طوال يومين كاملين، بنينا أول مدينة أسميناها «ثيميا تيريون Thymiaterion» وكانت هذه المدينة محاطة بسهلٍ واسعٍ. توجهنا بعد ذلك إلى الغرب، إلى أن وصلنا إلى «سولويس Soloeis» وهي نتوء صخري على الشاطيء، مغطى بالأشجار حيث بنينا عليه «معبداً» لـ«بوزيدون»، بعد ذلك، واصلنا الإبحار باتجاه مطلع الشمس، وبعد نصف يوم وصلنا إلى بحيرة شاطئية تقع على مقربة من البحر يغطيها البوص، وتمرح فيها الأفيال وكثيرٌ من الحيوانات الأخرى. وبعد تجاوزنا هذه البحيرة الشاطئية أبحرنا لمدة يومٍ كامل، وأسسنا على البحر مستوطنات أطلقنا عليها اسماء: «لـومير كاريان Mur Carrien»، «جيتي Gytte»، «مليتا Melitta»، و«آرامبيس Arambys».

وبعد أن غادرنا تلك الجهات وصلنا إلى نهر «ليكسوس Lixos» الكبير، القادم من ليبيا، وكان «الليكسيتيون Lexites» البدو يرعون قطعانهم على ضفافه. أقمنا معهم بعض الوقت وأصبحنا أصدقاء لهم. وفوق الماء، كان شعب «السود Ethiopiens»، وهم غير مضيافين، ويسكنون أرضاً مليئة بالوحوش المفترسة، تخترقها جبال عالية يخرج منها، كما قولون، نهر «ليكسوس». ويقولون أيضاً أن شعباً له صفات خاصة يعيش حول هذه الجبال، يطلقون عليه اسم «تروغلوديتيين Troglodytes»، ويضيف «الليكسيتيون» قائلين: أن أبناء هذا الشعب أكثر سرعة في عدوهم من الخيول، وبعد أن استمعنا إلى بعض الشروح منهم، واصلنا إبحارنا بمحاذاة الصحراء باتجاه الجنوب لمدة يومين، ثم بإتجاه مطلع الشمس طوال يومٍ واحد، فوجدنا في قلب أحد الخلجان جزيرة صغيرة يبلغ محيطها خمس غلوات، فأطلقنا عليها اسم «كِرنه Cerne» تركنا فيها بعض المستوطنين، وقدرنا أنها تقع،

حسب وجهة سفرنا، إزاء قرطاجة، لأن الوقت الذي استغرقناه للإبحار من قرطاجة إلى أعمدة هرقل يعادل الوقت الذي احتجناه من الأعمدة إلى «كِرنه».

كما رأينا، كان هدف المرحلة الأولى من الرحلة اصطحاب مهاجرين إلى الساحل المغربي وساقية الذهب، حيث أسس القرطاجيون قبل ذلك بعض المستوطنات. وهذه المستوطنات السبع التي أسست أو عُززت بطلائع المهاجرين الجدد، كانت تمتد على الساحل المغربي، بدءاً من وادي « لوكّوس» [ليكسوس كما ورد في الرحلة]، أي في السواحل الواقعة بعد «طنجة». وحسب تسميات المواقع الواردة في النص، حاولنا معرفة مختلف المراكز المعاصرة مثل: «لاراش» الجديدة [مازاغان سابقاً]، «صافي»، غير أن تحليلاتنا تبقى قائمة على التخمين. وبالمقابل، يمكن أن تكون جزيرة «كرنه» هي الجزيرة الواقعة في خليج «ساقية الذهب» الصغير المحمي بتنوء صخري طويل بُنيت فوقه «فيلا سيسنيروس Villa Cisneros» [الدَخْلة] ـ وكان يُشار إلى هذه الجزيرة في بعض البطاقات القديمة باسم «جزيرة هيرن Herne»، التي نزل فيها «حنّون» مصطحباً معه بعض الليكسيتيين، على بعد ألفي وثمانمائة كيلومتر إلى الجنوب من «قادس». غير أن القائد القرطاجي لم يكن ليبحر بشكل عشوائي، فمن الواضح أنه ومنذ انطلاقه كان يعرف إلى أين كانت سفنه تتجه، وفي جزيرة، «كِرنه» ـ حيث كان يوجد بلا شك مركز تجاري ـ ترك آخر المستوطنين الذين حملهم معه.

إن هذه القاعدة البعيدة التابعة لقرطاجة، كانت مكاناً ممتازاً لإقامة صلاتٍ مع الباحثين السود عن الذهب. فهذا المعدن النفيس كان يوجد في الحقيقة، ليس فقط في وادي نهر «النيجر»، بل أيضاً إلى الغرب منه، في وادي نهر «السنغال» وبالتحديد في مثلث منطقة «بامبوك Bambouk»[٣٣]. وكانت جزيرة «كِرنه» توجد إذن في المنفذ الطبيعي للذهب الغيني. إن هذا المركز كان الهدف الأول للرحلة ـ مع أننا نرى أن المقطع السابق قد أهمل ذكر السبب التجاري لوجود مستوطنة «كِرنه». وكان على «حنّون» بعد ذلك أن يواصل رحلته الاستكشافية بهدف التحضير لإنشاء مراكز تجارية في إقليم «السودان» وعلى مقربة من أماكن الإنتاج. وتتواصل الرحلة على هذا الشكل:

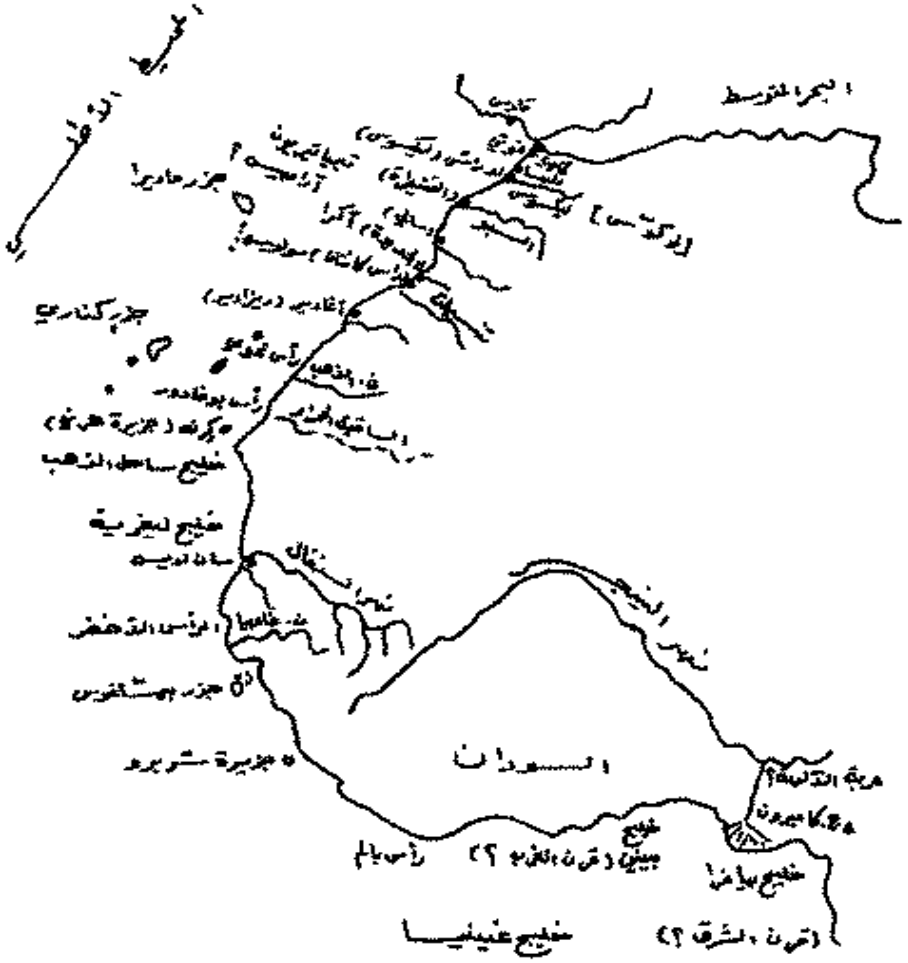

من الممكن أن تكون المراحل الأساسية لرحلة «حنّون» كالتالي :

1 ـ من «قادش» إلى «تيميا تيريون» [مصب وادي «السبو»، بالقرب من الموقع الحالي للقنيطرة].

2 ـ من «تيمياتيرون» إلى «سولوميس» [رأس كنتان] وإلى «ميركاريان» [صافي] العودة على مراحل إلى «جيتي» و«مليتا» في [إقليم «طنجة»]، وأخيراً توقف طويل في «ليكسوس» [لاراش] على الموقع الحالي لـ«وادي لوكوس».

3 ـ من «ليكسوس» إلى جزيرة «كرنه» [خليج ساحل الذهب].

4 ـ حملة استطلاع في جزيرة «كرنه» حتى داخل دلتا «نهر السنغال» ثم العودة إلى «كرنه».

5 ـ من «كرنه» إلى عرض خليج «غينيا» [حتى سواحل الكاميرون].

«من هنا، من «كِرنه»، مررنا بنهر كبير هو نهر «كريتس Chretes» فوصلنا إلى بحيرة يوجد في وسطها ثلاث جزر أكبر من «كِرنه». وانطلقنا من هذه الجزر لنصل، بعد إبحار يوم كامل، إلى وسط احدى البحيرات التي تشرف عليها جبال عظيمة تعج بالمتوحشين الذين يرتدون جلود الحيوانات، فأخذوا يرموننا بالحجارة ومنعونا من الرسو. من هناك، دخلنا في نهر آخر، كبير وعريض، مليء بالتماسيح وأفراس النهر، بعدها قفلنا عائدين إلى جزيرة «كِرنه».

إن هذه الرحلة الإستكشافية التي وصل فيها «حنّون» إلى مقربة من نهر السنغال «كريتس» لم تعطِ أية نتائج. لذا قرر القائد البوني، الذي عاد إلى قاعدة إتصاله المتقدمة، أن يواصل إبحاره إلى الجنوب. فبعد أن وصل إلى «الرأس الأخضر Cap vert» [وهو خاصرة الجبل المرتفع المغطى بالأشجار التي تحدث عنها النص] وبعد المنطقة الساحلية التي تشرف عليها القمة البركانية جبل «كاكوليما Kakoulima»، وصل البحارة البونيون إلى خليج «بينين Benin» [القرن الغربي Corne de L'Occident]، ثم شاهدوا من بعيد جبل «الكاميرون» [عربة الآلهة Char des Dieux]، وصلوا أخيراً إلى «القرن الجنوبي Corne du Sude» [من الممكن أن يكون خليج «بيافرا Biafra]. إن هذا القسم الأخير من الرحلة حدث في جو غريب جداً اقترنت فيه الأعاجيب بالخيال. ففي لقطاتٍ متلاحقة، يصور الكاتب المواقف الرئيسية التي تضمنتها هذه الرحلة الطويلة. إن رحلة «حنّون» القرطاجي هذه تروي لنا مغامراته في أفريقيا «بلاد المتوحشين».

«أبحرنا من هناك، من «كِرنه»، صوب الجنوب ولمدة اثني عشر يوماً بمحاذاة الشواطيء التي يسكن فيها «السود» الذين كانوا يختبئون عند وصولنا. وكانوا يتحدثون بلغةٍ غير مفهومة حتى بالنسبة لليكسيتيين الذين رافقونا. وفي آخر يومٍ اقتربنا من جبالٍ مرتفعةٍ مغطاة بأشجار ذات أخشابٍ ذكية الرائحة ومختلفة الألوان. وبعد أن قمنا بالإلتفاف حول هذه الجبال ولمدة يومين، وصلنا إلى خليج واسع في شاطئه الآخر سهل فسيح. رأينا هناك، في الليل، ناراً تشتعل في كل الجهات من وقت لآخر، وكانت هذه النار تشتد وتخمد من حين لآخر. وبعد أن تزودنا بالماء،

واصلنا إبحارنا بمحاذاة الشاطيء ولمدة خمسة أيام، وصلنا في نهايتها إلى خليج واسع كان مرافقونا يطلقون عليه اسم «القرن الغربي»، وتوجد في هذا الخليج جزيرة كبيرة فيها بحيرة تحتوي على جزيرة أخرى، وحين نزلنا فيها، لم نرَ أثناء النهار سوى غابة، أما في الليل فكنا نشاهد نيراناً كثيرة، كما سمعنا أصوات عزف الناي وضجيج الصنوج والطبول، تملكنا الخوف، فأمرنا العرّافون بترك الجزيرة.

نحن الآن بعيدون جداً عن المدينة الأم القوية التي خرج منها القاضي «حنّون» مع ثلاثين ألف بوني كانوا مهاجرين إلى شواطيء الأطلسي. إن وصولهم إلى نهاية العالم ـ حتى لو لم يقم القرطاجيون بتأسيس مراكز جديدة فيما وراء «كرنه» الواقعة على بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلومتر عن العاصمة ـ إن وصولهم إلى هذه النقطة يُمكِّننا من إدراك مدى الإتساع التي بلغته هذه الأمبراطورية البحرية التي أسهب المؤرخون القدامى في الحديث عنها. فالمؤرخ «بوليبيوس» [10, 1, 1] حين يستعرض الموقف عشية الحرب الأولى بين قرطاجة ومنافستها روما، يلاحظ أنه، وأمام الإتساع الهائل للهيمنة البونية وخصوصاً على البحر المتوسط، كان الرومان قد باتوا يخشون أن تلجأ جارتهم الخطيرة التي تسيطر على الساحل الأفريقي وجزء واسع من اسبانيا وكافة جزر بحر سردينيا والبحر التيراني، أن تلجأ إلى تطويقهم بغية تهديد الأراضي الإيطالية ذاتها. أما المؤرخ «آبيان» فقد كان يقارن امبراطورية قرطاجة بأشهر الأمبراطوريات التي كانت موجودة في العصور القديمة فيقول:

«تمكن القرطاجيون الأقوياء، في البداية، من فرض سيطرتهم على ليبيا. ثم مدّوا امبراطوريتهم بعيداً في البحار، وحملوا أسلحتهم في صقلية وسردينيا وباقي جزر البحر وفي اسبانيا، وأسسوا مستوطناتهم في كل مكان. إنهم يوازون بقوتهم الإغريق، وبثرواتهم يوازون الفرس» [Libyca, 2].

الفصل الخامس

الآلهـــة

[إلى الربة «تعنيت» وجه «بعل» والإله «بعل حمّون»]

إذا كان من الصعب علينا أن نغوص في موضوع المؤسسات السياسية في قرطاجة، فإن مسعانا سيكون أكثر صعوبة حينما نحاول الإحاطة بمختلف نواحي الحياة الدينية للشعوب البونية. إن المشكلة الأساسية، في الحقيقة، تنتج عن المصادر التي يمكن الإعتماد عليها، إذ أنها مختلفة وهامة بشكلٍ واضح، كما أنها لاتحمل سوى اشارات متباينة ومحدودة، عدا عن أن تفسيرها يبقى افتراضياً.

وأول هذه المشاكل هي قلة المعابد البونية التي نستطيع أن ندرس آثارها بدقة، إذ أن عددها لايتجاوز الإثني عشر معبداً، موزعة في أرجاء العالم القرطاجي في البحر المتوسط. كما أن هذه المعابد، من جهة أخرى، ومن وجهة نظر تاريخية تصنيفية، متباعدة بشكل شاسع بحيث يكون من المتعذر تقديم دراسة إجمالية تحيط بما كانت تتميز به هندسة البناء الدينية.

أما فيما يخص النقوش، فإن علينا أن نشير إلى الكتابات التي تتعلق ببناء وترميم المعابد، وكذلك إلى آلاف النذور التي أقيمت لمجد الآلهة. كما يجدر بنا أن

نشير أيضاً إلى الفائدة التي يمكن أن تقدمها لموضوعنا الأسماء المركبة مع أسماء الآلهة، ولهذا دلالات في التسميات السامية، إذ أن لها مفهوم «الإرتباط» والأبوة، أو أيضاً، التواصل المستمر بين الآلهة والناس. ومن بين هذه الأسماء: «عبد إشمون»، «عبد ملقارت» [اشتق منها «هاملقارت» أي «خادم ملقارت»]، «أمة بعل»، خيملك» [أخو الملك]، «خوتالآت» [أخت اللات]، «هانيبعل» [الذي يحظى بعناية «بعل»]، «هاسدروبعل» [الذي يعينه «بعل»]، «إشمون حنّو» [«إشمون يرعاه»]، «إشمون ناماس» [الذي يقوده «إشمون»].

أخيراً، يمكننا الاعتماد على المراجع الأدبية الكلاسيكية، للإحاطة بموضوع الآلهة البونية، ففيها توجد بعض الإشارات عن مجمع الآلهة (البانثيون) البوني. ومع ذلك، لم يكن بمقدور الكتاب الإغريق والرومان الحديث إلا عن جهلٍ في دينٍ لايعلمون عنه سوى بعض مظاهرة الخارجية، إضافة إلى كونه غريباً في أصوله وفي تطوره، كما أنهم، في حديثهم عن آلهة قرطاجة اعتادوا الإشارة إليها بأسماء شائعة في لغاتهم الأصلية. وإنتقال هذه الأسماء مترجمة إلى الإغريقية أو اللاتينية، ينتج عما سبق أن أسماء آلهة قرطاجة قد تطابقت مع أسماء آلهة «الأولمبوس» أو روما، فأصبح «بعل حمّون» يسمى «كرونوس ـ ساتورنوس Kronos- Saturne» والسبب في هذا أن الإله القرطاجي كانت تقدم له قرابين من الأطفال، ولأن الإله الإغريقي، كما تحكي الإسطورة، إلتهم ذريته. (ديودور، XX, 14, 7).

علينا، مع ذلك، الإعتراف أن القرطاجيين أنفسهم مارسوا أحياناً بعض عمليات الترجمة التي تحدثنا عنها، ومثلنا على ذلك، اليمين الذي ختم به «هانيبعل»، في عام 215 ق. م، نص المعاهدة مع «اكزينوفانس Xenophanes» سفير «فيليب الخامس» المقدوني. فالآلهة التي ابتهل إليها في تلك المناسبة، باسم الدولة القرطاجية، كانت جميعها بونية، بيد أن الوثيقة الدبلوماسية تُرجمت إلى الإغريقية من قبل مترجمين قرطاجيين، وبما أن هؤلاء كانوا يعرفون تماماً آلهتهم الخاصة المذكورة في النص الأصلي، فقد قاموا بإجراء مطابقة مع مايقابلها مع البانثيون الإغريقي. وهاكم نص اليمين:

«أمـام «زيـوس» و«هيرا» و«أبولـون»، أمام حـامي القـرطـاجيين، وأمـام «هيراكلس»، و«أيولاوس» أيضـاً، أمام «آرس» و«تريتون» و«بوسيدون»، أمام الآلهة التي تواكب الجيش في الحروب، أمام آلهة الشمس والقمر والأرض أيضاً، أمام آلهة الأنهـار والبحيـرات والماء، أمام جميع الآلهة الذين يحمون قرطاجة [. . .]، هكذا قال «هـانيبعـل» قائـد الجيـوش، وقـال ذلـك معه جميع شيوخ قرطاجة والقرطاجيين أجمع [. . .] . «. (بوليبيوس 9, 3, VII) .

إن هذه الـوثيقـة تطـرح العـديـد من المشـاكل، أما نحن، من جهتنا، فنبقى أسـرى التخمينـات حينمـا نحـاول أن نجد تأويلاً مالها . «فالثلاثي» الأول «زيوس، هيـرا، أبولـون» يمكن أن يتطابق مع «بعل شمين» [رب السموات Dominus Caeli] مثلمـا أشار القـديس أوغسطين، ومـع «تعنيت» إلهـة قرطـاجـة الكبـرى، و«رشف» [المضيء] إله النار والصواعق .

وإذا كان علينـا أن ننتبه إلى لعبـة المقـارنـات المـوجودة في النصوص الأدبية الكـلاسيكيـة، فإن بإمكـاننـا أن نلاحـظ، رغم ذلـك، أن أسماء الآلهة الإغريقية أو الرومانية ليست بالضرورة نقلاً يراد به الإشارة إلى آلهة العالم الفينيقي البوني، إذ أن هذا العالم ينفتح على العديد من الآلهة الأسطورية الغريبة . فالقرطاجيون بإتصالهم مع مصر وإفريقيا وأترووريا واليونان، ومع صقلية بشكل خاص التي يبدو أنها لعبت دور إقليم الإختبـار أو الـوسيـط بالنسبة للآلهة، لم يكن بمقدورهم إلا أن يتأثروا بهؤلاء الجيران، وأن يحاولوا هم أيضاً استمالة عطف القوى العلوية أو السفلية الشهيرة منها بشكل خاص .

لقـد كانت أسطـورة «إيـزيس» و«أوزيـريس» مثالاً بارزاً على العلاقات الدينية التي كانت قائمة بين مصر وفينيقيا، ففي قرطاجة نفسها، استخرج من مدافنها العديد من الجعلان التي ترمز للآلهة المصرية كانت تستخدم كطلاسم[٢٩]، كما نلمس في التمائم المكتشفة وجود عناصر ترجع إلى الإرث الديني للدلتا ووادي النيل .

كما كان تأثير اليونان، من جانبها، قوياً، بسبب انتشار عبادة الإلهة «كور Kore» [بيـرزيفـون]، والإلهـة «ديمتـر Demetre» . فلقد اعتمدت طقوس هاتين الإلهتين

رسمياً في عام 396 ق. م، حينما شدد القرطاجيون الحصار على مدينة «سيراكوز» وحدثت كارثة كان سببها، دون شك، انتشار وباء أهلك قسماً من جيوش القائد «هيملكون»، وكان الجنود قد نهبوا معبدين للإلهتين الإغريقيتين أمام أسوار المدينة المحاصرة. فاعتقد القرطاجيون أن سبب مصيبتهم يعود إلى الغضب الإلهي وقرروا إصلاح مادنسّوه. يقول «ديودور»: «حتى تلك اللحظة، لم يكن القرطاجيون يؤمنون بهاتين الإلهتين، إلا أنهم، بعدما حدث، طالبوا من خيرة مواطنيهم أن يصبحوا كهنة «كور» و«ديمتر» ورسموهم في المدينة باحتفال عظيم» [5, 77, XIV] .

وإذا كان العالم البوني قد تطور بنتيجة بعض العوامل التاريخية، فقد لايحق لنا أن نتحدث عن حدوث ثورة في هذا المجال. وإذا كانت النُصب المكتشفة في «سالامبو» تمثل على الأغلب مواضيع شائعة جداً في العالم البوني الإغريقي مثل «صولجان هرمس» و«الباطيات» و«رموز باخوسية [خمرية]» أخرى، فهذا لايعني سيادة المفاهيم الهلينية على المعتقدات والشعائر القرطاجية. إن سبب انتشار هذه الرموز عائدٌ في حقيقة الأمر إلى الأصول الأولى للإرث الفينيقي البوني. أما فيما يخص الآلهة القليلة الأجنبية التي شاعت عبادتها في المدينة، فمن المحتمل جداً أنها خضعت هي أيضاً إلى عملية «نقل بونية»، وعلى أية حال، كانت العقائد الشعبية تجهلها تماماً. وخلاصة القول، أن الدين القرطاجي، الذي لم يكن أبداً واقعاً تحت سيطرة آلهة مهاجرة من مكان آخر، يمثل كلاً مركباً، ولكنه متماسك جداً.

لقد واصل البونيون تقديس الآلهة الفينيقية. إذ شُيد معبد للإله «أشمون» في أكروبول مدينة «بيرسا»، كما كان يوجد الكثير من مواطني قرطاجة الذين كانت أسماؤهم تؤكد المحبة الشعبية لهذا الإله ـ الذي يماثل «اسكالوب» ـ، كما أن «ملقارت» [رب المدينة] كان مقدساً ومشهوراً أيضاً، وهو يماثل «هرقل». وقد بقي القرطاجيون ولعدة قرون يرسلون كل عام سفراء لتقديم الهدايا إلى رب «صور» الأكبر، وبنوا لمجد هذا الإله معابد انتشرت في «قادس» وحتى «ليكسوس»، وكان البانثيون البوني يضم آلهة أخرى، مثل: «عشتارت»، «رِشف»، «صيد» [الذي يماثل أحياناً «تعنيت»، أو «ملقارت»][٣٠]، «أريش Arish»، «حنّون». ولكن لم يكن

أيْ منهم يحظى بالتبجيل أكثر من الربة «تعنيت» والإله «بعل شمون» ، إذ يرد اسماهما على آلاف النصب[80] المقامة من الأحجار الجيرية المكتشفة في قرطاجة وأراضيها البونية . وكانت هذه النصب ، وهي عبارة عن أعمدة لا قاعدة لها ولا تاج ، في معظمها تنتصب فوق مرامد تحتوي على بقايا الضحايا المحترقة ، وتضم أيضاً مسكناً صغيراً خُصص للإله .

إن هذه النقوش التي تتبع نموذجاً مفتقراً للأصالة ، كانت عبارة عن تكريس لهذين الإلهين العظيمين ، إضافة إلى اسم صاحب النذر وأسماء أسلافه ، وكانت توجد أحياناً إشارة إلى مهنته ، وتختتم في الغالب بدعاء لطلب البركة . ولدينا هنا نموذجان ، الأول استخرج من «هادروميت» [سوسة] ، والثاني من «سالامبو» :

قرطاجة : نصبٌ من «توفيت» «سلامبو» يمثل رمز «تعنيت» يعلوه الهلال المقلوب ، وفي لوحة الجبهة المثلثة يوجد نقش على شكل وردة (القرن الرابع ق . م) ، عمودٌ نذري (مدافن «درمش») يمثل ثلاثة نصبٍ - ركائز على معبد (القرن السادس ق . م)

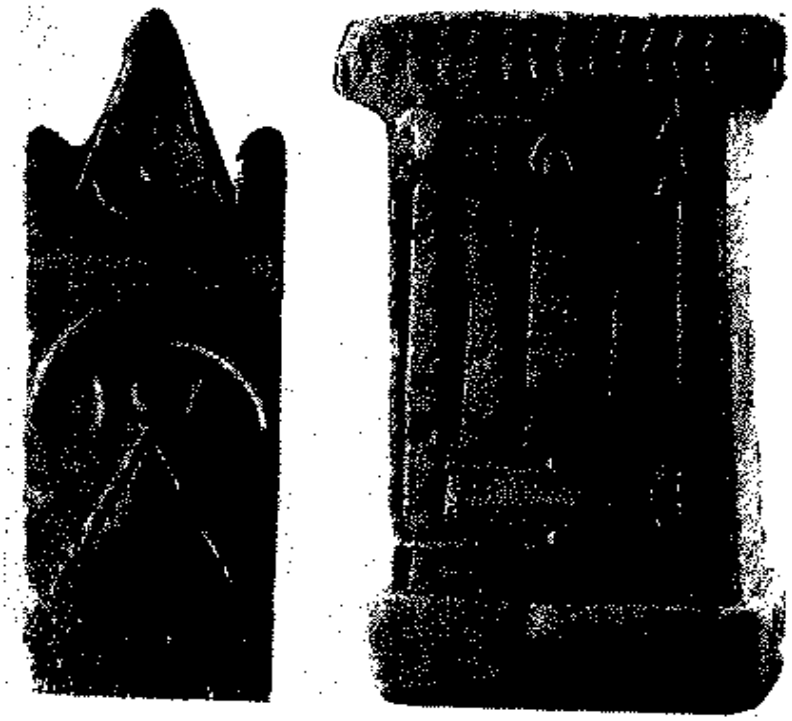

«إلى الربة «تعنيت» وجه الإله «بعل حمّون»، هذا مانذره «بود ملقارت» بن «زركش» بن «آشال»، ولأنهم سمعوا صوته فلتحل عليه بركاتهم». «إلى الربة «تعنيت» وجه الإله «بعل حمّون» مانذرته «أريشات بعل» ابنة «قرقين Qrqyn» لأنه سمع صوته، فلتحل عليها بركته»[٨١].

لم يكن أي من آلهة فينيقيا يحمل اسم «تعنيت» التي كانت عبادتها قد ارتقت في بداية القرن الرابع ق. م، وفي أواخر حكم العائلة «الماغونية»[٨٢]. ومع ذلك، لايوجد أي سبب، كما يفترض البعض، لأن نُرجع أصول الربة «تعنيت» القرطاجية إلى ليبيا. وإذا كنا لانزال نجهل المكان الذي ابتدأت منه، فإننا على الأقل نعرف أنها تقلدت جميع مهام الربة الكنعانية «عشتار»، إلهة الخصوبة، كما كانت مماثلة لـ«هيرا» التي لعبت دوراً شبيهاً في إيطاليا الجنوبية، كما اعتبرها الرومان مثيلة لـ«جونون ـ كايليستيس Junon- Caelestis» ربة المستعمرة القرطاجية التي نظمها «كايوس كراكشوس Caius Craechus».

كانت «تعنيت» في البداية تمثل «الأم» مانحة الخصوبة، إذ اكتشف في منطقة «الحفرة» [قرب «قسنطينة»] نُصبٌ نقرأ عليه: «إلى بعل وتعنيت وذريتهما»، وهذا يفسر، دون شك، سبب الإحترام البالغ الذي كانت تلقاه الربة «تعنيت» في جميع الأوساط الإجتماعية في قرطاجة.

أما بالنسبة للإشارة التي تقول «إلى تعنيت»، والتي مُثلت بنصب أحادي أو ثلاثي واسطوانة تستند إلى هلال و«قارورة مقدسة»، وكانت تحتوي على أحد العناصر الشائعة جداً في رسوم الأعمدة والنصب القرطاجية[٨٣]، «فقد لايكون لها أية علاقة خاصة مع الربة المذكورة. لقد شُكل هذا التركيب الهندسي من ثلاثة عناصر: مربع منحرف أو مثلث متساوي الساقين وأسطوانة يفصلهما حاجز أفقي ينتهي طرفاه غالباً بفرعين يتجهان بشكل عمودي. إن هذه الصورة بشكلها التام تجعلنا نفكر فوراً بامرأة ترتدي ثوباً طويلاً، وهي ترفع ذراعيها[٨٤]». هل بإمكاننا أن نفهم من هذا الشعار الأيقوني ـ، وحتى من صور الإسطوانة والهلال ـ رموزاً لعقيدة شمسية؟[٨٥] ألا يمكن أن تكون هذه الرموز مجرد نقوش وثنية؟ لقد كان الفينيقيون ينقشون هذه الرموز

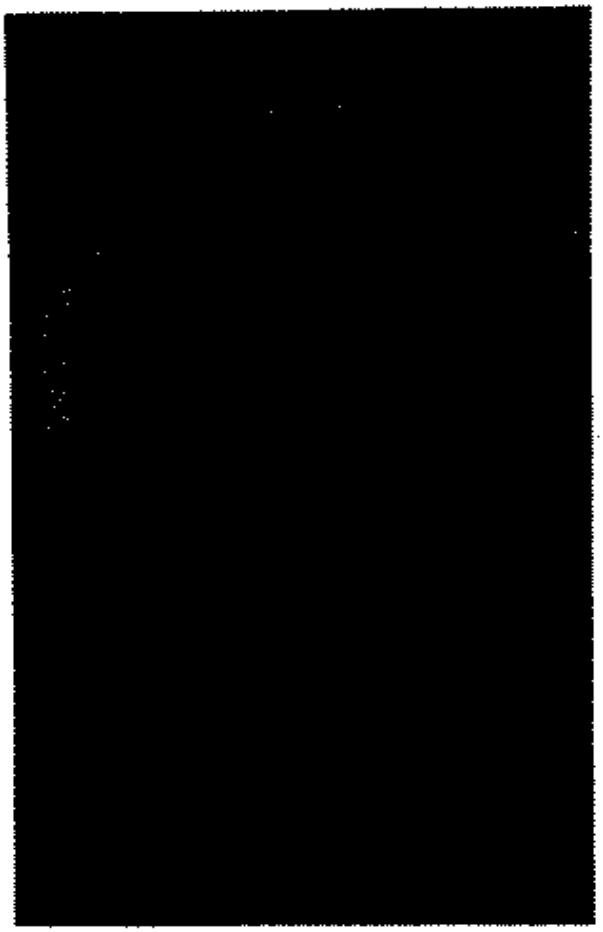

«بعل سوسه» في معبده (حوالي القرن الرابع ق.م)

على عتبات بيوتهم لإيمانهم بقدرتها على حمايتهم). ورغم ذلك، فإن هذه المسألة لازالت موضع نقاش، فمع أنها استخدمت كطلسم سحري، فلا شيء يمنعنا من القول أن إشارة «تعنيت» في الرمز الديني كانت عبارة عن فِكرة ترجمت المفهوم القرطاجي للربة العليا في علاقاتها مع العالم لتوضح الميزات العلوية والسفلية لمثل تلك الرموز.

كان «بعل حمّون» أعظم آلهة قرطاجة، بل هو أسمى تلك الآلهة. ولجأ القرطاجيون، مثل كافة الشعوب السامية، ولكي يتحاشوا الإشارة بشكل مباشر إلى الإله «إيل» باسمه الذي يحمل قوة هائلة، لجأوا إلى تلك التسمية «بعل حمّون»، إن أول كلمة من هذا الاسم تعني «السيد»، أما المقطع الثاني، ونظراً لصعوبة تحديد

أصل جذره، فيمكن أن يعني «هيكل العطر» (بالعبرية التوراتية يرد اسمه «حمّان»)، وربما كان يعني «الحرارة» أو «الجمر ـ النار»، وبهذا يكون «بعل حمّون» هو «سيد النار»[٨٧]. وهذه «النار» ربما كانت تعني نار الحفرة الخاصة بالقرابين حيث كانت تُلقى الضحايا، وربما كانت تشير إلى «الشمس» المتأججة التي كانت صورتها منقوشة على شكل إسطوانة إلى جانب صورة الهلال. وفي هذا تأكيد آخر على الطابع الفلكي لهذه الديانة.

ومما يجدر ذكره أن الفينيقيين، مثلهم مثل بقية الشعوب السامية، كانوا يمارسون طقوس ديانة موَحدة دون أن يروا ضرورة للتخلي عما يدل على تعدد الآلهة. وفي المنظور الديني والطقسي، اعتبرت الآلهة الفينيقية البونية بمثابة رموز، انعكاسات أو تجليات لرب السماوات (وتشبه في ذلك الـ «Numina» أو أيضاً «Indigitamenta» في الديانة الرومانية)، وعليه فإن عبارة «وجه بعل» كانت تعني أن تلك الربة هي انعكاس للإله.

بهذا الشكل كان «بعل حمّون» يظهر في الرموز المصورة التي وصلت إلى أيدينا[٨٨]. وخصوصاً على النصب الخاص الشهير الذي اكتشف في بناء معبد «هادروميت» [سوسة] البوني، والذي يرجع إلى القرن الرابع أو الثالث ق.م[٨٩]، وفيه تظهر رسوم تمثل شخصاً متعبداً، أمرداً ـ ربما كان أحد الكهنة ـ يضع على رأسه قبعة كانت قمتها ترجع إلى الخلف، ينتصب واقفاً، وذراعه اليسرى تلتصق بجسده على ثنيات ردائه، رافعاً يده اليمنى المفتوحة إلى محاذاة وجهه كتعبير عن الخضوع التام للإله. أما ذلك الإله فكان ذا لحية طويلة وعلى رأسه قلنسوة ذات شرائط، يجلس فوق عرش ذي مسندٍ مرتفع، وقد حُفِرت على كل متكأ صورة «سفنكس Sphinx»*، ممسكاً بيده اليسرى سنبلة قمح لها ساقٌ تشبه عصا الرمح، ويرفع يده اليمنى ويدير كفها ناحية المتعبد في إشارة إلى مباركته، فمن أجل الحصول على بركة «بعل حمّون» كان المؤمنون يضحّون بأغلى مالديهم.

---

* سفنكس: كائن خرافي له جسد أسد، وأجنحة، ورأس امرأة وصدرها. ـ المترجم ـ.

مولوك «مولوخ» وتوفت(*)

أشرنا إلى أن النصوص الأدبية الكلاسيكية والوثائق المنقوشة قد ذكرت بعض المعابد التي بُنيت لمجد آلهة قرطاجة. وبالمقابل، فإن الآثار التي كشف عنها في التنقيبات كانت قليلة العدد. كما أن التغيرات وتوضع طبقاتٍ أبنية جديدة تعود إلى فترة الحكم الروماني تجعل أية محاولة لإنشاء مخطط أولي عملاً يقوم على التخمين.

لقد تمكن العلماء، في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى، من دراسة آثار معبدين صغيرين يقعان في محيط مدينة «قرطاجة» وفيما بعد، في عام 1966، تمت عمليات تنقيب في منطقة «رأس الدريك»، في نتوء صخري يمتد حتى الطرف الشرقي «للرأس الطيب» وقد سمحت هذه التنقيبات باكتشاف أساسات معبد على مقربة من احدى القلاع التي تعود إلى القرن الخامس ق.م، ويبلغ طول هذه الأساسات أحد عشر متراً وعرضها ثمانية أمتار، وهي مبنية فوق الصخور مباشرة وبشكل يشرف على البحر، كما تمكن علماء الآثار، بفضل العمليات المتواصلة في مناطق مختلفة من حوض البحر المتوسط، أن يكتشفوا أطلال أبنية دينية بونية أخرى، مثل تلك الموجودة في «تاسيلغ Tassilg» في جزيرة «مالطا» حيث انتشرت عبادة الربة «عشتار»، وكذلك في جزيرة «صقلية» في مواقع مدن «موتيي» و«سيلينونتي»

---

* لفظة «ملك» بالأصل مشتركة في مايدعى باللغات السامية، إلا أنها بهذه الصيغة «مولوك/ مولوخ» اتخذت مدلول الألوهية. لذا فإن الأضحيات من نوع «مولوك» موضوع هذه الفقرة تتميز بكونها أضحيات إلهية على أعلى المستويات.

أما كلمة «توفت»، فأصلها غير واضح، ولكن قُصد بها بشكل عام مكان التضحية وبشكل أدق «المحرقة». وقد ذكرت في عدة أماكن من النصوص التوراتية تشير إلى أن العبرانيين كانوا قد استخدموها. ولايستبعد كما يرى البعض أن تكون مأخوذة عن الآرامية القديمة.

المحقق

وفي إقليم «بالرمو» أيضاً، وفي جزيرة «سردينيا» في مواقع مدن «كاغلياري» و«نورا» حيث يبدو أنه كان يُعبد فيها الإله «اشمون ـ اسكالوب»، وفي رأس «سان ماركو» قرب «ثارّوس Tharros» التي كان معبدها القديم مؤلفاً من ثلاثة أقسام متتالية: رواق ـ قاعة وسطى ـ وقاعة ذات هيكل. وفي موقع «آتاس» حيث وجدت نقوش تذكر الإله «صيد»، وأخيراً فوق أعلى نقطة من جبل «مونتي سيري Monte Sirai» التي كان يوجد فيها معبد ربما ارتقى إلى القرن السادس ق.م، ويشير مخططه الثلاثي إلى الميزة الأساسية لفن البناء الديني الفينيقي.

إذا أخذنا بعين الإعتبار هذه الآثار القليلة التي وصلت إلينا، فمن الصعب علينا تصور الثراء الهائل الذي كانت تحويه بعض تلك المعابد. يذكر «أبيان» أن «سيبيون»، وقبل يومين من سقوط قرطاجة، شن هجوماً بأربعة آلاف رجل لإقتحام معبد «أبولون» [ربما يقصد هنا الإله الفينيقي «رِشف»]، ويضيف المؤرخ الإغريقي: «وفور دخولهم إلى المعبد، قاموا بتجريد تمثال «أبولون» من أغطيته الذهبية، كما جرّدوا بيت الجسد الذي كان يحوي التمثال من أوراقه الذهبية التي تزن ألف تالان» [Libyca, 127].

كان رجال الدين الذين يقومون بتلك المهمة كثيري العدد. وتشير شواهد القبور والنذور البونية إلى هؤلاء الكهنة، كما يشار في مواضع أخرى كثيرة إلى كاهنات، وتشير النقوش في بعض الحالات إلى المسؤولية التي كان يتحملها رجال الدين مثل كهنة «بعل شمون»، كاهنات «ريتنا»، وتذكر تلك النقوش أيضاً بعض مراتب التسلسل الديني، مثل «رئيس الكهنة» أو «الكاهن الأكبر» ـ ويمكن للمرأة إن كانت زوجة الكاهن الأكبر أن تحمل هذا اللقب ـ و«الكاهن الثاني». لقد كانت البنى الكهنوتية منظمة بشكلٍ جيد، واستأثرت العائلات الكبيرة أحياناً بالمناصب الدينية أو كانت هذه المناصب تنقل كحقٍ وراثي من الكهنة إلى أولادهم. ومع ذلك، لاشيء يدل على أن جماعة الكهنة قد شكلوا، رغم الإمتيازات الكثيرة التي تمتعوا بها، طبقة مغلقة ضمن جهاز الدولة. لقد كان الكهنة والكاهنات يعيلون أسرهم ويشاركون في

حياة المدينة العامة، غير أن وظائفهم لم تكن تخولهم أية امتيازات في مجال العمل السياسي.

كان الكهنة يرتدون ملابس كهنوتية مؤلفة من قبعة عالية اسطوانية الشكل تشبه الطربوش ورداء طويلاً من الكتان، ويضعون في بعض الأحيان شالاً مزركشاً على الكتف الأيسر. وكانت مهمة هؤلاء الكهنة هي الإهتمام بإقامة الشعائر الدينية ومراقبة تنفيذها في أدق تفاصيلها، وكان يساعدهم في تنفيذ أعمالهم أشخاص متفرغون مهمتهم القيام بعددٍ من الوظائف، كمنشدين وصنّاجين وموكلين بالشمعدانات وقصابين. وكان الكهنة يكسبون قوتهم مما يجنونه من الهيكل إذ كانوا يأخذون قسماً كبيراً من «التعريفات القربانية» التي ورد العديد منها في النقوش البونية. وكانت هذه التعريفات مكرّسة للقرابين المقدمة وبحسب طبيعة كل واحد منها، كما نرى في المثال التالي:

«إذا كان العجل قربان تكفير أو تقرّب أو مَحرقه، فللكهنة عشر[مثاقيل] فضة على كل ثور. وبالنسبة للقرابين التكفيرية يحق لهم فوق ذلك أن يتقاضوا ثلاثمائة [مثقال] من اللحم. أما في القرابين التي تُبذل تقرباً من الآلهة فيحق لهم أن يأخذوا الصدر والفخذ [الأيمن]. أما الجلد والأضلاع [؟] والأرجل وماتبقى من اللحم فهي لصاحب القربان». كانت تعريفة «مرسيليا Marseille» ، هذه معلقة في معبد «بعل صُفُون». كما توجد تفصيلات أخرى تتناول أتعاب الكهنة من مختلف أنواع الحيوانات الداجنة أو البرية مثل «الأيل، الرِشاء، الطيور». وتذكر هذه «التعريفة» أيضاً «البواكير المقدسة» لبعض الهدايا مثل: الطحين، الزيت، الحليب، الفطائر...» أما إذا فرض الكهنة أتاوات أخرى على المُضحّين، فإن الوثيقة تتابع: «إن كل كاهن يجبي ضريبة أخرى [؟] غير تلك المثبتة في اللوحة ستفرض عليه ضريبة».

وإضافة إلى هذه التقدمات القربانية ـ المَحْرقَة وفيها يتم حرق الأضحية بالنار بشكل تام، وأضحية التقرب التي يبتغي المُضحي بها «الالتصاق» بالإله بأن يأخذ قسماً منها، والأضحية التكفيرية التي يحق للكاهن وحده أن يأخذ قسماً منها،

والنذور وأضاحي النبوءات ـ إضافة إلى هذا، كان على الكهنة أيضاً أن يمارسوا شعائر «مولوك»، التي كانت تتضمن طقوس حرقٍ رهيبة، غير أن هذه الشعائر لم ترد أبداً في أي من النصوص والآثار البونية.

لقد كانت عادة التضحية بالأطفال موروثة عن «صور»، وكان النبي «إرميا» يوبخ العبرانيين لأنهم، هم أيضاً، كانوا «يبنون المرتفعات للبعل التي في وادي بن هِنّوم ليجيزوا بنيهم وبناتهم في النار لمولَكَ» [إرميا، 35,32]. لقد كان تقديم القرابين البشرية عادة شائعة في العصور القديمة، غير أن خصوصية «مولوك» تعود لكونها تتعلق بشعائر قربانية خاصة بعبادة «بعل حمّون». والسؤال الذي يواجهنا هو: لم كان الفينيقيون والبونيون يقدمون مثل تلك الأضاحي؟ ألأنهم اعتقدا أنهم بعملهم هذا يعيدون الحيوية للآلهة المنهكة؟ إن أي افتراض في هذا المجال يبقى مثار نقاش، لذا علينا أن نحترس من إطلاق التعميمات، ولكن من المؤكد على الأقل أن المؤمنين كانوا يضحون «بأفضل أولادهم» ـ مع أن النصوص لم تأتِ على ذكر أول

قرطاجة: نصبٌ من «توفيت» «سلامبو» (تفصيل) يمثل كاهناً يمسك بين ذراعيه طفلاً مذبوراً كقربان لـ«مولوك» (القرن الخامس أو الرابع ق.م)

المواليد من الذكور ـ وينتظرون لقاء ذلك أن ينالوا حظوة استثنائية توازي العمل العظيم الذي أدوه للآلهة. غير أنه لم يرد في أي من النصوص مايفيد أن طقوس «مولوك» كانت اجبارية أو أنها كانت بمثابة عُرف كي نستخلص أن الأسر كان عليها أن تضحي بشكلٍ منتظم بواحدٍ من أبنائها»[٩٠].

يحكي لنا نصٌ لـ «ديودور الصقلي» عن قربان من هذا النوع. ففي عام 310 ق.م، وخلال الحرب التي شنها «آغاثوكلس»، نسب القرطاجيون المشدوهون من رؤية فرق الغازي السيراكوزي تهدد عاصمتهم، نسبوا مايحدث إلى عصيانهم للإله «كرونوس ـ بعل حمّون» : «كانوا يظنون أن «كرونوس» يعاديهم، فأخذ أولئك الذين ضحوا في وقتٍ سابق بأفضل أبنائهم، أخذوا بشراء الأطفال سراً، وشرعوا بتغذيتهم ومن ثم أرسلوهم للتضحية. وبعد التحقق من هذا الأمر، أكتشف أن بعض الأطفال الذين ضُحي بهم كانوا بدلاء عن أطفال آخرين، لكن القرطاجيين، الذين شاهدوا العدو يخيم على مقربة من أسوار مدينتهم، تملكهم خوف شديد، إذ ظنوا أنهم بعملهم هذا كانوا يخالفون التقاليد الرفيعة المتوجبة للآلهة. فأرادوا أن يكفروا عن خطيئتهم، فأختاروا مئتي طفل من بين أفضل أطفال المدينة وضحّوا بهم باسم الدولة، أما الأطفال الذي جيء بهم إلى العملية المذكورة سابق»، وعددهم ثلاثمائة، فقد استسلموا للأمر وحدهم. وكان يوجد في قرطاجة تمثال برونزي لـ«كرونوس» مادأ يديه بشكل منحني نحو الأرض، وراحة كفيه إلى الأعلى، بحيث كان الطفل الذي يوضع فيها يدور ليسقط في حفرة مليئة بالنار» [4, 14, XX] .

لقد أشار كتابٌ آخرون مثل «بلوتاركوس» و«تيرتوليان Tertullien» إضافة إلى العديد من الإشارات الموجودة على النقوش البونية إلى عمليات أخرى لتقديم قرابين بشرية بالنيابة، وحملت لنا بعض الإيضاحات عن الإجراءات المتبعة في تنفيذ هذه الطقوس الدموية التي كانت، على مايبدو، تتم ليلاً. فلقد كان عازفوا الناي وقارعوا الطبول يجلسون أمام الحفرة، وكان على آباء الأطفال (الذين سيضحى بأبنائهم) أن يحافظوا على رباطة جأشهم ويمتنعوا عن البكاء، إذ أن البكاء والدموع لايليقان برفعة الطقوس الهادفة إلى تقديم أُعطية كاملة إلى الإله. وعلى الأم، هي أيضاً، أن

تداعب طفلها بحيث لايُصدر أي نحيب، وفي اللحظة الموعودة، تقوم بتسليمه إلى أحد الكهنة الذي يرتدي كامل حلته، فيحمله بين ذراعيه، كما يوضح لنا نُصب اكتشف في قرطاجة يمثل هذا القربان، وبدون شك، كان يتم ذبح الضحية أولاً وفق طقوس سريةٍ كانت سائدة قبل ذلك عند الفينيقيين، ويوضع الجسد بعد ذلك على يدي التمثال ليدور ويسقط في الأتون.

وبدءاً من القرن السادس ق.م، حدث تطور في إقامة هذه الشعائر، حتى توصل القرطاجيون في أواخر عهدهم إلى تبديل عقيدة «المولوك» بعقيدة تقوم على القرابين البديلة ـ مثل التضحية بحَمَل Molchomor ، أو كانوا يلجؤون إلى حيلة حقيقية بتقديمهم «أجنة مجهضة»، ولكن الطريقة القديمة لم تتلاشَ، إذ تورد المكتشفات الأثرية أدلة على استمرار تلك الطقوس حتى سقوط العاصمة البونية، ويذكر بعض الكتاب أنها استمرت سراً خلال فترة الحكم الروماني، وبالنسبة لقرطاجة التي تمكنت من نشر حضارة نيّرة خاصة بها، فإن مثل لتلك الطقوس التي تبدو لنا أكثر همجية وإثارة كانت تتم وسط احتفالات تحرق فيها مئات الضحايا، وخصوصاً في أوقات النكبات الوطنية أو الهزائم الحربية حيث كانت السلطات تلجأ إلى «المولوك» التقليدي كما لو كان إحدى المؤسسات الحكومية. ومما تجدر الإشارة إليه أن الرومان، ورغم كل حقدهم على «هانيبعل»، فإنهم لم يتهموه أبداً بممارسة تلك الطقوس.

كان رماد الضحايا المقدمة إلى «بعل حمّون» و«تعنيت» يجمع في مرمدة توضع في غرفة واسعة بدون سطح، يطلق عليها اسم «توفت Tophet »، ولم يجد أحدٌ أية كتابة أو نقش أو لُقى فينيقية ـ بونية تدل على هذه التسمية، ولكنها ترد في عبرية العهد القديم (كما في سفر «أشعيا» 33, 30 ، حيث يشير إلى العلاقة الموجودة بينها وبين ذبائح المولوك» وكذلك في سفر «إرميا» 11, 14, 31, 7 ، وفي سفر «الملوك الثاني 10, 23 »(*).

---

* انظر بداية الفقرة.

To: www.al-mostafa.com

واستمـــر هذا الغمـوض حتى عام 1921 ، حيث اكتشف «تـوفت» قرطـاجة . ويمتـد بشكـــل مواز للشـاطيء الغـربي «للمـرفأ التجـاري» البـوني ، على شاطيء سالامبو، في المكـان الـذي كانت «اليسار» وصحبها قد نزلوا به . فهناك أيضاً، قدم أولئك المهاجرون ، بعد تأسيس المدينة ، أول قرابينهم ، وكان هذا المعبد يبدو شبيهاً بفناء مستطيل الشكل لم تكن أبعاده قد حُددت بعد ، وربما يبلغ مئة وخمسين متراً في الطـول وستين في العـرض . ولقـد قام العـديـد من علمـاء الآثـار بالتنقيب في تلك المنطقـة إضـافة إلى إجراء عدة عمليات سبر في نقاط أخرى وصلت إلى عمق سبعة أمتار في الأرض ، ومـع أن الأقســام الأكثـر قدماً لم تكتشف حتى اليوم[٩١] ، فإن هذا الـ«توفت» قد كشف عن آلاف المرامد التي كانت تحتوي على بقايا الأطفال الذين كانت أعمـارهم تصـل حتى سن الثـانيـة عشـرة ، ولكن أغلبهم كان في سن الثـانيـة ومادون ، إضافة إلى وجود بقايا لبعض الأطفال الذين ضُحي بهم بعد ولادتهم ببضعة أيـام . ولم تكن القـرابين البـديلة (كالطيور أو الحيوانات الصغيرة) قليلة . ففي بعض الفتـرات ، وخصـوصاً في القرنين الخامس والرابع ق . م ، تزايدت نسبة هذا النوع من القـرابين . ومـع ذلـك ، ورغم تزايـد عدد السكـان الحضـر ، وهـذا يعني تزايـد نسبة المـــواليـد ، بقي عدد الأطفـال المُضحّى بهم هو نفسـه كمـا في السـابق . وفي هذا

قرطاجة : نُصب وجرار مرامد في «توفيت» «سلامبو»

مقياس «للمناخ» العام الذي كان يسود المدينة: التطور الديني، الموقف السياسي والإجتماعي والإقتصادي.

يعود الـ«توفت» المكتشف، دون شك، إلى بداية تاريخ قرطاجة كمدينة، وتواصلت فيه ممارسة هذه الطقوس حتى عام 146 ق.م. مع ذلك باستطاعتنا أن نميز عدة مستويات متعاقبة تتشابك فيه. إذ لم يكن يوجد أي قربان في مكان بعيد عن الفناء المقدس. وحينما كان المكان يضيق بالمرمد، كان يُردم القسم المطلوب بحيث تتشكل أكمة توضع عليها المرامد الجديدة وتتجمع فوق سابقتها. وبدراستنا لمختلف نماذج الفخاريات التي تحوي رماد الضحايا يمكننا أن نميز ثلاث مراحل رئيسية في عملية التنفيذ تلك، فالأقدم، كانت فيها الآنية مغطاة بكومة من الحجارة الصغيرة والحصى الملساء والثانية تعود إلى الفترة الممتدة بين منتصف القرن السابع وحتى القرن الرابع ق.م. وتضم مرامد وضعت تحت حجارة لها أشكال مسلات وأعمدة ونُصب ذات نماذج مختلفة. أما المرحلة الأحدث فإنها تتميز بوجود نُصب مستوية ذات قمم مثلثية الشكل تدعم أحياناً بقواعد حجرية ـ ونحن نعرف أن هذه النُصب كانت تقام لمجد الإله «بعل حمّون» والربة «تعنيت». ورغم هذا التطور في تقديم العطايا، حافظ الـ«توفت» على وظيفته الأساسية التي كانت، وبشكل من الأشكال، تتعارض مع وظيفة مدينة المدافن «Necropole». ففي المقابر كانت جثث الأموات ـ حتى ولو كان الميت رماداً ـ تدفن بشكل تقليدي تحت الأرض، في حفر بسيطة أحياناً أو في معاظم صغيرة، وأحياناً أخرى في غرف محفورة تحت الأرض أو في جدران الآبار، أو أيضاً في سراديب يمكن الوصول إليها عبر دهليز منحدر ذي درجات يفضي إلى صالة جنائزية ثقبت جدرانها بفتحات صغيرة. وبالمقابل، كانت المرامد التي تحتوي على بقايا الضحايا الذين طهرتهم نار «المولوك» تدل على المحرقة المقدمة للإله وترتبط به بشكل قطعي كما ترتبط به النفوس الشابة. نقرأ على النذور عبارة «سمع صوته، وباركه»، بهذا الشكل كان المُضحي يعلن أنه نال الرضا الإلهي المطلوب، أو أنه مايزال يلتمس هذا الرضا، ولكي يبالغ في التماس العطف الإلهي فإنه كان يستخدم زمناً فعلياً يدل على

الماضي كما لو أن القدر السعيد قد تم فيما مضى . وكذلك، فإن «التوفت»، المنفتح دوماً على الهواء الطلق والشمس الساطعة والذين يضم بين جنباته المرامد التي كانت بمثابة مذاخر موجودة تحت نُصبها، كان يذكر الناس دوماً بالأهمية الأبدية لـ«مولوك» .

وكان يوجد الـ «توفت» في أماكن أخرى من الأمبراطورية القرطاجية، ففي افريقيا أيضاً، كان يوجد واحد في «هادروميت» [سوسة]، وآخر في «موتيي» بصقلية، أما في سردينيا فكان يوجد واحد في كل من مدن : «نورا»، «كاغلياري»، «سولسيس»، و«مونتي سيري»، كما أن أكبرها كان يوجد في «ثارّوس». وهذا يدل على أن ممارسة هذه الطقوس كانت شائعة في كل مكان لتمجيد الآلهة العليا، وأن تلك القرابين كانت دون شك عنصراً أساسياً ومميزاً للديانة البونية .

«تصورات مابعد الموت»

إذا كانت تلك القرابين تثبت إيمان البونيين «بالآلهة» أوحتى بإله فائق القدرة، فهل يمكننا تبعاً لذلك أن نعتقد أنهم كانوا يؤمنون بحياة أخرى «للروح» فيما بعد؟ ونجيب فوراً بأنه لم تكتشف حتى الآن في جميع أنحاء العالم القرطاجي أية أدلة مكتوبة تلمح إلى مثل هذه المواضيع . لذا علينا أن نحلل الميزة التخمينية للإعتبارات، التي يمكن أن تُطرح في هذا الخصوص.

لقد بدأ بعض المؤرخين بدراسة الأمتعة الجنائزية المكتشفة في مدن المقابر البونية مثل: «الجرار، القوارير ذوات العروتين، الأباريق وآنية أخرى كانت تُملأ بالأغذية والمشروبات، واستخلصوا منها أن القرطاجيين كانوا أكثر بساطة كي يؤمنوا بحياةٍ مادية للميت في قبره، أوعلى الأقل بنوعٍ من الوجود السُباتي يمكن أن يتواصل، ويحتاج الميت بسببه إلى أشياء وتُحفٍ وطلاسم كانت تشكل جزءاً من عالمه خلال حياته . ألا يمكن لتلك البساطة أن ترتكز على تصور أن أولئك الذين لجأوا إلى ذلك المتاع الجنائزي تمكنوا من اعطائه قيمة حقيقية نفعية و«وظيفية»؟

وقد تكون مفارقة تاريخية أن نفهم أن البونيين تمكنوا من بلوغ بعض

التصورات الأخروية التي كان تكونها البطيء ناتجاً عن اسهامات مختلف شعوب البحر المتوسط، وخصوصاً الساميين والمصريين والإغريق. ويبقى أن كل مايتعلق بالشعائر الجنائزية. كتوضع مدن المقابر ونماذج القبور والأمتعة، وطرق الدفن كاللحد أو حرق الأموات ـ يمكن أن تُعبر دون شك عن حقيقة عميقة تثبت وجود تصور «لاهوتي» ترسخ فيما مضى بقوة، وفهم هذه الشعائر على أنها تجسد بشكل مادي بسيط المفاهيم الميتافيزيقية «الفطرية» قد يسقط في التبسيطية التي تميز قسماً كبيراً من الفرضيات المخصصة «للعقليات البدائية».

وفي الحقيقة، وبدلاً من طرح تأويل ماعلى مستوى الحقائق التي وصلتنا عبر التنقيبات الآثارية. وهذا قد يؤدي بنا بالضرورة إلى تفسير «مادي» ـ سيعتقد مؤرخو الأديان اليوم أنهم يرون في تلك الأمتعة الجنائزية وثيقة يجب تفسيرها. ومثل أية «كتابة» أخرى، فإن هذه الوثيقة لايمكن أن تكون ذات مغزى إلا ضمن القياس الذي يدرس فيه الباحث تطور الأشكال والتراكيب. ويمكننا على هذا الأساس أن نطرح عدة ملاحظات. في البداية، وبينما كانت الأمتعة الجنائزية كثيرة العدد ونفيسة أحياناً في القبور التي ترجع إلى القرنين السابع والسادس ق.م، فإنها تصبح، ودون أن نتمكن من ردّ الأسباب إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة، تُصبح قليلة ونادرة حتى تكاد أن تختفي في بعض الأماكن. واستناداً إلى هذه الندرة التي تبدو واضحة في مدن المدافن العائدة إلى القرن الخامس ق.م، نشير إلى انتشار طريقة حرق الأموات التي طبقت بشكل واسع. فبدلاً من تلك الأقبية الواسعة التي كان الميت يوضع فيها فوق مِقعدٍ صخير، وبقربه مؤونة وفيرة وسراج مشتعل، «فقد أصبح الميت (كما يتبين من مدن المدافن المتأخرة الموجودة في منطقة «الأوديون» في قرطاجة) يُحرق قبل أن يُسَلم إلى الأرض. وتوضع بقاياه في علبة حجرية أو قارورة أو توضع ببساطة في الغرفة الجنائزية التي لم تكن مخصصة لشخص واحد فقط، بل لمجمل أفراد العائلة، وتكون أحياناً مشتركة فيها الرماد والأواني بشكل عشوائي»[٩٦]. إن هذا التطور في ممارسة الشعائر يثبت وجود تطورٍ في المعتقدات، ولكن من المحتمل أيضاً أنه يُثبت عكس ذلك.

وفي الواقع، وإن كان الإيمان بحياة الروح أو المبدأ الأساسي قد «تمت الإشارة إليه في البداية بأبهة باهظة وحول جسد الميت ذاته. وهذا يفسح مجالاً للغموض ـ فإن التأكيد على هذه الحياة الآخرة يعبر عن نفسه بالإتجاه إلى عملية ترميز تتيجه عناصرها إلى أن تصبح بسيطة أكثر فأكثر، لتقتصر في النهاية على شكلها الأبسط وهو الأمتعة الجنائزية إضافة إلى الإتجاه إلى عملية حرق الأموات. وعملية الترميز تلك تتحاشى أية محاولة لبذل الشعائر المادية للموتى، وتعتبر هذه العناصر الروحية التي تقر بحياة ترتقي على حياة الجسد دليلاً على نضوج ملحوظ عند البونيين.

وهذه الرحلة بإتجاه الماوراء ـ وهي رحلة يرمز إليها أحياناً بالذخيرة الأيقونية التي تأخذ شكل فارس أو حيوان بحري خرافي أو زورق تشرع الروح المحررة فيها كي تصل إلى «المدينة» المحمية جيداً، مثل مدينة صور أو صيدا، حيث يبدو أن البونيين كانوا لايزالون يحافظون على حنين غريب إلى تلك البلاد. وهذا مايظهر في بعض القبور المكتشفة في جبل «مليزا»[٩٣] في «الرأس الطيب»، إذ وجدت تزينات تشير إلى رحلة الروح المقدسة باتجاه وطنها[٩٤]. فعلى الجدران الجانبية والجدار الداخلي تتالى ثلاث لوحات كما لو أنها تسرد قصة مصورة، بحيث يمكننا أن نتصور على أساسها الصورة الرابعة الموجودة على الجدار الذي يحوي باب المدخل، وتشير بشكل واقعي إلى يوم الدفن، حينما يتخطى الجسد عتبة الغرفة الجنائزية. وفي هذا

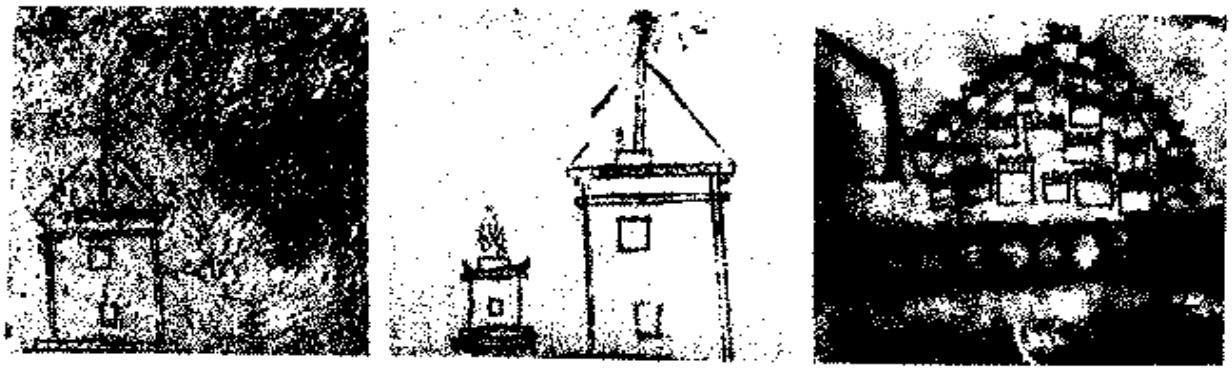

«جبل مليزا» (الرأس الطيب): رسوم جدارية في القبر رقم 8، على الجدران الموجودة يمين ويسار المدخل، وعلى الجدار الداخلي (القرن الرابع والثالث ق. م)

التركيب ذي الأهمية البالغة، تُمثل الروح. التي تأخذ شكل ديك ـ وهي في طريقها نحو مدفن يوجد على مقربة منه معبد قرباني تُوقد فيه النار، وتدل هذه الصورة الأولى على الموت الذي ينتظر الإنسان على الأرض. وبعد الموت، يتخطى الجسد هذه العتبة كي يستقر في ذلك المدفن ويبقى محبوساً فيه، وهذا ماتمثله اللوحة الثانية الموجودة على يمين باب المدخل حيث لاترى فيها سوى المدن ومعبده. غير أن الروح ليست أسيرة القبر، فنحن نجدها في لوحة على الجدار الأوسط تواصل طريقها نحو الملكوت الذي يُرمز إليه بصورة مدينة تحميها حصون ذات أبراج تشكل سوراً نصف دائري. وهذه اللوحة تستعيد ذكريات الدول ـ المدن الفينيقية التي كانت محاطة بالأسوار من الجهات البرية فقط في حين بقيت مفتوحة على البحر، وكانت بالنسبة للبونيين «ملكوتهم» الحقيقي. لقد كانت المدينة الإلهية تعني لأولئك البحارة آخر مرفأ يمكن أن يرسوا فيه.

الفصل السادس

الحروب والمواجهة مع روما

من الوفاق الودي إلى الحرب:

لقد مضى زمن طويل على تحالف القرطاجيين والأتروسكيين الذي أسفر عن توحيد قواهم في سبيل طرد المستوطنين الإغريق من كورسيكا. ففي القرن السادس ق.م - تعود هذه العملية في الواقع إلى عام 530 ق.م - عمل هذا التحالف بين الدولتين المتوسطتيين ليس فقط على التدخل المسلح للحفاظ على مصالحهما المشتركة بل امتد أيضاً إلى مختلف المجالات. وهكذا، توسعت النشاطات التجارية حتى أن الإغريق كانوا يشيرون إلى مدينة «كايري Caere» باسم فينيقي هو «اجيلا Agylla»، وكان أحد ميناثي المدينة الأتروسكية يسمى «بونيكوم Punicum» وكانت تُشغل هذه المرافيء في الغالب بالسفن القادمة من أم المدن الأفريقية، بل إن آلهة قرطاجة أيضاً كانت جزءاً من هذا التبادل، وأصبح هذا الحلف، بعد أن دُمِغ بهذه السمة المقدسة، أصبح ميثاقاً لاتنفصم عُراه. ففي أحد النقوش الثنائية اللغة نقرأ عن أحد الولاة الكبار الذين كان يمارس عبادة الربة «عشتار»، كما أن تكريس أحد المعابد كان ينتهي بهذا الدعاء: «فليكن عمر تمثال الربة في معبدها بعدد

النجوم»(**). غير أن ربة كنعان القديمة تلك وحامية صيدون لم تكن قوية بما فيه الكفاية كي تجعل هذا الوفاق أبدياً.

كانت العلاقات محدودة جداً وبالتأكيد، ولعدة قرون. ويشير أرسطو إلى أن القرطاجيين والأتروسكيين كانوا يظهرون، حينما يوازون تحالفهم العسكري وعلاقاتهم التجارية، وكأنهم دولة واحدة (السياسة III ,6,9). ولكن، وبعد انهيار الأتروسكيين، انحسر نفوذ كل منهم إلى شواطئه، واستمرت هذه الحركة التي كان ستفضي إلى القطيعة والحرب خلال قرنين ونصف من الزمن. وخلافاً لما كان شائعاً، لم تبدأ العلاقات بين قرطاجة وروما بالحرب بل بالتحالف. إذ كان البلدان يشعران، رغم الحذر الذي كان يبديه كل واحد تجاه الآخر، بالحاجة إلى الوسائل الدبلوماسية، وخصوصاً في أوقات الأزمات، لإعادة التأكيد على أنهم «حلفاء». وكان ذلك العمل فرصة ليطالب كل بلدٍ شريكه بامتيازات أوسع. وتعود أولى الاتفاقيات بين قرطاجة وروما إلى عام 509 ق.م، أي حسب التسلسل التاريخي التقليدي، إلى نفس العام الذي قامت فيه روما بإصلاح نظامها الجمهوري.

طالب البونيون في هذه المعاهدة بتثبيت الامتيازات القديمة. ولكن روما، وبسبب الحروب التي كانت تشنها ضد «السمنيين Samnites»(*)، وبشكل خاص ضد مدينة «كابوا Capoue»، أخذت تمارس سياسة «إيطالية». فلقد شكلت عائلات النبلاء الإقطاعيين بالتحالف مع أقرانهم في العاصمة مركز قوة فعال في مجلس الشيوخ الروماني، وأخذوا يوجهون الدولة للإندفاع في مشاريع تخدم مصالحهم الخاصة. وكانت هذه المصالح تشمل ليس فقط كل إيطاليا الجنوبية حتى مدينة «تارنتي Tarente»، بل صقلية أيضاً وجميع المناطق التي تسيطر عليها فرق المرتزقة

---

* Somnium، «سمنيوم»: أقليم في إيطاليا القديمة، شرق «لاتيوم» وغرب البحر الأدرياتيكي، كانت تسكنه قبائل محاربة اتحدت ضد روما، ودارت بين الطرفين حروب طويلة امتدت أولاها من عام 343 وحتى 290 ق.م.

المترجم

الـذين كانـوا قد قدمـوا بحثاً عن الثـروة . وكـان الإتجـاه نحو الجنوب يقود حتماً إلى الصـدام مع قرطـاجـة . لقد انطلق السهم وليس بمستطاع أحد أن يوقفه . ويوضح لنا المؤرخ الـروماني «تيت ـ ليف» هذا التشابك بقوله : «بعد الحرب غير الحاسمة مع السمنيين ، أصبح لروما عدو آخر هو مدينـة «بيرّوس Pyrrhus »، وبعد «بيرّوس»، أصبحت «قرطاجة» [1, 29, VII] .

إننا نعلم أن القرطاجيين، ومن خلال المعاهدات الثلاث التي تلت المعاهدة المـوقعـة عام 509 ق . م ، عززوا هيمنتهم على البحر المتوسط . إذ تحصنوا ، عبر بنود صارمـة ، بإحتيـاطـات دقيقـة كي لايتعرضـوا لأيـة مخاطر من جانب حليف يدركون طمـوحـاتـه . غيـر أن الحقـد كان يتزايد بين الدولتين . ففي الإتفاق الموقع عام 306 ق . م ، تعهد الرومان بأن لايتجاوزوا مضيق «مسينا» مقابل إعطائهم حرية الحركة في إيطـاليـا . لقـد كان على روما أن تتقدم خطوة خطوة . وكانت هذه المعاهدات تهدي ء انياً مخـاوف قرطـاجـة . غيـر أن التساؤل كان عما ستفعله روما بعد سيطرتها الكاملة على كل شبه الجزيرة الإيطالية .

فحين وطـدت رومـا سيطرتها على «ريجيون Rhegion » [ريجيودي كالابري Reggio de Calabre] أخـذت ترنـو إلى محاصيل «صقلية» الوفيرة . لقد أصبحت قوة متوسطية تسيطر على ساحل يقارب طوله الألف كيلومتر، ولم يعد بمقدورها أن تقبل احتكار حليفتها القديمة المطلق للحوض الغربي للمتوسط .

كانت المعاهدات الموقعة مانزال سارية بالتأكيد . ولكن حتى بالنسبة لمفاهيم الرومان الذين كانوا حتى تلك الفترة حريصين على تقديم التبريرات الأخلاقية ، فإنه لم يعـد بمقـدورهم الحفـاظ على تلك التعهـدات حينما استنجد بهم «المامِيرتيون Mamertins » المرتزقة ـ الذين كانوا يسيطرون على منطقة تقع حول مضيق «مسينا» . لقـد كانت تلبيـة نداء «أبنـائهم» بمثـابـة واجب على الجمهـوريـة ، وفي هذا سبب أخـلاقي لأيـة حرب ، قد تتواصل مع حليفتها التقليدية . بهذا الشكل بدأت «الحرب البونية الأولى» .

حرب صقلية

ماتـزال الظـروف التي دعت الـرومـان إلى التدخل غامضة، وحسب مانقله لنا «بوليبوس»، فإن مجلس الشيوخ الروماني لم يتمكن من اعتماد قرارٍ حاسم في شأن الحـرب ضد قرطـاجـة. غيـر أن القنصـل «آبيـوس كلاوديوس كاوديكس Appius Claudius CaudeX»، بادر من تلقاء نفسه ببدء العمليات الحربية مستفيداً من الدعم الشعبي له: «مـع أن الشعب كان لايـزال محتفظاً بذكـريـات مريـرة عن الحـروب السـابقـة، وكـان بحاجة إلى سماع مختلف وجهات النظر، فقد أصغى إلى القناصل الـذين كانـوا يحبـذون الحـرب التي ستقـدم إلى كل واحد منهم حصته من الغنائم، إضافة لما ستجلبه من منفعة عامة». [11, 1, I].

وسبب ذلك كله عائدٌ إلى أن القنصل «آبيوس» كان يمثل العائلات النبيلة التي كانت قد شكلت فئة أرستقراطية أخذت توجه روما لمواجهة قرطاجة بذريعة أن وجود الأخيـرة في «صقليـة» كان يهـدد ايطـاليـا كلهـا بالتطويق. غير أن الميزات التجارية الخاصة كان لها دور أساسي في هذه العملية، فوجود البونيين في «مسينا» كان يهدد المواصلات البحرية بين مرافيء البحر الأيوني وخليج مسينا.

قام القنصـل «آبيـوس» بانزال مفرزة استطلاع من جيشه في «ريجيون» وسارع إلى إنشـاء رأس جسـر على الطـرف الآخـر من المضيق. وبضغـط من المـرتـزقـة «المـاميـرتيين»، أخلى قائـد حاميـة «مسينـا» القرطاجي «حنّون» القلعة بسرعة: وقد حُوكم فيمـا بعـد وصُلب جزاء لإنسـحـابـه. ثم قامت الـوحـدات العسكرية الرومانية باحتـلال المـدينـة، غيـر أنـه سرعـان ماطـوقتهم الفـرق البـونية والسيراكوزية. لكن التحـالف بين الخصـمين القـديمين سرعـان ماتحطم، إذ أن «هيـرون السيـراكوزي Hieron de Syrocuse» خشي من فقـدان مدينتـه وبـالتـالي عرشه، فقرر الإنحياز إلى جانب الجيش الـرومـاني الـذي بدا له أقـوى من جيش قرطاجة. أما العاصمة البونية فقـد كرهت أن تخـوض حربـاً لم تُعـد نفسهـا لهـا، وكـانت ترغب بوضع حدٍ سريع

للعمليات. في حين أن الرومان امتلؤوا ثقة بالانتصارات الأولى التي حققوها إضافة إلى إنضمام حاكم «سيراكوزه» إليهم، وهو حليف مندفعٌ كان يساهم جزء كبير من المؤن التي يُزود بها الأربعون ألف جندي الذين أرسلهم مجلس الشيوخ إلى صقلية، وتأكدوا بأن هذا المشروع الذي يقومون به يحمل في جنباته آمالاً كبيرة.

أما القرطاجيون، وحينما رأوا المجرى الذي اتخذته الأحداث، فقد قرروا أن يلفوا بقواتهم في المعركة التي فُرضت عليهم. فشرعوا في تركيز قواهم في مدينة «آغريجنتي» وكانت مؤلفة من المرتزقة الليغوريين والغاليين إضافة إلى الإيبريين بشكل خاص إلا أن هذه المدينة الإغريقية المتحالفة مع قرطاجة تعرضت للحصار في عام 262 ق.م من قبل فيالق القنصل أثناء حشد البونيين لقواهم فيها. واستسلمت «آعزيجنتي» بعد حصار دام ستة أشهر، رغم المحاولات التي بذلها جيش بوني لشد إزر المحاصرين، بسبب تفشي المجاعة. بفضل خطة وضعها القائد القرطاجي «هانيبعل» ـ وهو غير «هانيبعل» الكبير ـ تمكنت حامية المدينة من الإنسحاب إلى مكان أمين. وحينما علم مجلس الشيوخ الروماني بهذا الانتصار قرر مواصلة الحرب التي تعيرت أهدافها من مساعدة «المامرتين» «أخوتهم في الدم» إلى «تحرير» كل أرجاء صقلية.

ومن أجل هذا الهدف الطموح، كان على «روما» أن تمتلك أسطولاً حربياً. ويلاحظ «بوليبيوس» أنه وعلى الرغم من تفوق الرومان في الجيوش البرية «فإن القرطاجيين كانوا أسياد البحر بشكل لاينازعون فيه، لذا بقيت نتيجة الحرب متوازنة (21, 1, 1). ولكن الرومان تمكنوا خلال عام 261 ق.م، أن يُنزلوا إلى البحر مئة سفينة حربية خماسية المجاذيف وعشرين سفينة ثلاثية. ويروي لنا المؤرخ الإغريقي أن الرومان قاموا بأنفسهم ببناء سفنهم الخماسية على نموذج السفن البونية التي كانت قد جنحت إلى شواطئهم، وقاموا بتدريب طواقمها على استعمال المجاذيف، ومن الواضح أن المؤرخ الإغريقي ـ الذي كان يتعاطف مع آمال الجمهورية الرومانية ـ يتناسى أنه كان لروما العديد من الحلفاء البحريين الذين تمتوا بخبرة واسعة في بناء السفن وفن الملاحة ووضعوا خبراتهم تلك تحت تصرف الرومان.

وحالما خرجت أول عمارة بحرية مؤلفة من سبع عشرة سفينة بقيادة القنصل

«كورنيليوس سيبيون Cornelius seipion» حوصرت وأسرت من قبل أسطول بوني في مرفأ «ليبارا Lipara»، ووجد القنصل نفسه، وهو ينحدر من عائلة نبيلة سيكون لها شأن في الحرب البونية الثانية ـ أسيراً قبل أن تبدأ المعركة. وبسبب هذه النتيجة المُرة، اتجه الرومان إلى تجهيز اسطول حربي ذي تقنية عالية أدت إلى قلب كل مفاهيم المعارك البحرية.

لقد كانت تنقص طواقم السفن الرومانية الخبرة الكافية في القيادة إضافة إلى أن سفنهم كانت ثقيلة وغير طيعة، لذا قرر الرومان أن يزودوا سفنهم بآلة عُرفت باسم «كوربو» وهي طبقة عليا في السفينة محاطة بحواجز ـ بطول حوالي عشرة أمتار وعرض متر ـ زودت في طرفها بكتلة من الرصاص على شكل كلّاب أو منقار طير جارح، ثبتت في مقدمة السفينة وربطت إلى الصاري بقلس بحيث يسمح لها بالإنتصاب أو الدوران حول محور. وقد خصصت هذه الطبقة العليا لعمليات الإنقضاض على السفينة المعادية التي تقترب منها، بحيث يتم إلقاء خطاف السفينة الرومانية على سطح السفينة المعادية تلك مما يجعلها معلقة تماماً به «وحينما تتحاذى السفينتان جنباً إلى جنب ينطلق الرومان إلى سطح السفينة الثانية، وإذا تعارضت السفينتان بشكل رأسي فإنهم (أي الرومان) يشتبكون بشكل ثنائي فوق الطبقة العليا ذاتها بهدف اقتحام سفينة الخصم والجنود الذين يبرزون في المقدمة يقومون بحماية رأس الرتل بتروسهم، بينما يحمي الآخرون المجنبات بأن يسندوا أطراف تروسهم على الحواجز». [بوليبيوس، I, 1, 22].

وبفضل هذه الخطة الجديدة، تمكن الرومان من أبعاد تكتيك «التكز» الذي كان البونيون يستخدمونه، وفرضوا تكتيكهم القائم على مبدأ «الصدم» الذي سمح لهم باقتحام السفن والإلتحام في معارك مواجهة كانوا متفوقين فيها. ولهذا كان قادة الأسطول يدربون بحارتهم مثلما كان الضباط يدربون فيالقهم. وإضافة إلى طاقمها المؤلف من مئتين وخمسين مجذفاً(*)، كانت كل سفينة خماسية رومانية تحمل

---

* لما كانت السفن الكبيرة خماسية المجاذيف، فقد يبدو عدد المئتين وخمسين مجذفاً مستغرباً ←

أربعين جنـدياً بحـرياً ووحدات عسكرية من ثمانين جندياً يختارون من بين القوات البـريـة خلال المعـركـة. وفي ربيـع عام 260 ق.م، تمكن الرومان بـسفنهم المجهة بالكـوربـو (الغربـان) مـن احـراز النصـر في أول معـركة بحرية في تاريخهم، بقيادة «دويليوس Duilius »، وقد حدثت تلك المعركة مقابل مدينة «ميلاي Mylae » [ميلازو Milazzo]، وفقـد القـرطـاجيـون بنتيجتها خمساً وأربعين سفينة. وأصبحت منذ تلك اللحظـة فرص الحـرب غيـر متكافئة بين هذين الخصمين، ورغم ذلك، لم يؤ د هذا الإنتصـار إلى نتيجـة حاسـمـة، فخـلال أربـع سنوات، كانت الحرب تدور في أرجاء صقلية، وكانت حظوظ الفريقين في الإخفاق أو النصر تتجه إلى التوازن.

وفي غضون ذلك، عزم الرومان على تكرار تجربة «آغاثوكليس» بنقل الحرب إلى أفريقيا، فشرعوا في تنفيذ برنامج ضخم لتوسيع الأسطول الحربي. وفي عام 256 ق.م، اتجـه الأسطـول الروماني الضخم بقيادة القنصلين «لوسيوس مانليوس فولسو Lucius Manlius Vulso » و«مـاركـوس آتيليـوس ريغولوس Marcus Atilius Regulus ». وهـذا الأخيـر يمثل الفئة الكامبانية القوية ـ وكان هذا الأسطول يضم ثلاثمائة وثلاثين سفينـة. وفي مقـابـل هذه الأرمـادا التي كانت موزعـة على أربـع عمـارات، وجـه القـرطـاجيون أسطولاً ضخماً يضم ثلاثمائة وخمسين سفينة يحمل على متنه أكثر من مئـة وخمسين ألف رجـل (بينمـا كان الأسطـول الـروماني يحمل مئة وأربعين ألفاً من جنـود وبحـارة)، إن عدد السفن وأهمية القـوى المشـاركة في هذه المعركة البحرية يجعلهـا أكبـر معـركـة في تاريخ العصور القديمة، ومع ذلك فمن المحتمل أن تكون هذه الأرقام التي أوردها «بوليبيوس» مبالغ فيها.

حـدثت المـواجهـة بين الأسطـولين في مياه رأس «إكنوموس Eknomos » على السـاحـل الجنـوبي لصقليـة. وكـانت مهمـة قائـدي الاسطول القرطاجي «هاملقار»

عنـد القـاريء، وعليـه أعتقـد أن هذا العدد الكبير كان بقصد الإحتياط، أو استخدم في دفعات تتناوب بقصد الإستراحة، أو في حالة موت بعض المجدفين.

المحقق

و«حنّون» تحطيم موكب الجيش الغازي المعادي. وبينما كانت المعركة توحي في بدايتها برجحان كفة البونيين، أعاد القنصلان الرومانيان ترتيب الأوضاع في عمارتيهما اللتين هوجمتا بشكل منفصل، فاضطر القرطاجيون آخر الأمر للإنسحاب بسبب خشيتهم من غُربان «كوربو» السفن المعادي. «وبالمحصلة، كانت نتيجة المعركة لصالح الرومان الذين فقدوا أربعاً وعشرين سفينة، في حين خسر القرطاجيون أكثر من ثلاثين. كما أنه لم تقع أية سفينة رومانية مع طاقمها في أيدي البونيين، بينما استسلمت أربع وستون سفينة قرطاجية» [«بوليبيوس» 1, 28, 1]. لقد أصبحت الطريق إلى أفريقيا مفتوحة، فاتجه القنصلان قدماً باتجاه الرأس الطيب.

اجتاح الرومان في البداية «كلوبيا Clupea» [قليبية] ـ التي كان «آغاثوكليس» قد نزل فيها فيما مضى ـ وأنشأوا فيها معسكراً لمراقبة المنطقة. ثم شرعت الفرق الرومانية بنهب وسلب المدن والمزارع والغنية في الأرياف المحيطة بالمعسكر. واستغل النوميديون الموقف فشرعوا بالقيام بعمليات تخريب حقيقية، في حين بدأت المجاعة تضرب العاصمة البونية التي كان آلاف اللاجئين القرويين قد نزحوا إليها. في أثناء ذلك، اقتضى على القنصل «مانيلوس» أن يعود إلى إيطاليا ويعيد معه القسم الأكبر من الاسطول، تاركاً زميله في أفريقيا مع أربعين سفينة وخمسة عشر ألفاً من المشاة وخمسمائة فارس.

وبدءاً من عام 255 ق. م، انطلق القنصل «ريغولوس» إلى الريف، واجتاح عدة قرى حتى وصل إلى «تونس» نفسها حيث أقام معسكراً أراد أن يهدد به قرطاجة مباشرة. بيد أن هذا القنصل، الذي لم يكن قائداً لامعاً، لم يبدِ أي ذكاء سياسي، فلقد أهمل منذ البداية الإهتمام بتذمر الأفارقة من سلوك الحكام البونيين ـ وإلا لكان حقق فائدة من دعم السكان الأصليين له. إضافة إلى أنه كان يتوقع أن يقبل خصمه جميع شروطه فقد طرح عدة شروط متشددة لتوقيع معاهدة سلام رفضها القرطاجيون. رغم أن هذا سيؤدي فيما بعد إلى حدوث كارثة للرومان. ففي تلك اللحظات الحاسمة، وصل قائد المرتزقة اللاكيديمونيين، واسمه «اكزانثيب Xanthippe» إلى قرطاجة مع فرقه المكونة من المرتزقة الإغريق. فأعاد الجيش

القرطاجي تنظيم صفوفه بفضل النصائح القيمة التي أسداها لهم، وقرر قادة هذا الجيش أن يتبعوا خطة جديدة في الحرب. لذا بادر القرطاجيون خلال فصل الصيف إلى شن الحرب فتم سحق الفرق الرومانية وأسر القنصل «ريغولوس»، وتمكن ألفان فقط من جنوده من الوصول إلى «كلوبيا».

وازداد حجم الكارثة في السنة التالية، حينما أرسل مجلس الشيوخ الروماني اسطولاً بحرياً يقوده القنصلان ويتألف كما يقول «بوليبيوس» من ثلاثمائة وخمسين سفينة بهدف نقل فلول الجيش الروماني، فاصطدم هذا الاسطول بقوة بحرية قرطاجية مؤلفة من مئتي سفينة وتمكن من إلحاق الهزيمة بهذا الاسطول البوني وثم أسر مئة وأربع عشرة سفينة منه. مع ذلك، ورغم هذا الانتصار، وحين بلغ القنصلان ساحل «كسامارينا Camarina» [على الساحل الجنوبي لصقلية] ـ وهي منطقة خطرة كان المرشدون البحريون قد حذروهما منها بسبب الظروف المناخية السيئة ـ تعرض الاسطول الروماني لعاصفة شديدة ابتلعته كله تقريباً، ولم تتمكن سوى ثمانون سفينة من الإفلات منه. ويضيف «بوليبيوس». «لم يحك لنا التاريخ مثيلاً لهذه الكارثة التي قضت بضربة واحدة على اسطول كامل» [I, 1, 37].

إن الثلاث عشرة سنة التي تلت، منذ فشل الحملة على أفريقيا وحتى عام 242 ق.م، كانت بالنسبة لروما أطول وأفظع سنوات الصراع الذي استمر طويلاً. كانت تلك السنوات مليئة بالهزائم وخيبات الأمل على الرغم من الانتصارات البحرية الأولى التي سوغت كل آمال الرومان. إذ أن القناصل الرومان وضباطهم البحريين لم تكن لديهم أية خبرة حقيقية في شؤون المعارك البحرية، وكانوا يجهلون فن الملاحة معتقدين أن بمقدورهم فرض إرادتهم في هذا المجال، دون أن يقيموا وزناً لنصائح أو انتقادات طواقمهم المختصين، فتراكمت الأخطار وأدت إلى تلك النتيجة المخزية. ومثالنا كانت ورش بناء السفن قد بنت مئتين وعشرين سفينة ـ باتجاه الساحل الشرقي للأراضي البونية في أفريقيا لتقوم بغارات نهب، وكانت نتيجة هذه العملية تقترب إلى حدّ الكارثة إذ جنحت بعض السفن في المياه الضحلة لخليج «سيرته» الصغير، قرب جزيرة «لوتوفاج Lotophages» [جربة]، ثم فقد الاسطول أكثر من مئة وخمسين

سفينة نتيجة العواصف. وتخلى مجلس الشيوخ الروماني إثر تلك العملية عن أية محاولة لإنشاء اسطول جديد.

نتيجة لتلك الكوارث التي حلت بالجيوش والأساطيل الرومانية، استرد القرطاجيون معنوياتهم وتضاعف تفاؤلهم بالمستقبل «فمنذ أن انسحب الرومان من البحر، تمكن القرطاجيون من بسط نفوذهم عليه دون منازع، وكانوا إضافة إلى ذلك يعلقون آمالاً كبيرة على جيوشهم البرية، ولم يكن تفاؤلهم هذا دون مبرر» [بوليبيوس 39, 1, I].

وبما أن روما تخلت عن كل أمل بضرب قرطاجة في عقر دارها، قررت أن تطردها من «صقلية» بأن تدمر قواعدها هناك واحدة تلو الأخرى، وقد كان تنفيذ هذا المشروع سهلاً في بداية الأمر بسبب الظروف المحلية التي كانت تسود الجزيرة. إذ أن قرطاجة لم تتمكن بسبب تهديد فيالق «ريغولوس» لها في أفريقيا، لم تتمكن من تعزيز مواقعها في الجزيرة، كما لم يكن لديها الوقت الكافي لإعدادها للدفاع. وفي عام 254 ق.م، سقطت «بانورموس» [بالرم]، المدينة الرئيسية في صقلية، بعد حصار بري وبحري بأيدي الجنود الرومان. كما قامت مدن أخرى مثل «سولونتي Solunte» بطرد حامياتها البونية الضعيفة والتحقت بروما (ديودور XXIII, 14). لذا قرر القرطاجيون أن يجمعوا قواتهم في معقل محصن يقع في الجزء الغربي من الجزيرة بدلاً من بعثرتها في أماكن يصعب الدفاع عنها، فقد كانت توجد بأيديهم هناك عدة قلاع قوية مثل «ليليبي Lilybee» [مرسالو]، و«دريبان Drepan» [ترایاني].

أدرك القادة الرومان أن مثل هذه المواقع ستكون عصية عليهم إن لم يتمكنوا من حصارها من جهة البحر أيضاً، بحيث يمنعون عنها أية مساعدة، لتحل بها المجاعة. لذا قرر مجلس الشيوخ الروماني عام 250 ق.م، أن يجهز أسطولاً جديداً لتطبيق هذه الخطة: وخلال هذا الوقت قام جيش بوني يقوده «هاسدروبعل» بشن هجوم لاسترجاع «بانورموس»، غير أنه أخفق رغم استخدامه الفيلة في عملياته. وفيما بعد، حوكم هذا القائد في قرطاجة أمام محكمة «المئة وأربعة» وصُلب.

لقد وجدت الفرق الرومانية، بفضل نجاحها في الدفاع عن «بانورموس»،

سنداً كبيراً لها في العاصمة روما. ففي عام 249ق.م، قام القنصل «ب. كلاوديوس بلوشر P. Claudius Plucher» بفرض حصار على مدينة «ليليبي» على رأس اسطول بحري. وكانت حامية المدينة تضم حوالي عشرة آلاف مرتزق بقيادة «هيملكون». إلا أن بعض فرقها التي يقودها بعض الضباط الخونة قررت الإنضمام إلى الجانب الروماني. لكن المهاجمين، وبسبب عدم امتلاكهم الخبرة الكافية، فشلوا في منع جيش قرطاجي من تعزيز دفاعات المدينة، واستمر الوضع على هذه الحالة عدة أشهر، فقرر القنصل الروماني أن يهاجم الاسطول البوني الذي يتخذ من «دريبان» قاعدة له والذي كان يتلقى التعزيزات من قرطاجة بشكل متواصل. لكن هذه العملية فشلت فشلاً ذريعاً نتيجة جهل الرومان بطبيعة المكان، إذ كان للمرفأ مدخلان، فضَلَّ الاسطول الروماني في شبكة مفتوحة كانت مخصصة لعرقلته، وأسر البونيون ثلاثاً وتسعين سفينة مع بحارتها، أما «ريغولوس» نفسه فقد تمكن من الفرار ومعه ثلاثون سفينة. وحاول القنصل الآخر «ل. جونيوس بولّوس L. Junius Pullus» على رأس أسطول آخر أن يصل إلى «ليليبي» حاملاً تجهيزات للفرق التي تحاصر المدينة، لكن القائد القرطاجي «كارتالون» أجبره على التراجع، وتعرض بعد ذلك إلى عاصفة أدت إلى غرق الاسطول الروماني تماماً أمام شواطيء «كارينا»، وبهذا تمكن القرطاجيون من استعادة سيادتهم على البحر. في حين ساد الذعر أرجاء العاصمة الرومانية، فوجدت العائلات «المحبة للسلام» الفرصة مناسبة لاستعادة سيطرتها على مجلس الشيوخ فشكلت ثلاث حكومات تناصل متعاقبة. غير أن الشعب الروماني، وخصوصاً الفئات التي كانت لاتزال راغبة في السيطرة على صقلية، لم تجد مبرراً لتلك الهزائم. أما قرطاجة، وكعادتها، فلم تحاول استثمار انتصاراتها وتعزيز قواعدها من أجل طرد غريمتها من الجزيرة، بحيث كان بالإمكان التساؤل هل لاتزال الأقلية الحاكمة القرطاجية تولي عنايتها الكاملة لجزيرة صقلية؟

لو أن الحكومة القرطاجية، بعد هزيمة «دريبان»، كانت مقتنعة بالأهمية الكبرى للجزيرة مثلما كان الرومان يرون، لاتخذت الحرب هناك مساراً آخر. وفي عام 247ق.م، تولى قائد ذو مكانة خاصة، هو «هاملفار برقا»، قيادة العمليات

القرطاجية في صقلية. وأطلق «بوليبيوس» حكمه على نتائج الحرب البونية الأولى قائلاً: «يُعد «هاملقار برقا» أفضل القادة من حيث ذكاؤه وجرأته، وهو والد «هانيبعل» الذي سوف يواصل الحرب ضد الرومان» [40, 1, I]. ولكن ماذا كان بمقدور «هاملقار»، رغم كل تلك المواهب، أن يفعل إذا كانت قرطاجة المنشغلة عنه بحروبها في أفريقيا لاتمده إلا بالنذر اليسير من الوسائل الضرورية لإعطاء العمليات الحربية دفعاً قوياً وحاسماً؟ فلقد مرت حتى ذلك الوقت ثماني عشرة سنة من الحرب.

قام «هاملقار» بتوجيه غزوات تدميرية على الشواطيء الجنوبية الإيطالية حتى مدينة «كوميس Cumes»، وكان يناوش دون توقف الفرق الرومانية في صقلية، فهاجم جبل «هيريكتي Heiricte» [جبل «بيلغرينو M. Pellegrino»]، واستعاد بعد معارك ضارية مدينة «إيركس Eryx» [إريس Erice]، المبنية على منحدرات جبل يحمل نفس الاسم، دون أن يتمكن من تحطيم القوة الرومانية المعسكرة في قمته حيث كان ينتصب معبد «أفروديت الإيريسية Aphrouite Erycine» الشهير. وبهذا الشكل تمكن «هاملقار» من إنشاء نقاط استناد قوية في قلب المناطق المعادية بهدف حماية قاعدة «دريبان» الكبيرة والتي كانت لاتزال محاصرة مثلها مثل «ليليبي». لقد بذل القائد القرطاجي جهوداً ضخمة خلال السنوات الست التي قضاها في صقلية. فعلى الرغم من أنه لم يزود إلا بأسطول هزيل ضم بضع عشرات من السفن، إذ كانت قرطاجة ولأسباب اقتصادية قد نزعت السلاح من قسم كبير من اسطولها البحري، لم يتوقف القائد البرقي عن ضرب الفرق الرومانية الموجودة أمامه في جميع أرجاء الجزيرة.

لقد امتدت هذه الحرب إلى أرجاء واسعة، ولم يكن بالإمكان الوصول إلى نهاية لها بسهولة. «لقد ضاق الرومان والقرطاجيون لى السواء بالمجهود الهائل الذي كان عليهم أن يلقوه في هذه الحرب المتواصلة، حتى أحس الجانبان بالإنهيار يدب في أوصالها [. . .]. لقد كان الدافع الذي يحرك الدولتين في هذه الحرب هو الرغبة بالنصر. .» [بوليبيوس I, 1, 58, 59]. وبالتأكيد، فإن تلك الرغبة كان يجب أن تكون

واضحة بالقياس للفوائد العظيمة التي يمكن أن يجنيها المنتصر. وعلى هذا فإن «روما» كانت ترى في صقلية هدفاً شديد الإغراء.

وعلى الرغم ن الأخطاء الفادحة المكلفة للرومان والتي ارتكبها بعض الممثلين البارزين للمجموعات الداعية إلى الحرب وخصوصاً عائلة «كلاودي Claudu»، إذ أن القنصل «آبيوس كلاوديوس كاوديكس Appius Claudius Caudex» أبدى تهاوناً في حصاره لـ«مسينا»، والقنصل الآخر «ب. كلاوديوس بلوشر» أدخل اسطوله بلا حذر في مرفأ «دريبان» حيث تعرض للدمار، على الرغم من ذلك فقد كان المعسكر الموالي للحرب مايزال قوياً. بحيث تمكن من فرض آرائه. فقرر مجلس الشيوخ الروماني الشروع في بناء وتجهيز مئتي سفينة خماسية، ولجأ، لتسديد نفقاتها، إلى الإقتراض الحثيث من بعض العائلات الثرية. وفي بداية صيف عام 242 ق. م، أبحر القنصل «ك. لوتاتيوس كاتولوس C. Lutatius Catulus» على رأس هذا الاسطول إلى مياه مدينة «دريبان»، فأسرعت قرطاجة، وقد فوجئت بالمبادرة الرومانية الجديدة، إلى إعادة تسليح بعض سفنها، التي كانت محملة بالقمح ويقودها بحارة مبتدئون، وأقلعت هذه السفن في آذار عام 241 ق. م، بهدف الوصول إلى قواعد «هاملقار». غير أن القافلة البونية الثقيلة هوجمت من قبل سفن رومانية فارغةمن أية حمولات يقودها بحارة مدربون، فتم لها احراز النصر، إذ فقد القرطاجيون مئة وعشرين سفينة، أسر منها سبعون مع عشرة آلاف رجل.

غير أن حاميات «ليليبي» و«دريبان» و«إريكس»، التي كانت لاتزال بكامل قوتها وظلت محافظة على معنويات عالية، قررت مواصلة المقاومة لكن «هاملقار»

نقود فضية بونية تمثل رأس «تعنيت» (حوالي القرن الرابع ق. م)

تلقى أوامر من قرطاجة بالدخول في مفاوضات هدنة. فسارع القنصل الروماني إلى الترحيب بهذا العرض ووضع شروطه الهادفة إلى إقامة «علاقات صداقة» بين الطرفين. وبعد ورود شروط جديدة من لجنة تابعة لمجلس الشيوخ الروماني شددت من شروط الهدنة، وقع «هاملقار» على معاهدة السلام ومضمونها، أن يخلي القرطاجيون صقلية و«جميع الجزر الواقعة بين صقلية و[إيطاليا]» [جزر ليباري Lipari]، وأن يعيدوا إلى روما، دون مقابل، جميع أسراها، وأن لا يحاربوا السيراكوزيين وحلفاءهم، وأن يدفعوا، ولمدة عشر سنوات، غرامة حربية قدرها ثلاثة آلاف ومائتي تالان. وأضيفت أيضاً شروط أخرى ثانوية فيما يخص حلفاء الجانبين ومسألة منع تجنيد المرتزقة.

إن السؤال الذي يواجهنا هو: لمَ قررت قرطاجة فجأة الإنسحاب من صقلية، رغم أن هزيمتها البحرية لم تكن تمثل خطورة على سلامة قواعدها البحرية في صقلية حيث كانت قد بذلت فيها نفقات هائلة بشرية ومادية؟ إضافة إلى أن الجانب الروماني هو الذي تعرض، في الحقيقة، للهزائم المتكررة في تلك الحرب، فقد أُسر اثنان من قناصله أثناء المعارك، وهما «كورنيليوس سيبيون» الذي أُسر في «ليباري»، و«م. آتيليوس ريغولوس» في أفريقيا. ويشير «بوليبيوس» أثناء حديثه عن الخسائر البحرية قائلاً: «لقد خسر الرومان خلال مراحل الحرب قرابة سبعمائة سفينة بما فيها تلك التي غرقت بفعل العواصف، في حين خسر القرطاجيون حوالي خمسمئة» [I, 1, 63].

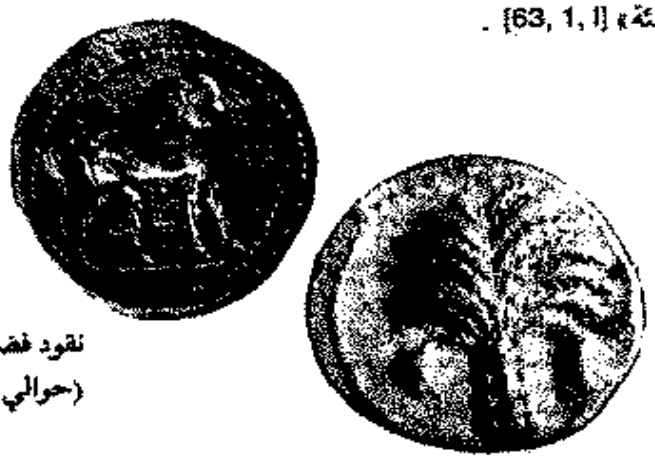

نقود فضية بونية تمثل حصاناً ونخلة (حوالي القرن الرابع ق.م)

ولمعرفة السبب الحقيقي الأساسي للجلاء عن صقلية، علينا أن نبحث خارج الأحداث المفاجئة التي تخللت الصراع المسلح بين الدولتين. وعلينا أن لاننسى، بالتأكيد، أن العاصمة البونية مع أراضيها الأفريقية هي التي كانت تتحمل العبء الحربي كله، إضافة إلى أنها كانت تعاني من هذه الحرب أكثر من غريمتها روما التي تلقت المساعدة من سيراكوز، التي استفادت من دعم حلفائها الإيطاليين في عمليات تجييش الجيوش، دون أن ننسى أن ورشات «نابولي» وجميع مدن اليونان الكبرى [«إليا Elea»، «لوكريس Locres»، «تارنتي Tarente»] قد وضعت تحت تصرفها، ولكن رغم ذلك كله لم يكن بالإمكان تفسير انهيار قرطاجة.

لقد دخلت قرطاجة الحرب للدفاع عن بعض القواعد التي كانت جزءاً من تنظيم دفاعي معقد كان يؤمن لها السيطرة على البحر المتوسط الغربي. ومع ذلك، لم يكن القرطاجيون قد أدركوا مدى الدور الذي يمكن لصقلية أن تلعبه ضمن هذه المنظومة الدفاعية. ألم يبقى القرطاجيون، بعد الهزيمة الساحقة التي ألحقوها بالإغريق عام 480 ق.م في «هيمير Himere» منزوين في أقليم ضيق في الجزيرة؟ ونضيف أيضاً، أن المعاهدات التي كانت وقعتها مع روما الجمهورية لم تشترط مطلقاً وضع قيود أو مراقبة العمليات التجارية مع صقلية القرطاجية، في حين كانت التجارة ممنوعة تماماً بين روما من جهة وأفريقيا وسردينيا من جهة أخرى. وبالنتيجة، كان يبدو أن الحكومة القرطاجية لم ترَ في الجلاء عن صقلية بداية لتفكك شبكتها التجارية، كما أن جماعة نافذة من الأقلية الحاكمة هناك عملت، والحرب لاتزال مستعرة، على تحبيذ فكرة التراجع تلك. وفي النهاية رجحت وجهة النظر التي تفصل، بحساب النتائج، فقدان صقلية.

رأينا أن النوميديين، الذين استغلوا الحملة الرومانية بقيادة «ريغولوس»، قد ثاروا ضد قرطاجة. ففي محاولة منها لمواجهة الأعباء المالية المترتبة على الحرب، حاولت الحكومة تخفيفها بإخضاع الشعوب الأفريقية لمختلف أنواع الإضطهاد والاستغلال وكان من بين حكام المقاطعات واحد اسمه «حنّون الكبير» (وهو غير «حنون» الذي كان قد سبقه بقرن من الزمن) اشتهر بقسوته في استنزاف رعاياه، وكان

قد خلف «هاملقار» (الذي أرسل إلى صقلية في عام 247ق.م)، وكلفته الحكومة بإعادة الأمن إلى الأقاليم التي سادتها الإضطرابات. ولم يوافق على قمع القبائل المتمردة التي كانت تتكفل بنفقات الفرق العسكرية الموجودة في أراضيها وذلك للتخفيف من النفقات الحكومية، فباشر العمليات العسكرية لتوسيع الأراضي البونية. ويذكر لنا «ديودور 2, 10, XXIV» و«بوليبيوس 73, 2, 1» احتلال مدينة «هيكاتومبيلوس Hecatompylos» الأفريقية الكبيرة «تيبيسا Tebessa» الواقعة في الجنوب الشرقي من «الجزائر» - وأدى هذا الانتصار إلى تعيين «حنّون الكبير»، فيما بعد، قائداً للجيوش القرطاجية في ليبيا كلها. ونشير أيضاً أن قرطاجة في الوقت الذي كانت توقع فيه معاهدة السلام مع روما - كانت تباشر احتلالها لمدينة «سيكا Sicca» [الكف Kef]، التي تجمع فيها المرتزقة المنسحبون من صقلية. لقد كانت سياسة التوسع هذه في الأراضي الليبية تُرضي ولاشك أولئك الذين كانوا، ومنذ وقتٍ طويل، يرغبون بإقتطاع المزارع والمناطق الريفية الغنية التي وجدوا فيها معيناً لاينضب من الثروات التي ربما كانت في نظرهم تعوض فقدان صقلية.

كان يوجد ضمن العائلات القرطاجية الرئيسية الحاكمة مفهومان «امبرياليان»: الأول، ويمكن أن نطلق عليه «المفهوم الواقعي»، كان يرى في أفريقيا مجال توسع رحب، والآخر، وكان لايزال متمسكاً بحلم الماضي العظيم الذي سيصبح حُلم «البرقيين»، كان يرنو إلى البحر المتوسط. لقد كانت المكاسب مركبة بشكل قوي وكان من الصعب إيقاف الخيار السياسي. لقد كانت المجموعة المؤثرة التي يقودها «حنون الكبير» مستعدة لإقامة علاقات محدودة مع روما، ووجدت أصداء لطموحاتها في أوساط طبقة الأشراف الرومان المحافظين من أسرة «فابيوس»، فأُجريت بعض الاتصالات الغنية بالوعود لتعزيز المكاسب المتبادلة، بيد أن معاهدة عام 241ق.م لم تحمل لقرطاجة السلام الموعود، إذ اندلعت الحرب في أفريقيا هذه المرة.

حرب المرتزقة و«الحرب الأفريقية»

كانت السياسة التي نادى بها «حنّون الكبير»، وأنصاره تطالب بوضع حدٍ للصراع الذي كان يفرض جهداً عالياً كبيراً أتى على ثروة الدولة القرطاجية. وكانت قرطاجة قد حاولت اقتراض ألفي تالان من «بطليموس الثاني الفيلادلفي Ptolemee II Philadelphe»، غيرأن ملك مصر رفض مدها بالمال المطلوب متذرعاً بأنه لايريد أن يقف في صف أي من الفريقين المتحاربين. كما أن معاهدة السلام مع روما، من جهة أخرى، كانت تفرض على قرطاجة أن تدفع فوراً ألف تالان من مجمل الغرامة الحربية المفروضة. وبسبب هذه الظروف قررت الحكومة القرطاجية أن تؤجل دفع الرواتب والمكافآت المستحقة للمرتزقة. وكانت تلك خطيئة ارتكبتها الأقلية الحاكمة إذ استعرت حربٌ ضروس طوال ثلاث سنوات وأربعة أشهر (من عام 241 وحتى 238 ق. م) الحقت الدمار بالأراضي القرطاجية واوشكت أن تطيح بالدولة برمتها [بوليبيوس 88, 2, I].

عاد «هاملقار» إلى أفريقيا، بعد أن تلقى أمراً بالدخول في مفاوضات مع القنصل «كاتولوس» وتوقيع معاهدة مع «روما» رغم أنه لم يكن يرغب أبداً في ضمان السياسة التي كان مُلاّك الأراضي البونيون يفرضونها. وتوقف هناك، في قرطاجة، عن ممارسة أي نشاطٍ ساعياً في الوقت ذاته إلى تقوية علاقاته مع المجموعات المناوئة لـ«حنّون الكبير». وفي صقلية، تحمل «جيسكون» قائد حامة «ليليبي» مهمة تسريح الجيوش، إذ كان عليه، حسب نصوص المعاهدة، أن يخلي بأقصى سرعة القواعد التي مازالت في أيدي القرطاجيين والتي كان يربط فيها عشرون ألف جندي كانوا ينتظرون بفارغ الصبر أن تسدد لهم الحكومة رواتبهم المتخلفة. ووجد كثيرٌ منهم أنفسهم، وغالبيتهم من المرتزقة، أمام مستقبلٍ غير مضمون، ولم تكن عملية التسريح مُهدئة للنفوس. وكان من بينهم المرتزقة الإيبريون والغاليون وعدد من الليغوريين والبالياريين، إضافة إلى المرتزقة «النصف إغريقيين» ـ كما يسميهم

«بوليبيوس» مصدرنا الأساسي في تأريخ هذه الأحداث (67,2,1). غير ان القسم الأعظم منهم كان من الليبيين الخاضعين لقرطاجة، وقسمٌ منهم لايُعد من المرتزقة إذ أنهم كانوا قد انخرطوا في الجيش أو جُنّدوا بالقرعة.

رتب القائد القرطاجي «جيسكون» الأوضاع كي تتم عملية نقل القوات إلى أفريقيا. بحيث تتمكن الحكومة من تدبير أمورها وتنظيم دفع مستحقات القوات عن وصولها، وتتمكن من ترحيل المتطوعين الأجانب إلى ديارهم. فلقد كان القرطاجيون يتحاشون تجميع تلك الفرق حول مدينتهم. غير أن ما حدث هو أنه وبذريعة المصاعب المالية، تركت الحكومة القرطاجية جماعات المرتزقة تتجمع شيئاً فشيئاً، على أمل أن تصفي أمرهم بضربة واحدة بمساعدة الجيش القرطاجي، وتجبرهم بذلك على التنازل عن جزء من مستحقاتهم. ولكن، ومثل بقية الأخطاء التي كانت ترتكب ليل نهار، تلقى الضباط الأوامر بنقل الجنود المرتزقة إلى مدينة «سيكا» [الواقعة على بعد مئتي كيلومتر من قرطاجة] لإنتظار جمع الأموال المطلوبة. غير أن نتيجة هذه العملية كانت كارثة كما أن إبعاد الخطر مؤقتاً لم يكن حلاً ناجعاً.

وبعد ذلك، قدم «حنّون الكبير» إلى «سيكا»، وكان يتصرف كأنه الحاكم العسكري للمناطق الأفريقية التابعة لـ«قرطاجة»، وأدعى أن العاصمة تمر بضائقة مالية، طالباً من الجنود أن يتنازلوا عن جزء من رواتبهم التي يستحقونها حسب عقودهم، غير أن قادة المرتزقة، وبسوء نية، نقلوا لجنودهم الذين يجهلون اللغة البونية ماقاله القائد القرطاجي بشكل مغلوط، فعمّ الهيجان والإضطراب، وبإختصار، زاد هذه المهمة الأوضاع تعقيداً. فقام الجنود بنقل معسكرهم من «سيكا» إلى جوار مدينة «تونس» يدفعهم إلى ذلك تحريض قادتهم. فأدركت «قرطاجة» حينها حجم الخطر الذي يهددها مباشرة.

حاول عددٌ من أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجي البحث عما يمكن أن يهدئ المتمردين، فبذلوا لهم الوعود، وأنشأوا لهم أسواقاً كان الجنود يشترون منها سلعهم بالسعر الذي يرغبون به، إلا أنهم، ورغم كل هذه التسهيلات، فرضوا شروطاً أخرى، إذ طالبوا أن يتم تعويضهم، بعد أن يتلقوا رواتبهم، عن خيولهم التي

نفقت خلال معارك صقلية (مع أن الفرسان كانوا يأخذون خيولهم من الدولة بعد تجنيدهم)، وتسديد أثمان جراياتهم من القمح التي كانت أسعارها تحسب بكلفة عالية جداً وبأسعار سنوات الحرب. فقام «جيسكون» بنفسه، وهو الذي كان لايزال يحظى بثقة جنوده القدامى، بدفع رواتبهم. محاولاً في نفس الوقت إعادتهم إلى صوابهم وحثهم على الثقة بـ«قرطاجة». إلا أن الحانقين منهم، والذين كانت لهم أسبابهم الشخصية لمواصلة التمرد، أدركوا مدى الخطر الكامن الذي يمكن أن تؤدي إليه أية مصالحة. فاتفق أحد المرتزقة وهو عبد روماني فار اسمه «سبنديوس Spendios»، كان يخشى أن يطالب سيده به ويقتله تحت التعذيب حسب القانون الروماني، اتفق مع مثير قلاقل آخر، وهو أفريقي اسمه «ماثو Matho». وورد اسماهما في المصادر التاريخية كـ«مثيري فوضى»، ووجدا نفسيهما، بعد أن تبادلا المواثيق والعهود، في حالة حرب مفتوحة مع قرطاجة.

لم تكن هذه الحرب، في الحقيقة، حرب «المرتزقة» فقط، بل هي أيضاً «حرب أفريقيا». إذ أن «ماثو» وشركاءه سعوا إلى نقل التمرد إلى أرجاء «ليبيا» كلها، فأرسلوا مبعوثين إلى جميع مدنها الرئيسية، ورغم أن الحكومة القرطاجة قامت بتنظيم عملية دفع الرواتب إلى الجنود في محاولة لتخفيف المبالغ المستحقة عليها، فقد تحول هذا التمرد إلى انتفاضة إجتماعية.

وتفشى العصيان بسرعة في كافة أنحاء الأراضي التابعة لقرطاجة، إذ أن الأهالي كانوا، ومنذ بداية حرب صقلية، يعانون من استغلال مواردهم المالية بشكل متعسف. أن محاولات «التهدئة» إضافة إلى الاحتلال الذي سببته عمليات الرومان بقيادة «ريغولوس» لم تؤد إلا إلى زيادة الحنق وأوصلت إلى انفجار هذه «العامية Jacquerie» الأفريقية. يقول «بوليبيوس»: «لقد وقف معظم الأهالي بجانب المرتزقة وانخرطوا في هذه الإنتفاضة ضد قرطاجة، وأخذوا يمدون المتمردين بالتعزيزات والمؤن. [. . .] أما النساء اللواتي أمضين سنوات الحروب السابقة وهن مقهورات من جراء اعتقال أزواجهن أو آبائهن بهدف دفع الضرائب، فقد تعاهدن فيما بينهن، وفي كل مدينة، على المشاركة في هذه الأحداث وأن لايخفين أي شيء يمتلكنه.

وللذلك تنازلن بلا تردد عن كل مابحوزتهن من مجوهرات لتغذية نفقات الحرب» ,72) (I, 2, 70 . وبهذا تمكن «ماثو» و«سبنديوس» أن يسددا للجنود رواتبهم المتأخرة. كما كانا وعداهم، وتمكنا في نفس الوقت من مواجهة النفقات الضرورية.

احتشد سبعون ألف ليبي تحت قيادة حركة التمرد، وليس بوسعنا بطبيعة الحال أن نتأكد من صحة هذا الرقم، فهددوا «قرطاجة» وحاصروا «أوتيكا». أما «حنّون الكبير» الذي كان قد عُين من قبل الأقلية الحاكمة في قرطاجة، فقد جمع جيشاً مؤلفاً من المرتزقة والمواطنين وعززه بمئة فيل. وتمكن من فك الحصار من «أوتيكا». غير أن هذا النصر لم يكن حاسماً، إذ اتضح عدم كفاءة هذا القائد في ادارة دفة المعركة، الذي كان معتاداً على تحقيق انتصارات سهلة على السكان المدنيين. فتمت احالته إلى الإحتياط، دون أن يُعزل من وظيفته، واستدعي «هاملقار برقا» الذي كان على مايبدو القائد الوحيد القادر على تحاشي الخطر.

وبحركة ذكية قام بها، قرب مصب نهر «المجردة»، تمكن «هاملقار» في البداية من إبعاد الخطر نهائياً عن «أوتيكا»، حين هزم الليبيين والمرتزقة الذين تعرضوا لخسائر جسيمة. ثم قام القائد القرطاجي بإنشاء علاقات صداقة مع أحد القادة النوميديين واسمه «نافاراس Navaras»، وكانت له هيبة واحترام عند اتباعه، وقدم له هذا الأخير مساعدة فعالة وهي عبارة عن ألفي فارس، وشكل هذا هزيمة أخرى للعصاة إذ أُسر أربعة آلاف منهم وقتل عشرة آلاف. وتابع «هاملقار» سياسته المتسامحة، فضم إليه الأسرى الذين طلبوا أن يعودوا إلى خدمة «قرطاجة» وأطلق سراح الآخرين بعد أن تعهدوا بألا يرفعوا السلاح ضدها.

فهم قادة التمرد أن الهدف من هذه السياسة هو تحطيم نفوذهم إضافة إلى تهديد ترابط فرقهم. وقرروا، بالمقابل الرأفة التي أبداها «هاملقار» أن يردّوا بعملية حاسمة وعنيفة تجعل من المستحيل، في المستقبل، حدوث أية محاولاتٍ لرأب الصدع بين المرتزقة وقرطاجة. فقسر قائد المرتزقة الغاليين واسمه «أوتاريتوس Autaritos»، وكان قد خدم طويلاً في جيش قرطاجة ويعرف اللغة البونية وساهم منذ البداية في تصعيد هذه الحرب «التي لاتُغتفر» - أوبشكل أدق «الشرسة والوحشية» -

ولأنه لم يكن يحترم أية مواثيق تجاه خصومه، قرر أن يقتل «جيسكون» وسبعمائة أسير قرطاجي تحت التعذيب: «فقادهم المرتزقة غير بعيدٍ عن هناك، وقاموا أولاً بقطع أياديهم، بادئين بجيسكون، هذا الرجل الذي كان في نظرهم، قبل وقت قصير، ومن بين جميع القرطاجيين، موضع ثقتهم لتسوية نزاعهم مع قرطاجة، وبعد أن قطعوا أيدي الأسرى، قاموا باستئصال بقية أطرافهم وتحطيم أرجلهم ثم بإلقاء أجساد هؤلاء التعساء، الذين كانوا لايزالون يتنفسون، في خندقٍ» [المرجع السابق، 81,2,1].

أثارت أنباء هذه المجزرة أهالي قرطاجة. فطُلب من «هاملقار» و«حنّون الكبير» توحيد قواهما للإنتقام للضحايا. فأمر «هاملقار» بإعدام جميع الأسرى الذين لديه، وأمر أيضاً بسحق الأسرى الذين يُقبض عليهم في المستقبل تحت أرجل الفيلة. إلا أن محاولة التعاون بين القائدين المتنافسين أدت سريعاً إلى الهزيمة بسبب اختلاف وجهات النظر بينهما. واستفاد المتمردون من هذا الوضع الذي حل بالقوات البونية بسبب ذلك، فحققوا المزيد من التقدم، لذا كان من المُلِح الوصول إلى اتفاق فقال وإصلاح القيادة العسكرية من جديد. فعُهد إلى الجنود أنفسهم مهمة اختيار القائد الذي سيضطلع وحدة بمهمة قيادتهم، وفي هذا ولاشك نوعٌ من الإبتكار في «ممارسة الديموقراطية»، (وهذا ماأضر حتماً بمجلس الشيوخ)، وقد اختار الجنود بطبيعة الحال «هاملقار».

كان على القائد البرقي أن يواجه موقفاً أوشك على الإنهيار. إذ أن مدى «أوتيكا» و«هيبوأكرا» [بيزرت] قد انضمت إلى معسكر المتمردين، كما غرقت السفن القادمة من « امبوريا Emporia » والمحملة بالمؤن مما هدد العاصمة القرطاجية بالمجاعة. فطلب القرطاجيون المساعدة من «هيرون» ملك سيراكوز الذي لبى طلبهم بسرعة، إذ كان هو أيضاً بحاجة، بعد التغييرات الإقليمية في منطقته، إلى إيجاد قوة موازية لجيرانه الأقوياء «الرومان» الذين من جهتهم لم يحاولوا الإستفادة من المصاعب التي تواجه عدوتهم. ففي بداية حركة التمرد، قامت السفن بإفراغ شحنات من المؤن المجلوبة من إيطاليا إلى المتمردين، فاحتجت الحكومة البونية على هذا العمل، ولحسن حظها، كانت الفئة التي وقعت معها معاهدة الصلح في

عام 241 ق.م لاتزال مسيطرة على الحكومة الرومانية. فتعهدت روما بأن تسلك في سياستها مسلك «أصدقاء» القرطاجيين، وطُلب من التجار الرومان التساهل قدر امكانهم أمام طلبات التزود بالمؤن الموجهة إليهم ومنع التعامل مع المتمردين. كما رفض، فيما بعد، مجلس الشيوخ الروماني عرضاً قدمه له مرتزقة سردينيا بتسليمهم الجزيرة، وكان قد رفض عرضاً من «أوتيكا» بأن تضع نفسها تحت الحكم الروماني. لقد كان الرومان يعلنون أنهم مهتمون باحترام نصوص المعاهدة الموقعة في «صقلية».

خلال هذا الوقت، كان «هاملقار» قد شدد ضغطه على المتمردين، ورغم بعض الخسائر فقد تمكن من انهاك قوى خصومه. وفي النهاية، تمكن من عزل المرتزقة وحصرهم في منطقة ضيقة، مما اضطرهم بسبب المجاعة التي حلت بهم لقتل الأسرى والعبيد وأكل لحومهم. لقد كان موقف المتمردين يائساً، فاتجه وفد يضم عشرة أعضاء، من بينهم «سبنديوس» و«أوتاريتوس» إلى معسكر البونيين للتفاوض. واتفق الجانبان على أن تحتفظ قرطاجة بعشرة رجال تختارهم من بين المتمردين، وتسمح للآخرين بالرحيل بد أن يتركوا أسلحتهم ومعداتهم. فوافق «هاملقار» معلناً أن اختياره قد تم، وقد قام باعتقال الموفدين العشرة. كانت هذه ضربة ذكية، إذ أن المرتزقة الذين يقول «بوليبيوس 85,2,I»، أن عددهم كانوا حوالي أربعين ألفاً، لم يعرفوا لمَ قُبض على مبعوثيهم، فاستعدوا للقتال، غير أن الفرق البونية كانت تحيط بهم مع الفصيلة التي سحقتهم «إن اسم المكان التي حدثت فيه المجزرة هو «المنشار»، وهو يشبه في شكله التضاريسي اسم هذه الأداة». وقد أطلق الشاعر الفرنسي «فلوبير» على هذا المكان اسماً مثيراً للذكريات هو «مضيق البلطة». ومع أنه لم يعد بالإمكان تحديد ذلك المكان بدقة، فباستطاعتنا مع ذلك أن نخمن أنه يوجد في المنطقة الجبلية من منطقة «جبل رصاص» بين «زغوان» و«غرومباليا».

أصبحت تلك الحرب في أيامها الأخيرة، أما السكان الأفريقيون في المدن والأرياف، فقد تأثروا بقوة الجيش القرطاجي المنتصر وأبدوا من جديد علامات الخضوع. وكانت «تونس» لاتزال بيد «ماتو». وقبل أن يباشر «هاملقار» عملياته

الحربية ضد قائد المرتزقة، قام بصلب «سبنديوس» والأسرى الآخرين أمام أسوار المدينة وعلى مرآى من رفاقهم في السلاح. لكن انتقام هؤلاء لم يتأخر إذ قاموا بهجوم على معسكر الجيش البوني، مستغلين ضعف تحصيناته، مكبدينه خسائر باهظة، بل أنهم أسروا ضابطاً قرطاجياً كبيراً اسمه «هانيبعل» كان المجلس الشعبي قد اختاره كمساعدٍ لـ«هاملقار» في قيادة الجيش، «فاقتادوه فوراً إلى جانب صليب «سبنديوس» وأخضعوه لعذابٍ شديد، ثم سُمِّر حياً على الصليب بعد أن أنزلوا عنه جسد رفيقهم، وأخيراً، وعلى مقربة من جسد «سبنديوس» قاموا بذبح ثلاثين من علية القرطاجيين» [المرجع السابق 86,2,1]. وبعد هذه الحركة الإنتقامية (التي تذكرنا بالتضحية التي قدمها القرطاجيون بعد سقوط «هيمير» عام 409 ق.م، وفي المكان ذاته الذي مات فيه «هاملقار» الماغوني»، وكانت تلك التضحية مؤلفة من ثلاثة آلاف أسير كقرابين تكفيرية)، ترك «ماثو» تونس.

وكما حدث قبل سنتين، حينما تم إعدام «جيسكون»، فقد اعتبرت الحكومة القرطاجية أن «هاملقار» أبدى عجزاً في منع هذه المذبحة، بحيث لم يعد بالإمكان أن تترك المسؤولية الكاملة في قيادة العمليات الحربية. وكانت هذه فرصة مجلس الشيوخ القرطاجي كي يستعيد صلاحياته وليعزز، في نفس الوقت، موقف «حنّون الكبير» الذي كان قد أبعد من قبل جنود الجيش. وقام وفدٌ يضم ثلاثين عضواً من المجلس بترتيب مقابلة توصلوا بعدها إلى مصالحة القائدين الخصمين اللذين وافقا على العمل سوية وبرأي موحد، فتجددت العمليات الحربية في منطقة «ليبتس مينور Leptis Minor» [جنوب سوسة]، وتحركت التعزيزات من طرفٍ لآخر، والتقت الجيوش للمرة الأخية في معركة حاسمة، وكان انتصار القرطاجيين فيها تاماً، إذ أُبيد معظم الليبيين واستسلم الآخرون فيما بعد. وأُسر «ماثو» حياً، وسيق مع بعض رفاقه في موكب نُصرٍ في العاصمة، على مرآى من الشباب القرطاجي. وفي يوم النصر هذا، وأمام أعين الشعب كله، عُذب ثم أُعدم.

لقد انتهت هذه الحرب «التي شهدت من العنف والفظاعات مايتجاوز بكثير جميع ماشاهدناه حتى الآن» [بوليبيوس، 88,2,1]. غير أن هذا الانتصار كان مشوباً

بالمرارة بالنسبة لقرطاجة فطوال سنوات الحرب، كانت روما تلاحظ أن الأقلية الحاكمة الموالية لـ«حنّون» تفقد نفوذها شيئاً فشيئاً، مقابل صعود نجم الموالين للقائد البرقي الذي بدا المنتصر الحقيقي في حرب «أفريقيا» تلك.

لقد استبد القلق بالفئة «الأمبريالية» في مجلس الشيوخ الروماني بسبب التحولات التي طرأت على السياسة الداخلية القرطاجية والتي فتحت الطريق المحاولات الإصلاح الديمقراطي. إذ أن الشروحات التي قدمتها فئة الـ «Patres» كانت تبدو أكيدة. فلقد انتهت العمليات الحربية التي دارت في منطقة القبائل النوميدية، كما أن «حنّون» الذي كان موضع انتقاد، استدعي إلى «قرطاجة» وعُزل من قيادة الجيش. أما «هاملقار»، وعلى الرغم من المزاعم التي تقدم بها خصومه بإرتكابه عمليات اختلاس في صقلية، فقد تمكن من الحصول على دعم عدد من الشخصيات ذات النفوذ، مثل صهره الجديد «هاسدروبعل»، وأصبح قائداً أعلى لكافةالقوات البونية في أفريقيا، ثم أصبح فيما بعد قائداً للقوات البونية في «اسبانيا».

كان هذا يعني مؤشرات غير حاسمة عن السياسة التي سترجح كفتها في قرطاجة. وبهذا، لم يكن بمقدور مجلس الشيوخ الروماني أن يضمن السياسة المتبعة للهيمنة البونيةفي البحر المتوسط، إذ أن الرومان لم ينسوا أن «أصدقاءهم» هؤلاء كانوا، فيما مضى، ألدّ أعدائهم، وكانوا على وشك تحطيمهم خلال حرب «صقلية» الطويلة. لقد أعاد الرومان النظر من جهة أخرى، وبسهولة، في مواقعهم إزاء البونيين. ففي حين كانوا يطالبون بإقامة تحالفاتهم على أساس فضيلة الـ «fides» (وتعني الثقة المتبادلة واحترام التعهدات) كان التصور البوني لهذه الـ «fides» منحصراً في إظهار الخشة و«النية السيئة».

لهذا السبب أصغى مجلس الشيوخ الروماني في عام 238ق.م، حينما قام مرتزقة سردينيا المتمردون، وبسبب الضغط الذي مارسه عليهم أهل البلاد الأصليون، بالبحث عن ملجأ في إيطاليا، ثم اقترحوا للمرة الثانية تنظيم حملة لاحتلال الأملاك القرطاجية، أصغى بسرور لهذا النداء الذي أتى في الوقت

المناسب، وقرر الشروع باجتياح الجزيرة الكبيرة التي كانت في نظر الرومان حطاماً مهجوراً.

كانت هذه العملية خرقاً جائراً للمعاهدة الموقعة مع قرطاجة عام 241ق.م، بيد أن جميع احتجاجات قرطاجة لم تُجدِ نفعاً. لذا اقتضى الأمر من الحكومة البونية أن تجهز حملة لمحاربة المتمردين وإعادة الأمور إلى نصابها، فتظاهر الرومان بالاعتقاد أن هذه الاستعدادات موجهة ضدهم، واتخذوا منها ذريعة لإعلان الحرب. وبما أن القرطاجيين كانوا منهكين بسبب الحربين المتتاليتين اللتين خرجوا منهما، فلم يتمكنوا من مواجهة تحدي روما، واضطروا إلى الإنسحاب من سردينيا، ودفع غرامة قدرها 1200 تالان. وكلف القنصل الروماني «تي. سمبرونيوس غراكشوس Ti. Sempronius Gracchus» بالسيطرة على الجزيرة، ولكنه باشر في نفس الوقت احتلاله لجزيرة «كورسيكا».

لقد أدى صلف مجلس الشيوخ الروماني هذا إلى نتيجة عكس ماتوخاها. فبدلاً من إضعاف شعبية «هاملقار» وتوجيه ضربة إلى جماعته التي كانت تتمتع بالنفوذ في الحكومة القرطاجية، تعززت هيبة القائد البرقي. كما أن تصرف روما هذا جعل الطريق لتحقيق طموحات البرقيين ممكناً. . . .

حرب هانيبعل

كتب المؤرخ الروماني «تيت ـ ليف»: (إن روح هاملقار القوية لم يكن بمقدورها أن تتعزّى عن ضياع صقلية وسردينيا. فقد كان يرى أن اليأس هو الذي أدى إلى تسليم صقلية، أما سردينيا، فقد استغل الرومان الإضطرابات التي كانت تهز أفريقيا كي ينتزعوها بحركة غادرة ويفرضوا عليه غرامة أخرى) «1, XXI». كان «بوليبيوس» قد تحدث أيضاً عن فكرة «الحرب الانتقامية». ويرى هذا المؤرخ أن شروع «هاملقار» ببناء امبراطورية له في اسبانيا كان بدافعٍ من «حقده الشخصي» تجاه روما، إذ توجهت ضده نقمة مواطنيه إثر قضية سردينيا، فانطلق في غزو اسبانيا معتقداً

أن هذه البلاد قد تقدم له المصادر الضرورية التي تجعله قادراً على شن الحرب على روما» (10, 1, III) .

غير أن طموحات القائد البرقي كانت ولاشك كبيرة جداً . فحين عاد إلى بلاد «ترشيش» تلك ، التي أدت ثرواتها في السابق إلى ازدهار «صور» ، اقترح أن تُستغل بشكل منظم مناجمها الواقعة في جبال «السييرا مورينا Morina » من جهة ، ومن جهة أخرى أن يتم إنشاء قاعدة برية واسعة وقوية ، تكون بعيدة بما فيه الكفاية عن عش الزنابير الروماني ، ويمكن لقرطاجة أن تجد فيها نفحة حياة جديدة وأن تستخدمها كمعبرٍ للانطلاق من جديد لإعادة السيطرة على البحار الصورية ولإكتشاف آفاق جديدة . وهذا لايدل على عقلية انتقامية بقدر مايشير إلى طموح المغامر في لحظة جامدة . إن عزم البرقيين هذا لم يكن إذن يهدف إلى إجراء انتقالي متأخر للصمود أمام الضربات الرومانية ، بل العودة إلى التوازن المضاد في البحر المتوسط ، وهذا هو الشرط الأساسي لحماية الإحتكار التجاري في الجزر وفيما وراء أعمدة هرقل وسواحل الأطلسي .

استطاعت العاصمة البونية خلال بضع سنوات من إعادة بناء ثرواتها من جديد ، بفضل الشحنات النفيسة التي كانت تؤوب إلى مرافئها . وكان على القرطاجيين أن يحققوا غايتهم الثانية . فحينما استلم «هانيبعل» زمام الأمور عَقب «هاسدروبعل» رأى أن الظروف مناسبة له ـ وكان غزو اسبانيا لايزال متواصلاً ـ فاستغل بذكاء مشكلة «ساغونتي Sagonte » كي يضع خصمه الروماني أمام التجربة . فإما أن يسمح له بمواصلة الرحلة الأولى هذه التي تقود الجيش البوني القوي إلى احتلال المدينة الإيبرية التي تحالفت من جديد مع روما ، ومثل هذا النجاح يعيد الهيبة لقرطاجة ويدشن نهوضها من جديد ، وإما الدخول في طريقٍ مليء بالمخاطر لصراع دامٍ مسلح .

قاومت «ساغونتي» لمدة ثمانية أشهر ، حوصرت خلالها ولم تتلق أية امدادات ، وكانت روما قد تعهدت بأن أي اعتداء على هذه المدينة المتحالفة معها يعني اعتداء على الجمهورية نفسها . كما أن اتفاقاً وقع عام 226 ق . م بين مبعوثٍ

عن مجلس الشيوخ الروماني و«هاسدروبعل»، خليفة «هاملقار»، التزم بموجبه حاكم «إيبريا» ألا يتجاوز الجيش القرطاجي نهر «الإيبر» مسلحاً، إذ أن كافة الأراضي الواقعة جنوب هذا النهر كانت تحت النفوذ اليوني. وحين قدم الرومان احتجاجاتهم إلى الحكومة القرطاجية، وجدوا في «حنّون الكبير» مدافعاً عن قضيتهم كما يروي المؤرخ «تيت ـ ليف»: «دافع عنها بحماس مطالباً، أن يتم تسليم ابن منافسه «جذوة الحرب» إلى روما «كتكفير عن خرقه للمعاهدة». غير أن مجلس الشيوخ القرطاجي، حيث كان نفوذ «البرقيين» قوياً منذ حوادث عام 238 ق. م، تضامن مع القائد الشاب، وكان عمره آنئذٍ ثمانية وعشرين عاماً والذي أصبح في نظر الأمة القرطاجية المُهانة يمثل «روح الحرب».

لقد وصلتنا قصة تجدد الحرب بين الدولتين عبر ماكتبه «بوليبيوس» [33, 1, III] و«تيت ـ ليف» [18, XXI] وتحكي عن آخر لقاء جرى بين وفد روماني والحكومة القرطاجية عام 218 ق. م. إذ كان هذا الوفد يأمل بلوغ مايريده مثلما كان يحدث خلال العشرين عاماً الماضية حيث كان يكفي التلويح بالحرب للحصول بلا مقابلٍ على تراجعاتٍ من «حليفهم» الجسور. فقد طالب هذا الوفد المؤلف من خمسة أعضاء بتسليم «هانيبعل» ومستشاريه إلى روما. غير أن القرطاجيين ذكّروهم أن معاهدة عام 241 ق. م التي ارتبطت بها الدولتان لم تذكر أبداً مدينة «ساغونتي»، وأن قرطاجة لم توقع على أية تعهدات تخص هذه المدينة، غير أن عضو الوفد الروماني «ك. فابيوس Q. Fabius» وهو أكبر الأعضاء سناً، أمسك بثوبه بطريقة مسرحية، وقال: «إنني أحمل إلى هنا السلام أو الحرب، فاختاروا!» فرد عليه القاضي الذي كان يرأس الجلسة، وهو يهز ثوبه،: «بل اختاروا أنتم». فأعلن رئيس الوفد الروماني عندها أنه يختار الحرب. فهتف القرطاجيون جميعاً: «رضينا بذلك، وسنعرف كيف نحارب مثلما قبلنا بالحرب». منذ هذه اللحظة، أُعلنت الحرب بين الدولتين التي اقتضى أن تستمر سبعة عشر عاماً.

وحين أعلن عن قطع العلاقات بين الجمهوريتين، قرر مجلس الشيوخ الروماني وضع خطة جريئة تسمح بتحطيم الهجمات البونية فور حدوثها. إذ كان على

القناصل الذين كُلف كل واحدٍ منهم قيادة جيش مؤلف من فيلقين معززين بوحدات عسكـرية مساعدة، أن يوجهوا ضرباتهم إلى خصمهم بهدف شلّه في منطقتين حساستين. فقد كُلف القنصل «تيب سمبرونيوس لونغوس Tib. Sempronius Longus» بحشد قواته في «ليليبي» لنقلها إلى أفريقيا، ومن ثم التوجه فوراً إلى قرطاجة عاصمة الامبراطورية البونية. أما القنصل «ب. كورنيليوس سيبيون P. Cornelius Sipion» فكان عليه الإنطلاق من «بيزي Pese» على رأس جيش باتجاه اسبانيا كي يضرب القوات القرطاجية في هذه الأمبراطورية البرقية. بيد أن القرطاجيين كانوا يعملون بنفس السرعة بحيث لم يتركوا للرومان فرصة لإتمام مشاريعهم. إذ انهارت الاستعدادات الرومانية التي كانت تجري لشن هجومٍ معاكس.

كما أظهر «هانيبعل» حين سماعه نبأ إعلان الحرب، أنه ليس فقط رجل عمل ومخطط من الطراز الأول على شاكلة «هاملقار» و«هاسدروبعل» بل أيضاً قائد سياسي. فخلال المصاعب التي عانى منها الرومان لاتفاق شعوب «الغال السيزالبين Gaule Cisalpine» في ايطاليا العليا، الذين خضعوا حديثاً لسيطرتهم، حرص «هانيبعل» على أن لايهمل هذه القوى الحيوية التي يمكن أن تكون مفيدة له. فأرسل مبعوثين إلى زعماء هذه الشعوب الكلتية الغاضبة ليطلب منهم التحالف معه في صراعه مع عدوهم المشترك. وأرسل «الغاليون السيزالبيون» من جهتهم وفداً يضم عدداً من وجهائهم إلى «قرطاجة» يحمل وعداً ببذل المساعدات الحربية، كما قدموا أيضاً بعض المعلومات الدقيقة عن السبل المؤدية إلى معابر «جبال الألب»، وكذلك عن المشاعر العدائية التي تكنها الشعوب القاطنة في سهل «البو Po» للحكومة الرومانية. وبفضل هذا التحالف الضروري جداً لإتمام الإجتياح المرتقب، عهد «هانيبل» لشقيقه «هاسدروبعل» حُكم اسبانيا، تاركاً له تعليماتٍ عن كيفية التصرف في وظيفته والوسائل التي عليه اتباعها في حالة حدوث هجومٍ روماني.

في شهر أيار من عام 218 ق. م، انطلق «هانيبعل» من مدينة «قرطاجنة». وبعد أن عبر نهر «الأيبر» الذي يقع على بعد مئة وخمسين كيلومتراً شمال مدينة

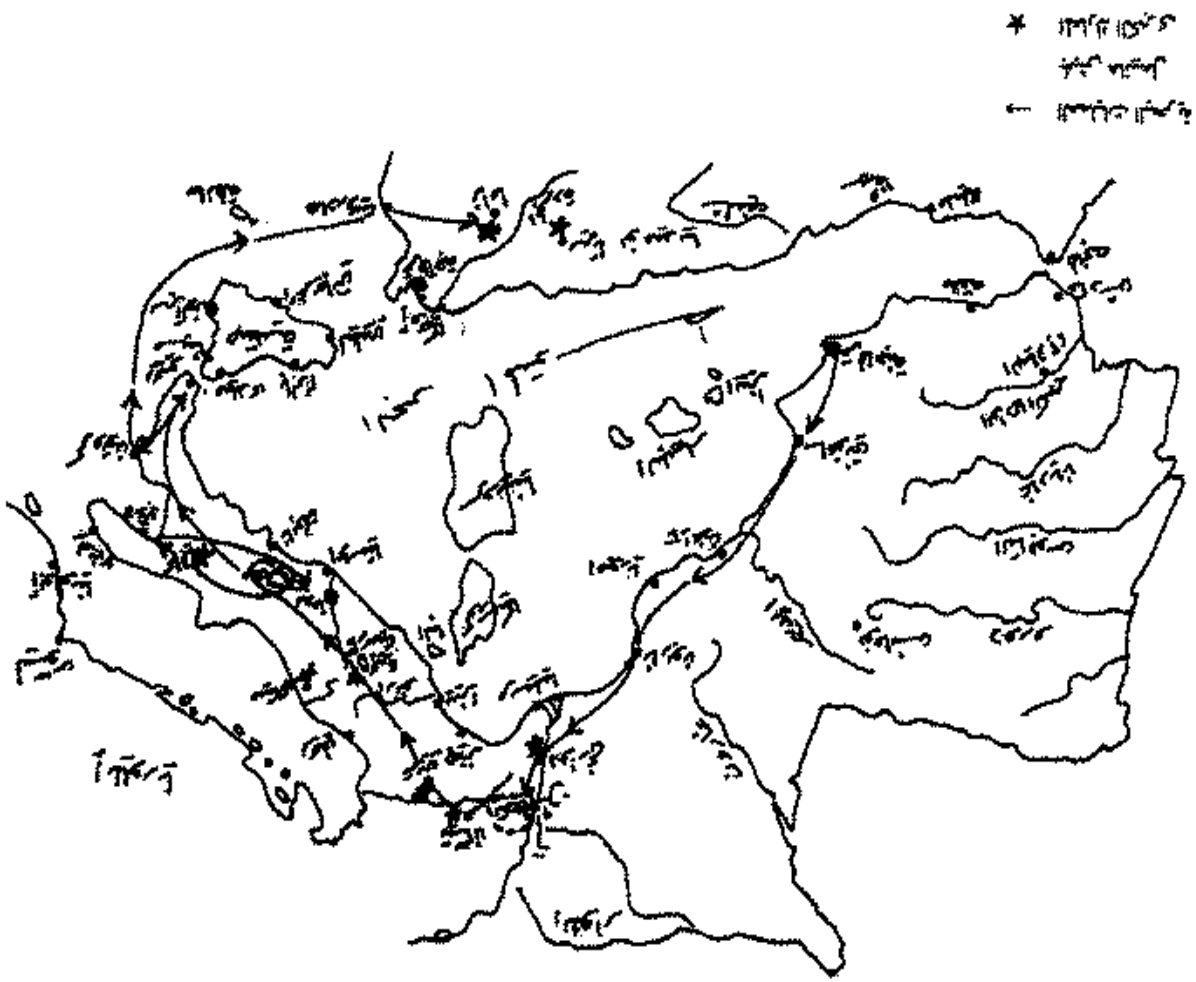

(الحرب البونية الثانية 218 - 201 ق. م)، وخط سير «هانيبعل» من «قرطاجنة» إلى «زاما»

«ساغونتي»، والذي كان يمثل الحد الفاصل بين منطقتي نفوذ القرطاجيين والرومان، كما نص اتفاق عام 226 ق. م.

باشر القائد القرطاجي شق طريقه بإخضاع القبائل الإيبرية المنتشرة بين مجرى النهر وجبال «البيرنيه»، ولم يستطع اخضاعها إلا بعد معارك عنيفة وخسائر ثقيلة. وظل هذا الإقليم صعب الإنقياد، فترك فيه «هانيبعل» قسماً من وحداته العسكرية بقيادة أحد ضباطه واسمه «حنّون». وحسب مايذكره «بوليبيوس» [35, 2, 33, 1, III] ، الذي يعتمد بدوره على نقش محفورٍ بأمر «هانيبعل» نفسه، كان الجيش البوني حين وصوله إلى بلاد الغال يُعد خمسين ألفاً من المشاة وتسعة عشرة ألفاً من الفرسان وفرقة تضم سبعة وثلاثين فيلاً.

حين علم القنصل «ب. كورنيليون. سيبيون» بتقدم الفرق البونية حاول وقفها بانزال قواته في «مرسيليا»، غير أن «هانيبعل»، الذي تمكن من شق طريقه تارة بالقوة وتارة ببذل الأموال، تمكن من الوصول إلى نهر «الرون Rhon» بسرعة عظيمة، في أوائل شهر آب. وعلى ضباب النهر، تمكن من الحصول على عددٍ كبير من الزوارق وبنى قسماً آخر منها، ثم قام بمناورة ذكية استهدفت تطويق وضرب القبائل الغالية المعادية التي تراقب الضفة اليسرى. وتمكن بفضل الزوارق الكثيرة التي أصبحت لديه من نقل جيشه كله بما فيه الخيول التي كانت تسبح مقطورة خلف الصنادل، كما نقل الفيلة بواسطة جسور متحركة مصنوعة من طوافات غطيت بالحشائش. ومن الممكن أن يكون المكان الذي عبر فيه نهر «الرون» قرب نقطة التقائه مع نهر «سيز Ceze» [في أعالي نهر الأورانج Orange].

لقد تحاشى «هانيبعل» الإصطدام بفيالق «سيبيون» فلم تحدث أية معركة طوال تلك الفترة. باستثناء اشتباك عنيف بين فرقة استطلاع من الفرسان النوميديين ومفرزة رومانية. كما قدم عدد من الزعماء الغاليين في سهل «البو» ليضعوا أنفسهم تحت تصرف القائد القرطاجي، ولينصحوه بمواصلة طريقه دون تأخير. أما «بوبليوس سيبيون» فقد عاد إلى إيطاليا تاركاً قيادة فيلقيه إلى أخيه «كنايوس Cnaeus» طالباً منه

التوجه إلى اسبانيا، وهناك «أي في إيطاليا» قاد جيشاً في منطقة «السيزالبين» وانتظر هناك وصول غريمه.

وبعد أن عبر «هانيبعل» مجرى نهر «الإيزارا Isara» [ربما هو نهر «الإيزر Isere] باتجاه بلاد «اللوبروجيين Allobroges» وصل إلى سفوح جبال «الألب»، وكان فصل الخريف قد حلّ، وأخذت تتضح له مصاعب الحملة. ولسنا هنا في مجال الدخول في الفرضيات التي حاولت رسم خطة للطريق التي سار عليها الجيش البوني[٩٦]. وباستطاعتنا أن نقول أن البونيين حين وصولهم إلى وديان «موريان Maurienne» أو «تارانتيز Tarentaise»، قاموا باجتياز جبال «الألب» في منطقة تقع بين ممر «كلابيه Clapier» وممر «بوتي سان برنارد Petit Saint- Bernard»، غير أن هذا يبقى ضمن مجال الإفتراضات إذ لاتوجد بين أيدينا أية معطيات دقيقة.

وبعد مسير استغرق خمسة عشرة يوماً، بلغ الجيش البوني أسفل السفوح الإيطالية. وقد انخفض عدده في جنود المشاة، حسب الأرقام التي ذكرها «بوليبيوس III, 56, 2» إلى إثني عشر ألف أفريقي وثمانية آلاف إيبري، ولم يبق لديه أكثر من ستة آلاف فارس. ويضيف المؤرخ قائلاً: «لقد تكبد هانيبعل في عبوره لجبال الألب خسائر جسيمة في الجنود بسبب الهجمات التي كان يشنها عليه العدو أو خلال عبورهم المجاري المائية، إضافة إلى خسائر كبيرة بالخيول والحيوانات الأخرى بسبب وعورة الطريق والعوائق التي صادفتهم أثناء مسيرهم في الألب». إلا أن هذه الخسائر الباهظة، والتي كانت بالتأكيد هامة جداً في المراحل الجبلية، لاتفسر تبديد ثلاثة أخماس جنود المشاة منذ عبور جبال «البيرينه». لذا يمكننا أن نقول أن «هانيبعل» قام خلال الطريق التي سلكها منذ وصوله إلى بلاد «الغال» وحتى نهر «الرون» (حيث كان الجيش الذي لم يخض أية معركة حقيقية لايضم أكثر من ثمانية وثلاثين ألفاً من المشاة وثمانية آلاف فارس)، قام بفرز قسمٍ كبير من جيشه وإبقاه كحاميات كلفت بحماية النقاط الاستراتيجية. وكان يقصد بذلك المحافظة على خطوط اتصالاته مع اسبانيا، إضافة إلى احتمال تمرد بعض القبائل في بلاد «الغال» الجنوبية.

وصـــل الجيش القـرطـاجي في نهـايـة شهـر أيلول إلى بلاد «التـوريسكيين Taurisques» وتمكن من احتلال «تورينو Turin»، ثم تابع اجتياحه للسهل البادائي. وكـان لهـذا الخبـر وقـع الصـاعقـة في رومـا، إذ كان مجلس الشيـوخ متأكداً من أن «هـانيبعـل» لن يجـرؤ، رغم شجـاعتـه، على اجتيـاز جبـال الألب في هذا الفصـل المتأخـر، كمـا كان هذا المجلس لايـزال يدرس آخـر التقـاريـر المتعلقـة بسقـوط «سـاغـونتي». فتم استدعاء الفرق المحتشدة في «ليليبي»، والتي كان من المفترض إنـزالهـا في أفـريقيـا، وتم نقلهـا بواسطـة الاسطـول حيث توجهت هذه الفرق بقيادة القنصل «سمبرونيوس» بسرعة إلى «آريمينوم Ariminun» [ريميني Rimini].

أمـا «ب. سيبيـون» فكـان يتقـدم للقـاء «هانيبعل» بهدف إيقاف تقدمه باتجاه «روما». إلا أنه تعرض لأول هزيمة على ضفاف نهر «تيسّان Tessin» إذ لاذت فرقه بالفرار، في حين أُصيب هو بجراحٍ خطيرة. ونتيجة لإنتصار البونيين، تمرد الغاليون الذين كانوا يحاربون في صفوف «سيبيون» وانضموا إلى «هانيبعل» بعد أن قتلوا عدداً كبيـراً من الجنـود الـرومـان. لقـد استقبلهم القائد القرطاجي بمودة واستخدمهم في البـدايـة كعنـاصر دعاية بين شعوبهم بهدف حثهم على التحالف معه، وكانت نتيجة ذلك نجاحاً ساحقاً، فقد أصبحت التعزيزات العسكرية والتموينية مضمونة، كما أن حامية مدينـة «كـلاستيـديـوم Clastidium» التي كانت توجـد فيها مخازن الحبوب، استسلمت لهـانيبعـل بواسطـة قائـد المـدينـة، وهـو ضابـطٌ يعـود أصله إلى مدينـة «بـرانـديزيوم Brundisium» [براندیزي Brindisi]، وكان سير الأمور على هذا الشكل معبراً عن الإنحلال الذي تواجهه الجمْهورية الرومانية، وفي الأيام الأخيرة من كانون الأول عام 218ق.م، وعنـد طلوع فجـر مشـوب بالضبـاب في سمـاء مثلجـة، كان القنصـل الـرومـاني «تيب. سمبـرونيوس» مخيماً في العراء بمواجهة معسكر الجيش البوني، على الضفاف المستنقعية المغطاة بالحشائش الطويلة التي تمتد على طول نهر «تريبي Trebie»، وكان قد قرر أن يشن هجوماً رداً على التحرشات التي يتعرض لهـا من قبـل خصمـه. لكن الجيش الـروماني وقع بسهولة في الفخ الذي نُصب له. فحين عبر الجنود النهر، وكانوا لايزالون يرتجفون من شدة البرد، هوجموا على أرض

كان عدوهم قد ملأهـا بالكمـائن، وتشتت الجناح الأيسـر من الجيش الروماني أمام هجوم الفيلة، وكـان على الرومـان أن يتراجعـوا إلى النهـر أويُذبحـوا، وتمكن من استطاع الفرار أن يصل بعد عناء ليختبيء في «بليزانس Plaisance». أما «هانيبعل» فلم يفقـد إلا القليـل من الغـاليين، الـذين كانـوا من جهتهم قد قتلوا عدداً كبيـراً من الـرومـان. يكتب «تيت ـ ليف»: «لقد هُزم الجميع» [74, 2, III]. وأصبح «هانيبعل» منـذ تلك اللحظـة سيـد منطقـة «السيـزالبين». «وإن هذه الهـزيمة، يضيف «تيت ـ ليف»، قد ملأت رومـا بالـرعب إذ كانت الإشـاعـات تروج أن هانيبعـل يحث السير باتجاه المدينة» [56, 2, XXI].

قرر القـائـد القـرطـاجي قضـاء فصل الشتاء في سهل «البو»، ربما في «بولونيا Bologne»، وقـام هنـاك بإطـلاق سراح جميع أسراه من غير الرومان كوسيلة دعائية. وعـانت فرق جيشه من قسوة الطقس، كما أن برودة الشتاء أهلكت جميع الفيلة عند واحداً استخدمه «هانيبعل» مطية له أثناء عبوره فيما بعد المناطق الوعرة في وادي «آرنو Arno»، أمـا الجنـود الغاليون فكانوا ساخطين من الأحداث التي دارت في بلادهم، وينتظـرون بفـارغ الصبـر العـودة من أراضي العدو الروماني للحصول على الغنائم. فقـرر «هـانيبعـل»، حين حلول فصـل الـربيع، الدخول إلى شبه الجزيرة الإيطالية. وعندما سأل عن الدروب المفضية إلى «آتروريا Etrurie» اختار الطريق المؤدي إليها مباشـرة، وهـو طريق «الأبينين Apennin» مع أنه كان خطراً للغاية بسبب الفيضانات التي كانت تغطي مسـاحة واسعة فيه. (وربما كانت تلك المنطقة الواقعة بين «بيستويا Pistoia» و«فلورانسـا Florance») وتـابـع سيرة لمدة أربعة أيام كانت بالنسبة للجيش القرطاجي تجربة مريرة. وقد رُوي كثير من القصص عن المخيمات التي نُصبت في العـراء وسـط المستنقعـات حيث هلك قسمٌ كبير من الـدواب. ومن المحتمـل أن «هانيبعل» قد أصيب في هذه الفترة بالتهاب في عينيه وفقد احداهما بسبب خطأ في معالجتها. وتابع الجيش القرطاجي سيره حتى وصل إلى مقابل مدينة «آريزّو Arezzo» حيث كان القنصل «س. فلامينيوس» قد أقام معسكره.

قام «هـانيبعـل» بهـدف إثـارة خصـمـه، بدفع جنوده لنهب الأرياف المجاورة

واحـراقهـا، ثم واصـل طريقه. فأطلق «فلامينيوس» دون انتظار فرقه في إثره. غير أن القائد البرقي كان قد قصد أرضاً مناسبة تماماً لخطتها الحربية، فدخل في ممر يحف ببحيرة «تراسيمين Trasimene »، وخيم في نهـايته لقضاء الليل بينما احتل الرومان مدخله. وفي اليوم التالي، في الصباح الباكر من 21 حزيران 217 ق. م، وبينما كان الضبـاب الكثيف يغطي المنطقـة، قام «فلامينيوس» بدفع فرقه إلى الممر وهو يجهل أن أعـاليه وطـرفه كانت مراقبة، وحينما دخل فيه بشكل كامل، برز الفرسان والمشاة البـونيـون من بين الضباب الكثيف، وأطبقوا على الرومان من كل الجهات. لقد كان الفـخ محكمـاً تمـاماً: فخلال ثلاث ساعات، كما يروي «تيت ـ ليف»، قُتل أو غرق خمسة عشر ألف روماني من بينهم القنصل نفسه في البحيرة التي فرّوا إليها بحثاً عن منفـذ، أمـا الآخـرون فقـد أُسروا أو لاذوا بالفرار. في حين لم يفقد «هانيبعل» سوى ألف وخمسمائة من جنوده، وخفف عنه أن غالبيتهم من الغاليين. وتابع خطته بأن قام بفـرز الأسـرى غيـر الرومان وأطلق سراحهم مردداً على أسماعهم ماكان قد قاله. منذ أول معـركـة بأنه لم يأت لحربهم بل لتحرير المدن الخاضعة للرومان من سيطرتهم، وفي سـاعـة احتـدام المعـركـة كان القنصل «سرفيليوس Sevilius » عند سماعه بتقدم الفـرق البـونيـة قد أرسـل قوة تضم أربعـة آلاف فارس لتعـزيـز فيـالق زميله، وحدث الإصطدام في «أومبري Ombri » بينها وبين «ماهر بعل» أحد قادة «هانيبعل» فأبيدت بدورها أيضاً.

لقـد أدت الكـوارث المتكـررة إلى حدوث أزمـة سياسية في «روما» إبان غياب القنـاصـل إذ أن أحـدهمـا قتل، أما الآخر، وهو «سرفيليوس» الذي أقام معسكره في «ريـميني»، فلم يكن بمقـدوره الإتصـال بالعـاصمـة. فتم تعيين «ك. فابيـوس مكسيمـوس Q. Fabius Maximus » كدكتـاتور مع صلاحيات استثنائية. أما «هانيبعل» فلم يبق عليه إلا أن يواجه خصمه «الذي كان يسميه Cunctator » «المتردد» فشرع في عمليات سلب وتخريب في شمال «آبوليا Apulie » و«سامنيوم Samnium » وفي غربي «كامبانيا Campanie ».

كانت فرق «فـابيـوس» تراقب القـائـد القرطاجي في كل تنقلاته، وكان عملها

يقتصر على إعاقة طرق امداداته، دون أن تدخل في مواجهة مفتوحة معه، وكانت تحدث أحياناً مناوشات أو اشتباكات سريعة تكلف البونيين بعض الخسائر، خصوصاً عند مهاجمة المفارز المعزولة. كانت خطة «فابيوس»، رغم الانتقادات الشديدة التي وجهها له المتضررون من عمليات السلب والتخريب التي يقوم بها عددهم، تهدف إلى المحافظة على أفضل المصادر البشرية للشعب الروماني بعد الخسائر الجسيمة التي تعرض لها منذ الشتاء الماضي. أما «هانيبعل» الذي لم يتمكن من إدارة الحرب مثلما أراد، فقد استقر في «آوبوليسا» واستولى على «جيرونيوم Geronium» الواقعة في سهل غني، وتحصن فيها وقرر أن يبقى فيها مع جيشه طوال فصل الشتاء.

لقد أثار هذا الموقف الذي وجد «هانيبعل» نفسه به غضبه. إضافة إلى أن الأخبار الواردة إليه من اسبانيا لم تكن تبعث على الرضى. فحين وصل القنصل «كورنيليوس سيبيون» إلى هناك عام 218 قام بمهاجمة القوات البونية التي يقودها «حنّون» بمهارة وأسر القائد القرطاجي نفسه. وفي السنة التالية، تمكن الرومان من التقدم بعد تحقيق عدة انتصارات بحرية بفضل مساعدة قدمها لهم حلفاؤهم «المساليين Massaliote» الذين كانوا يملكون سفناً سريعة، وبفضل التعزيزات التي وصلتهم في أسطول يضم عشرين سفينة وثمانية آلاف جندي بقيادة «بوبليوس سيبيون Publius Scipion» تمكنوا من التقدم إلى جنوب نهر «الإيبر» إلى أن وصلوا إلى أطراف مدينة «ساغونتي» حيث أنشأوا هناك قاعدة قوية واستمالوا إلى جانبهم عدة قبائل إيبرية.

إلا أن القنصلين اللذين انتخبا في عام 216 ق.م، وهما «اميليوس باولوس Aemilius Paullus» و«تيرنتيوس فارّون Terentius Varron» أفسدا الخطة التي وضعها «المتردد Cunctator» وسمحا لهانيبعل الدخول في أعظم معركة في هذه الحرب، بل، وكما يصفها علماء التاريخ الحربي، أعظم معركة في العصور القديمة كلها. ففي بداية الصيف، وحين حلّ وقت الحصاد، تركت الفرق البونية معسكرها «جيرونيوم» كي تستولي على بعض الأرزاق وقرر «هانيبعل» أن يجبر خصمه على بدء

المعركة، فاستولى على قلعة «كاني Cannes» الواقعة على ضفاف نهر «الأوفيدوس Aufidus» [أوفانتو Ofanto]، ولم تكن هذه القلعة مجرد قاعدة استراتيجية هامة، بل أيضاً مستودعاً للأقوات التي كان الرومان قد خزنوها. فقرر القناصل، بتحريض من «فارّون» بشكل خاص، أن يباشروا المعركة، ودفعوا إلى آتونها بثمانية فيالق. ولم يكن الجيش الروماني قد حارب أبداً بمثل هذه القوة من قبل، وكان كل فيلق يضم في الأصل خمسة آلاف رجل، وضُعف هذا العدد بجنود حلفاء، فكان الجيش الروماني يضم على هذا الأساس حوالي ثمانين ألفاً من المشاة وستة عشر ألف فارس، أما الجيش البوني فكان يُعد أكثر بقليل من خمسين ألف رجل من بينهم عشرة آلاف فارس.

حدثت هذه المعركة الشهيرة في 2 آب 216 ق. ، على ضفة نهر «الأوفيدوس» في سهل واسع ملائم متحركان الفرسان، كالعادة، وضع «هانيبعل» خياله في الأجنحة: الإيبريين والغاليين على ميسرة الجيش، والفرسان النوميديين في الميمنة، ونظّم مشاته على جبهة تشبه القوس أو الهلال تحدُّ به باتجاه العدو، وعلى هذه الجبهة كانت توجد وحدات عسكرية ذات أصول إثنية مختلفة ومستوى قتالي متباين؛ ففي الوسط وضع «هانيبعل» مشاة إيبريين وغاليين، وعلى الميمنة والميسرة كان المشاة الأفريقيون. وكانت خطة القائد البرقي تتضمن إثارة العدو ودفعه بتركيز هجومه على القسم الأوسط، أي المحدب من هذه الجبهة المخالفة للتقاليد الحربية، ففي هذا الجزء كانت توجد العناصر الضعيفة والتي سكون دورها التعرض للهجوم ومن ثم التراجع أمام هجمات العدو، أي أن التشكيل الأوسط المحدب باتجاه الأمام كان عليه أن يتحول حسب خطة «هانيبعل» إلى جيب يمتص الجنود الرومان الذين سيندفعون واثقين من امكانية اختراق الخطوط البونية وإحراز النصر. لكن الوحدات الأفريقية، وهي خيرة الجيش القرطاجي، ستقوم بمهاجمة المشاة الرومان على جانبي الجبهة الرومانية التي كانت تأخذ شكل زاوية رأسها للأمام، وبالتالي حصرها بين فكي كماشة بينما تقوم الفرسان المتمركزون في الأجنحة وبحركة تطويق سريعة بإقفال ذلك الجيب.

دارت المعركة كما خُطط لها، وأثبتت هذه الخطة العبقرية الحربية التي كان يتمتع بها «هانيبعل». لقد أبيد معظم الجيش الروماني حين فرض عليه القائد البرقي، بشكل من الأشكال، التحركات التي بدت لهذا الجيش مؤدية إلى النصر، ولكنها قادته، في الحقيقة، إلى الهزيمة. وحينما طُوق الجيش الروماني من كافة الجهات استسلم للمذبحة فكانت الخسائر تبعث على الرعب، فحتى لو أننا وجدنا رقم السبعين ألف قتيل الذي ذكره «بوليبيوس III, 117, 4» مبالغاً فيه، فإن «تيت ـ ليف» (الذي يستقي معلوماته من مصادر أخرى» يتحدث عن سبعة وأربعين ألفاً وسبعمائة قتيل، كان من بينهم القنصل «إميليانوس باولوس» وثمانين من أعضاء مجلس الشيوخ «49, XXII» . أما جيش «هانيبعل» فكان قد فقد خمسة آلاف وسبعمائة رجل من بينهم أربعة آلاف غالي.

وفي اليوم الذي تلى معركة «كاني»، طلب «ماهر بعل» من «هانيبعل» مواصلة السير إلى «روما». غير أن القائد القرطاجي رفض ذلك، فقال له «ماهر بعل» : «إن الآلهة لاتمنح الإنسان كل شيء، إنك يا هانيبعل تعرف كيف تنتصر ولكن لاتُحسن الإستفادة من انتصارك». لقد كان قائد الجيش البوني يُبدي تعقلاً، إذ أنه يدرك حدود مواهبه. فروما لم تكن مدينة يمكن الإستيلاء عليها بحركة خاطفة. وإذا حوصرت، فإن أسوارها التي بلغ طولها أحد عشر كيلومتراً، والتي تم تعزيزها، تجعل من أية عمليات حصار ضرباً من الخيال، أولنقل في أكثر الإحتمالات، قد يستغرق حصارها وقتاً طويلاً جداً، ومثل هذا العمل لم يكن يتناسب مع أساليب الحرب التي

قرطاجة : جُعل من البللور الصخري
يمثل محارباً مسلحاً ويعتمر خوذة

كان «هـانيبعـل» يتميـز بهـا وهي عمليـات ذات نتـائـج مؤكدة تُنفذ خططها متعددة، وتوضع وتُدرس بأدق تفاصيلها ـ وكأنها لعبة كبرى مليئة بالشراك بالنسبة للمتهورين، حيث يحرز النصر فيها الأكثر دهاء والأكثر إبداعاً ـ على أن تكون هذه الخطط جريئة وتحمل المفاجآت المذهلة التي تشل قوى العدو. كما أن «هانيبعل» الذي كان يعد من وجهة نظر سياسة واسعة زعيم دولة، كان يدرك أن لديه الكثير ليفعله عدا الزحف إلى «روما».

لقـد احـدثت معـركة «كاني» دوياً هائلاً، حتى أن العديد من الشعوب الخاضعة للرومـان انضمت إلى معسكـر خصـومهم. مثـل مدن «أبـوليـا Apulie» و«سمينـوم Samnium» و«لـوكـانيـا Lucanie» و«بـروتيـوم Bruttium». وبالمقابل، بقيت المدن الإغـريقيـة على موقفهـا؛ فقد كانت تخشى أن يسلمها «هانيبعل» إلى القبائل الغالية والسمينـة المستعـدة دومـاً لممارسـة عمليـات النهب، في حين أن المجمـوعـة الارستقـراطيـة التي كانت تسيطـر على المدن كانت تشارك الفئات الرومانية الحاكمة وجهـات النظـر. وفي «كـابـوا Capoue»، وهي ثاني أكبر المدن الإيطالية، استقبل «هـانيبعـل» استقبـالاً حافـلاً من قبـل أنصـاره الكُثر هناك، إذ أن زعماء المدينة كانوا يسعون، بإظهار حقدهم على الجمهورية الإيطالية، لأن تحل مدينتهم مكان «روما».

كان على القائد البرقي، كي يحطم التحالف الروماني المزعزع ـ رغم أن هذا التحـالف كان لايـزال لديـه امكـانيـات قويـة في إيطـاليـا الـوسطى من اللاتين والأتروسكيين والأومبريين Ombriens والسابليين Sabelliens، كان عليه أن يشرك وفي وقت سريـع كافـة قواتـه في الهجوم ضد مناطق القادمة. لذا طلب من قرطاجة امداده بالمسـاعـدات مباشرة لأنه لم يتمكن من الحصول عليها براً من اسبانيا بسبب تمركز فيـالق «سيبيـون» على سـاحـل المتـوسـط شمـال مدينـة «ساغونتي». ورغم معارضة «حنّـون الكبيـر» وافق مجلس الشيـوخ القرطاجي، الذي كان يقدر قيمة الإنتصارات التي حققهـا «هـانيبعـل»، على إرسـال التعـزيزات وشرع بتجميعها، كما قرر ارسال جيش واسطـول من اسبـانيـا فوراً بقيـادة «هيميلكـون» لتبـديل الوحدات التي يقودها

«هاسدروبعل» الذي كان على وشك الوصول إلى إيطاليا، وأخيراً، وبعد أن يتلقى «هانيبعل» المساعدات من هذين الجيشين، كان عليه أن يضعف مقاومة خصمه بتوجيه قوات أخرى ضده من كل مكان، ومن ثم تجهيز حملة إلى جزيرة «سردينيا» لتنضم إلى السكان الثائرين، وتنطلق تحت قيادة «حنّون» و«هامبسيكورا» Hampsicora » لمهاجمة فرق الحاكم الروماني.

عُزز موقف «هانيبعل» في عام 215 ق.م. فمن جهة، تم عقد معاهدة رسمية بين «قرطاجة» و«فيليب المقدوني» الذي كان يجهز أسطولاً للنزول في «إيللوريا Illyrit » بهدف شن هجمات تخريبية على الساحل ومن ثم النزول في إيطاليا. وبعد وفاة «هيرون» حاكم صقلية تولى الحاكم الشاب «هيرونيموس Hieronymos » السلطة لفترة قصيرة وعقد اتفاقية مع «قرطاجة» على عكس أبيه، وتنص على أن يسيطر تماماً على الجزيرة كلها، وقامت «سيراكوز» بإجراء اصلاحات جمهورية ودخلت الحرب ضد «روما» التي وجدت نفسها محرومة من أهم مصادرها من القمح.

ويقي على «هانيبعل» أن يضع يده على مرفأ جيد لتبقى صلاته مضمونة مع قرطاجة. وبما أنه كان يعلم أن المدن الإغريقية كانت مترددة في دعم المعسكر البوني، كما أن كلاً أن «نابولي» و«ريجيون» لم تكن تستطيع الإنفكاك عن روما. فقد كان عليه بعد أن احتل «لوكرس Locres » و«كروتوني Crotone » عام 215 ق.م، حيث حدث شقاق بين الفئة الارستقراطية المسيطرة وعامة الشعب، ـ كان عليه أن ينتظر إلى عام 213 ق.م كي يستولي على مدينة «تارانتي Tarente » وهي أهم المدن الساحلية. على إثر مؤامرة، (باستثناء قلعتها حيث كانت توجد حامية رومانية قوامها خمسة آلاف رجل وتسيطر على المرفأ)، وفي ربيع عام 212 ق.م، دخل «هانيبعل» أيضاً إلى «هيراكلي Heraclee » و«ميتابونتي Metaponte » و«توريوي Thurioi ». غير أن قوة القائد البرقي بقيت محدودة رغم هذه النجاحات التي فككت الإئتلاف الإيطالي، إذ لم تبلغ ذروتها إلا وكان الانحسار قد بدأ.

لم يتلقَ «هانيبعل» الذي كان ينتظر تعزيزات الجيشين، سوى فصيل مؤلف من أربعة آلاف نوميدي وأربعين فيلاً، وكان الموقف في اسبانيا عام 215 ق.م قد

أجبر «قرطاجة» على تغيير أهدافها، إذ أن «هاسدروبعل» كان قد اصطدم بفيالق «سيبيون» جنوب نهر «الإيبر» وهزم. ولم يكن الأمر بالنسبة له أن يصل إلى أخيه، إذ أنه كلف بالتدخل ضد «سيفاكس Syphax» ملك «المازايزيليين - النوميديين» الذي كان قد هاجم الممتلكات القرطاجية في أفريقيا. ولذلك، ومن أجل مواجهة الموقف المقلق في مسرح العمليات هذا، تم تجميع قوات ضخمة في قرطاجة تضم اثني عشر ألف جندي وألف وخمسمئة فارس وعشرين فيلاً وستين سفينة حربية، وكانت هذه القوات مخصصة في البداية للانتقال إلى إيطاليا، غير أنها توجهت إلى «اسبانيا» بسرعة بقيادة «ماغون» الإبن الثالث لـ«هاملقار برقا»، وعلى الأقل كان بوسع هذه الفرق التي عُززت أيضاً بوحدة عسكرية بقيادة «هاسدروبعل» شقيق «جيسكون»، بعد ثلاث سنوات، في عام 211 ق.م، كان بوسعها أن تعدل من الموقف بشدة. وهكذا تمكنت هذه القوات أن تلحق الهزيمة بالجيشين اللذين يقودهما «سيبيون»، إذ أبيدا مع ضباطهما بعدما تخلى المرتزقة الكلتوايبريين عنهما. وبالمقابل، فإن الفرق القرطاجية التي ارسلت إلى سردينيا في عام 215 ق.م، وصلت متأخرة إلى هناك، إذ أن القافلة جنحت إلى شواطيء جزر «الباليار» بسبب تعرضها للعواصف، حيث سُحقت في أول معركة.

وعلى الرغم من ترتيب الأوضاع في اسبانيا، فإن عام 211 ق.م، كان يحمل خيبة عظيمة للقائد البرقي، إذ أن روما جهزت أقوى جيش في تاريخها، مؤلف من خمسة وعشرين فيلقاً ضم مع الوحدات الحليفة قرابة مئتي ألف رجل، كما قررت الإقتصاد باحتياطها البشري، فلجأت مرة أخرى إلى تكتيك «المتردد» الحذر، وكانت الفرق القرطاجية تتعرض للخسائر دون أن تتمكن من تعويضها في حرب الاستنزاف تلك. أما الشعوب والمدن التي تخلت عن «روما» بعد الإنتصارات البونية في الحرب «المكشوفة»، فقد بدأت تنحسر على لحاقها بهانيبعل في مشروعه الذي أصبح مغامرة. ففي عام 214 ق.م، هاجم الرومان «كاسيلينوم Casilinum» [«كابوا» الحالية]، واستعادوا «آربي Arpi» في عام 213 ق.م، ثم استولوا على بعض المواقع في «كامبانيا». قاومت «كابوا» لمدة ثلاث سنوات، وتعرضت في عام 211 ق.م إلى

المجاعة بعد أن حوصرت من قبل ستة فيالق رومانية، فاستنجدت بهانيبعل الذي لم يتمكن من كسر الحصار عنها، فحاول القيام بحركة لتحويل انتباه الرومان، فتوجه بسرعة نحو «روما»، ولم يكن بالتأكيد يبغي مهاجمتها بل إقلاق «مجلس الشيوخ الروماني» بتهديده المفاجيء مما قد يضطره إلى سحب القوات التي تحاصر المدينة الكامبانية. غير أن الحصار لم يُرفع، واستسلمت «كابوا» بعد وقت قصير، وانتحر أشراف المدينة تجنباً لإنتقام الرومان، وقُبض على من بقي منهم وجُلدوا قبل أن يتم قطع رؤوسهم. وانحط شأن هذه المدينة اللامعة، شريكة روما، إلى مجرد ضاحية زراعية ونُفي قسم من سكانها، كما استولت الدولة على جميع أراضيها.

مع ذلك، حقق هانيبعل بعض الإنتصارات، إذ تمكنت قواته في عام 209 ق. م، من إبادة جيش روماني يقوده «كنايوس فولفيوس Cnaeus Fulvius» بفضل خطة ذكية، وذلك تحت أسوار مدينة «هيردونيا Herdonea» في منطقة «آبوليا»، وقتل في هذه المعركة الوالي الروماني مع أحد عشر قاضياً عسكرياً، إلا أن الموقف في إيطاليا الجنوبية، رغم بقاء «هانيبعل» سيد الموقف هناك، أصبح صعباً، إذ فقد عام 209 ق. م، مدينة «تارانتي»، وحُصر منذ تلك اللحظة في معقل جبلي في إقليم «كالابريا Calabre».

ولم يتمكن «فيليب المقدوني» من الإيفاء بتعهداته، إذ واجه تحالفاً ضم «الإيتولوبين Etoliens» ومملكة «بيرغام Pergame» عُزز بدأ من عام 210 بأسطول روماني قام بشن عمليات تخريب ونهب واسعة النطاق في بحر «أيجة» فأجبر «فيليب» على توقيع معاهدة سلام مع روما في عام 205 ق. م، سُميت «المعاهدة الفينيقية» بعد أن أدرك أنه ليس بإمكان التمويل على مساعدة الأسطول القرطاجي الذي كان تدخله ضرورياً ليستطيع الدخول مباشرة في حرب «ايطاليا».

لم يقم الأسطول القرطاجي طوال هذه الحرب إلا بدور بسيط، إذ أن قادته كانوا قليلي الخبرة، ضعفاء، ويخشون من نتائج أية هزيمة محتملة، وكانوا دون شك أقرب إلى تفكير الأقلية الحاكمة القرطاجية المحافظة من تفكير الأوساط المؤيدة

لهانيبعل. ولدينا مثال على ذلك في العمليات التي قام بها هذا الأسطول في «صقلية».

فحينما قطعت سيراكوز علاقاتها بروما، حاول القنصل الروماني «م. كلاوديوس مارسيلوس M. Claudius Marcellus»، الذي لم يتمكن من تعزيز دفاعاته بالتقنيات التي اخترعها «أرخميدس». فحاول أن يفرض الحصار على هذه المدينة، فقررت قرطاجة بذل كل جهودها لمساعدة حليفتها. فتم توجيه جيش قوي قوامه خمسة وعشرين ألف جندي وثلاثة آلاف فارس وعشرون فيلاً بقيادة ضابط اسمه «هيميلكون»، كان يتمركز بأسطوله منذ زمن بعيد في «رأس باكينوس Fachynos» [على الطرف الجنوبي من صقلية]، واستطاع في عام 213 ق. م، أن يحتل «هيراكلي Heraclee» و«آغريجانتي»، غير أنه لم يتمكن من فك الحصار عن «سيراكوز»، وأخفق في محاولته الثانية في العام التالي إذ قُضي على الجيش القرطاجي الذي كان معسكراً في أرض مستنقعية بسبب إنتشار الأوبئة. وكان هذا أول اخفاق لقرطاجة. وفي ذلك الوقت، تلقى القائد البحري «بوملقار» أمراً بالتدخل عن طريق البحر، وتمكن من الدخول إلى مرفأ المدينة على رأس أسطول ضم خمسا وخمسين سفينة، غير أنه خشي مواجهة الأسطول الروماني المتفوق عليه عدداً، فرجع إلى عرض البحر ليطلب المدد من قرطاجة، وكان عليه أن يعود مرتين، ومعه مئة سفينة ثم مئة وثلاثين. مع ذلك، ورغم تفوقه على خصمه رفض الدخول في المعركة. كتب «تيت ـ ليف»: «حينما رأى «بوملقار» الأسطول الروماني متوجهاً نحوه تملكه خوفٌ شديد لم يعرف أحد سببه، فأمر سفنه بالتوجه إلى عرض البحر» [12, 28, XXV]. فوصل إلى مدينة «تارانتي». وأدى هذا التهرب إلى نتائج خطيرة. فبعد وقت قصير، في عام 212 ق. م، قام «موريريكوس Morricus». وهو قائد اسباني لمجموعات المرتزقة بتسليم المدينة إلى الرومان، بعد أن حُرم من كل مساعدة. وأخيراً، وفي عام 210 ق. م، سقطت «آغريجانتي» بعد مقاومة طويلة بسبب خيانة قائد الفرسان النوميديين «موتّينس Mutines» والذي كان قد أُقيل ظلماً من قبل الحاكم «حنّون»، وبهذا تكون صقلية قد ضاعت إلى الأبد من يد قرطاجة.

في نهاية تلك السنة ـ 210 ق . م ـ نزل في اسبانيا «بوبليوس كورنيليوس سيبيون Publius Cornelius Scipion »، وكان والده وعمه قد لقيا مصرعهما في كارثة عام 211 ق . م . وكان الموقف سيئاً جداً هناك رغم وجود الحاكم «ك . كلاوديوس نيرو C. Claudius »، فعمدت الجمهورية الشعبية في روما، غير عابئة بنصوص الدستور، إلى ذلك الشاب الذي ينتمي إلى طبقة الأشراف، بمهمات استثنائية، وكان يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، ولم يكن قد مارس في حياته سوى وظيفة قاضٍ بلدي، غير أن «سيبيون» لم يكن حديث العهد بالحروب، فقد شارك في معارك «تيسّان» و«تريبي» و«كاني»، وكان يدرك أسباب انتصارات «هانيبعل». لقد وجدت روما فيه الرجل الذي أرسلته العناية الإلهية كي يقلب موازين الأقدار. فانطلق على رأس فيلقين انضما فيما بعد إلى الجيش الروماني الموجود في شبه الجزيرة الإيبرية.

استغل «سيبيون» تشتت الجيوش البونية الثلاثة، وكان اثنان منها بقيادة «هاسدروبعل برقا» و«ماغرن»، شقيقي «هانيبعل»، أما الثالث فكان بقيادة «هاسدروبعل» شقيق «جيسكون»، فقرر توجيه ضربة إلى مركز العائلة البرقية. فترك في ربيع عام 209 ق . م «تارّاغون Tarragone »، حيث عسكر طوال فصل الشتاء، واجتاز نهر «الإيبر»، واتجه مباشرة إلى مدينة «قرطاجنة»، ورغم المقاومة العنيفة التي لم تكن متوقعة، والتي كادت أن تفضي إلى اخفاق خطة القائد الشاب، استسلمت عاصمة اسبانيا البونية، ووضع «سيبيون» باحتلالها يده على ثروة العائلة البرقية واستحوذ على غنائم هائلة، كما أن الحرفيين والصناع المهرة الذين كانوا يعملون في ورشها أصبحوا جميعهم في خدمة الأسياد الجدد.

أمضى «سيبيون» صيف عام 209 ق . م بتدعيم الإنتصار الذي حققه، مستفيداً من الاسلوب السياسي الذي كان «هانيبعل» قد اتبعه مع القبائل الغالية السيزالبية، إذ سعى إلى كسب ثقة الشعوب الإيبرية النازلة في المنطقة وخصوصاً زعمائها.

وفي ربيع العام التالي ـ 208 ق . م ـ تقدمت القوات الرومانية في داخل البلاد، واتجهت إلى وادي الـ«بايتس Baetis » [الوادي الكبير] للإستيلاء على مناجم الفضة الشهيرة في «ترشيش» القديمة، التي كانت أحد أهم أسباب ثراء قرطاجة. فوصل

«سيبيون» إلى «بايكولا Baecula» [بايلين Bailen الواقعة على بعد مئة كيلومتر إلى الشرق من قرطبة]، فاصطدم هناك بجيش «هاسدروبعل برقا»، غير أن قيادة «سيبيون» الذكية أدت إلى انتصار الفيالق الرومانية. بيد أن هذا النصر لم يكن حاسماً ولم يمنع «هاسدروبعل»، الذي كان يهدف بالدرجة الأولى إلى ارسال المعونات إلى شقيقه «هانيبعل»، من شق طريقه والإفلات مع القسم الأكبر من قواته باتجاه نهر «التاجو» وجبال «البيرنيه».

إن هذا الهدف التي تمكن القائد البرقي من تحقيقه أقلق الرومان كثيراً. وازداد هذا القلق في تلك السنة ـ 208 ق. م ـ حينما وقعت فيالق القنصلين «م. كلاوديوس مارسيلّوس» و«ت. كانكتيوس كريسبينوس T. Quinctus Crispinus» في كمين بينما كانا يُعدان لمهاجمة معسكر «هانيبعل». لقد حل الدمار بالبلاد، كما أُنهك الشعب من الحرب، وأعلنت اثنتا عشرة مدينة لاتينية عن سخطها من الأعباء الحربية والمالية التي فرضها عليها مجلس الشيوخ الروماني ومن ابتعاد جنودها عنها في صقلية. لقد كانت حالة الإنهاك هذه تهدد، إذا ماتمكن «هاسدروبعل» من ضم قواته إلى جيش أخيه، بتحقيق انتصار ساحق. لقد استنفذ البونيون تحالفاتهم في إيطاليا الوسطى، أما روما فكان عليها أن تقاسي من أيام الحرب السيئة.

اجتاز «هاسدروبعل» بعدما قضى شتاء 207-208 ق. م في جنوب بلاد «الغال»، اجتاز جبال الألب باتجاه وادي «البو»، وضيع هناك وقتاً ثميناً بفرضه الحصار على مدينة «بليزانس»، ثم وصل إلى ماوراء مدينة «ريميني» في بداية صيف 207 ق. م، حيث وجد الطريق مسدوداً بقواتٍ رومانية تفوقه عدداً وعدةً، يقودها القنصلان الرومانيان، وقام القنصل «نيرو»، لتحاشي تحطيم مقاومة الفيالق الرومانية الستة التي يقودها القنصل «م. ليفيوس ساليناتور M. Livius Salinator»، بضم فرقة مؤلفة من خيرة قواته إلى جيش زميله. إن هذه الخطة الجريئة، رغم أنها أضعفت جبهة إيطاليا الجنوبية، نجحت نجاحاً ساحقاً. إن هانيبعل لم يكن على علمٍ بقدوم أخيه، إذ كان الرومان قد قبضوا على رسل «هاسدروبعل»، لذا فلم يبذل أي جهد لملاقاته. وحاول «هاسدروبعل» تجنب الفيالق الرومانية، غير أنه أُجبر حين وصوله

إلى ضفاف نهر «الميتور Metaure» على القتال على أرض يجهلها تماماً، واندلعت معركة ضارية انتهت بتبديد الجيش البوني، بفضل قيادة القنل «نيرو». وحينما رأى «هاسدروبعل» انهيار آماله التي وضعت قرطاجة في سبيل كل قواها، انقض وبطريقة تليق بوالده «هاملقار» وشقيقه «هانيبعل». يقاتل حتى سقط وسلاحه بيده» [تيت ـ ليف 4, 49, XXVIII]. [كما نقل «بوليبيوس 3, 2, XI» خطبة القائد البرقي]. وحسب الأعراف التي كانت متبعة، أرسل «نيرو» رأس «هاسدروبعل» إلى معسكر «هانيبعل» مع أسيرين أفريقيين محررين لإعلامه بالكارثتين، العامة والخاصة، اللتين حلتا به في نفس الوقت.

أما بالنسبة لـ«سيبيون» فلم يكن إفلات «هاسدروبعل» من يده ليحدث إلا تغيراً طفيفاً في خطته التي كان هدفها الأساسي تدميراً منظماً لما كان يُعرف في اسبانيا بـ«امبراطورية البرقيين» قبل أن يوجه ضربة قاضية إلى «قرطاجة». وتمكن في عام 206 ق. م من إنهاء القسم الأول من خطته تلك. كما لحقت الهزيمة بآخر جيش بوني كان لايزال موجوداً في شبه الجزيرة الايبرية بقيادة القائدين القرطاجيين. وكان يضم حوالي خمسين ألف جندي وأربعة آلاف فارس [تيت ـ ليف 14-13, 12, XXVIII]، إذ هوجم بالقرب من «إيليبا Ilipa» [التي ربما تقع على ضفاف نهر الوادي الكبير]، وأبيد إبادة تامة. لقد اتبع «سيبيون»، مقتبساً خططه من «هانيبعل»، تكتيكاً كان حتى ذلك الوقت مجهولاً، إذ كانت كتائب كل فيلقٍ روماني، وعددها ثلاثون، تتحرك وتغير من انتشارها بشكل دائم خلال المعركة.

بعد هذه الكارثة التي أبدى فيها «ماغون» بسالة عظيمة. التجأ إلى «قادس» مقتفياً أثر زميله «هاسدروبعل»، وحاول متابعة الحرب بتجميعه بعض الفرق من بين القبائل الإيبرية، وطالبا العون من قرطاجة بمده بقواتٍ أفريقية، إذ أن القائد البرقي كان قد سمع بانتشار التمرد في بعض الوحدات الرومانية، بحيث قام «سيبيون» بإعدام قادتها. كما أن بعض الزعماء الإيبريين، مثل «أنديبليس Indibilis» و«ماندونيوس Mandonius» اللذين تزعما قبائل «اللير جيتيين Ilergetes» في إقليم «سراغوزا Saragosse» اعتقدا أن الوقت أصبح مناسباً لينال شعبهما الاستقلال، إذ

لم يكونا يودان استبدال الهيمنة القرطاجية بالاحتلال الروماني. وقد استثمر القرطاجيون كل هذه العوامل، إذ هدف «ماغون»، بإنهاكه الجيش الروماني، إلى إبقائه بعيداً عن إيطاليا أطول فترة ممكنة. غير أن هذه الخطة انهارت سريعاً، فلم يتمكن القائد البوني من مهاجمة «قرطاجنة» بأسطول صغير، وحين عودته إلى «قادس» مُنع من دخول هذه المستوطنة الصورية القديمة، إذ كان قد أنهك سكانها وفرّغ خزائنها وأجبر زعماءها على تسليم أموالهم لتغطية نفقات الحرب. وقام أهلها بصلب القضاة «suffetes» وجباة الأموال البونيين وسُلّموا بعد ذلك إلى الرومان - مثلما سوف تفعل «أوتيكا» عشية دمار «قرطاجة»، لذا توجه «ماغون» إلى جزر الباليار، وقضى هناك شتاء 205-206 ق. م، في «مينورقا» حيث باشر من جديد بحشد قواته.

وفي ربيع عام 205 ق. م، انزل القائد القرطاجي، بواسطة اسطول ضم ثلاثين سفينة، قوة قدامها حوالي خمسة عشر ألف رجل على ساحل «ليغوريا Ligurie» واستولى دون جهد على مدينتي «جينز Genes» و«سافوني Savone»، فأحدث وصوله هياجاً شديداً في روما، ورابط بعد ذلك في هذا الإقليم إذ وجد بعض التأييد في أوساط الليغوريين والغاليين، كما تلقى من قرطاجة مساعدة قوامها ستة آلاف رجل وثمانمائة فارس وسبعة أفيال نُقلت بواسطة أسطول من خمس وعشرين سفينة، إضافة إلى أموال لتجنيد المرتزقة. مع ذلك، لاشيء يسمح لنا أن نقول بأن هدفه كان الإلتقاء بـ«هانيبعل»، فلقد أمرته الحكومة القرطاجية بالتقدم إلى روما، مما يخلق حالة من الفوضى قد تخفف من ضغط الفيالق الرومانية عن «هانيبعل». إن هذا التواجد البوني كان يحتم على الرومان التركيز على جبهة ثانية مما يفاقم لديهم مخاطر توجيه حملة إلى أفريقيا، وتفريغ إيطاليا من الجيوش، وبقي «ماغون» على هذه الحالة سنتين، وفي نهاية عام 203 ق. م، تلقى أمراً بالعودة مع فرقه إلى قرطاجة، وكان يشكو من جرح خطير أصيب به في معركة في بلاد الغال السيزالبية. فتوجه إليها تاركاً كل شيء وراءه لقائد آخر اسمه «هاملقار» الذي واصل حرب العصابات ضد روما بمساعدة سكان إيطاليا الشمالية. غير أن شقيق «هانيبعل» لم ير

قرطاجة، إذ توفي، كما يروي لنا «تيت ـ ليف» متأثراً بجراحه خلال رحلته إلى أفريقيا.

لقد كان انتصار الرومان في «إليبا Ilipia» يعني بالتحديد انهيار الامبراطورية البونية في اسبانيا. هذه الامبراطورة الغنية التي أسسها البحارة القادمون من صور قبل تسعمائة عام. لقد تحطم حلمٌ عظيم، ولكن كانت كل الآمال مشروعة في نظر «سيبيون» الذي قدم لاقتلاع ماحاول البرقيون منذ عام 237 ق. م. بناءه، وليحوله لمصلحة روما، وكان عليه أن يسلك الطريق التي سار عليها البرقيون، ليصل بدءاً من اسبانيا إلى هدفه النهائية «قرطاجة».

ولكي لاتتحول هذه المرحلة الأخيرة إلى مغامرات مأساوية مثلما فعل قبله «آغاثوكلس» و«ريغولوس»، كان على روما أولاً أن تجد لها حلفاء مضمونين في أفريقيا ليساعدوها في تحقيقها. ولهذا فعل «سيبيون» مثلما كان «هانيبعل» يفعل، فهذا الأخير لم يترك «قرطاجنة» باتجاه إيطاليا إلا بعد أن تلقى ضمانات أكيدة بالمساعدة من الغاليين السيزالبيين.

نشأت في «نوميديا»، خلال القرن الثالث ق. م، «مملكتان» كانتا تتشكلان من ائتلافين قبليين هامين: مملكة «المازايزيليين» في بلاد البربر الغربي والتي كانت عاصمتها مدينة «سيغا Siga» التي تقع في وادي «تفنا Tafna» المنخفض في مواجهة القاعدة البونية «راشغون Rachgoun»، ومملكة «الماسيليين Massyles» في بلاد البربر الشرقي، وكان مركزهم السياسي في مدينة «سيرتا Cirta» [قسنطينة]. وكان «غايا Gaia» ملك الماسيليين، حليف قرطاجة، قد أرسل ابنه «ماسينيسا» للمشاركة مع الجيش البوني في حرب اسبانيا، وكان هذا الـ «Agueilid» [وتعني هذه الكلمة «الزعيم البربري الذي له مكانة دينية متوارثة إضافة إلى مكانته السياسية»] قد مات في بداية عام 206 ق. م على الأرجح. فنشأت أزمة حادة في الأسرة المالكة الماسيلية، إذ لم تحترم القواعد المتبعة والأعراف. ورأى «ماسينيسا» نفسه وقد أبعد عن حقه في تولي حكم البلاد، فقرر العودة إلى أفريقيا. كما أن معركة «إليبا» وضعت حداً للتواجد البوني في «اسبانيا». ولكنه قبل أن ينطلق إلى هناك، أجرى لقاء سرياً

مع حاكم الإقليم الروماني . ولقاء آخر مع «سيبيون» نفسه الذي لم يتردد بالسفر لمسافة طويلة بغية الإلتقاء بالنوميدي في «قادس» .

وكانت تلك مناسبة عظيمة للأمير النوميدي ليشكر القائد الروماني لتحريره ابن أخيه الشاب «ماسيفا Massiva» الذي كان أسيراً مع جنود أفارقة آخرين . وكان «ماسينيسا» يشعر بضرورة الإستناد إلى تحالف قوي بعد رؤيته القوة البونية تتلاشى ، فمن أجل استعادة السلطة على مملكة أبيه ، كان عليه أن يعتمد على مساعدة «روما» فعقد الرجلان تحالفاً ، وكان «سيبيون» يعلم أن «ماسينيسا» لديه خيرة فرسان «قرطاجة» . [تيت ـ ليف ، XXVIII, 35] ، إذ كان القائد الروماني يأمس الحاجة للفرسان النوميديين .

ولم يشأ «سيبيون» أن يترك اسبانيا إلا بعد أن يوطد علاقاته بـ«سيفاكس» حاكم «المازايزيليين» ، فأرسل وفداً برئاسة «كايوس لايليوس Calus Laelius » إلى أفريقيا حضر إلى البلاط الملكي لهذا الحاكم . غير أن النوميدي أعلمه بأنه لن يتعاقد إلا مع قائد الجيش ذاته . وكانت المجازفة من الخطورة بحيث قرر «سيبيون» أن يقوم بالرحلة بنفسه . فأبحر في أسطول صغير يضم سفينتين خماسيتين ، وحين وصلنا إلى ميناء «سيفا» لمح الرومان أسطولاً يضم سبع سفن ثلاثية قرطاجية كانت قد سبقتهم . إذ أن «هاسدروبعل» شقيق «جيسكون» الذي كان قد تراجع بعد هزيمة «إليبا» ، وكان قادماً من «قادس» في طريقه إلى قرطاجة ، ورأى من الضروري أن يعرج لزيارة الزعيم النوميدي ، وبهذا الشكل التقى الغريمان ، الروماني والقرطاجي ،

أوتيكا : جُعل من الحجر الرمادي المائل إلى الزرقة ، مرصعٌ بالذهب ويمثل محارباً مسلحاً يجثو على ركبته . (ربما يشرع بإقامة شعائره الدينية) .

على سواحل بلاد البربر، وكلٌ منهما ينافس الآخر طمعاً في الحصول على مساعدة هذا الإفريقي القوي.

إن هذا «المؤتمر المتوسطي» الذي عقد في صيف عام 206 ق. م، يتضمن عبراً غنية جداً عن التنظيمات السياسية التي تراكمت خلال سنوات الصراع الحربي الطويل، «وإنها لمساعدة ضخمة من كل نواحيها لمن كانت لديه أية طموحات في أفريقيا، إذ أن «سيفاكس»، أغنى ملوك تلك البلاد، كان قد جرّب بنفسه الحرب ضد القرطاجيين أنفسهم، وكانت لمملكته علاقات مميزة مع «اسبانيا»، ويتابع «تيت ـ ليف» وصفه المشوب بالمشاعر الوطنية للإستقبال الذي قام به «سيفاكس» لمضيفيه قائلاً: «ان «سيفاكس» يبدو جميلاً جداً، والسبب في ذلك أنه رأى قائدي أقوى شعبين في ذلك العصر يأتيان إليه في اليوم ذاته ليطلبا منه المودة والصداقة. لقد أكرم الاثنين معاً وعلى قدم المساواة، وسعى كما كان يقول، لأن القدر شاء أن يجتمعا تحت سقف واحد، سعى للتقريب بينهما، بهدف إنهاء عدائهما، الواحد تجاه الآخر، غير أن «سيبيون» أوضح أنه لايوجد لديه أي عداء شخصي ضد قرطاجة كي ينتهي هذا العداء بعلاقة صداقة، أما ما يخص الدولة، فلم يكن بمقدوره أن يفاوض عدوه أبداً دون أمر من مجلس الشيوخ. وفي المساء، وحينما اجتمع الضيفان على طاولة العشاء عند الملك، جلسا على نفس السرير بهدف إدخال السعادة إلى قلب مُضيفهما. وسحر «سيبيون» بدمائته وبراعته التي يتحلى بها في كل الأوقات وبسبب لهجة التواضع التي كان يبديها في نقاشه، سحر ليس فقط، «سيفاكس» البربري الذي لم يكن معتاداً على تلك الرقة في التعامل، بل أيضاً عدوه «هاسدروبعل». فلقد أعلن القائد القرطاجي أن هذا الرجل كان يبدو أكثر مودة وجهاً لوجه مما كان يبدو عليه في ميادين القتال، وتوقع أن يصبح «سيفاكس» ومملكته حليفي روما، لأن لـ«سيبيون» لساناً يسبي العقول، وأن على القرطاجيين أن يبحثوا عن أسباب فقدانهم لإسبانيا، كما أن عليهم أن يتساءلوا عن كيفية المحافظة على أفريقيا» [18, 10, 17, XXVIII].

مع ذلك، خرج «سيبيون» خاسراً من هذا التنافس لكسب ود البربري. إذ عُقد

تحالف بين «قرطاجة» والحاكم البربري ترسخ بالزواج، وكانت تلك عادة متبعة في العصور القديمة تتعزز بها العلاقات العامة بالروابط الخاص، إذ تزوج «سيفاكس» من «صفونسب» [صفونابعل] ابنه «هاسدروبعل».

عاد «سيبيون» إلى اسبانيا عام 206 ق. م، وانتخب قنصلاً لسنة أخرى، وبفضل التأييد الشعبي ورغم معارضة فئة «الفابيين» المحافظة التي تخشى مغامرات القائد الشاب ومايمكن أن تجره على الشعب من ويلات، فإن القنصل الروماني حكم مقاطعة «صقلية» حيث كان بمقدوره الإستعداد لنقل الحرب إلى الأراضي الأفريقية ذاتها. وخلال سنة 205 ق. م، (أوفي ربيع السنة التالية) حذر «سيفاكس» ضيفه القديم «سيبيون» من مهاجمة أراضيه أو أراضي حليفته «إذ أن عليه في هذه الحالة القتال دفاعاً عن أرض أفريقيا التي ولد فيها مثل القرطاجيين، ودفاعاً عن وطن زوجته وفي سبيل أبيه وآلهته» [تيت ـ ليف 10, 23, XXIX]. فلم يكن بمقدور «سيبيون» الإعتماد على الدعوة السابقة. وإضافة إلى ذلك حصل تصعيدٌ مفاجيء، إذ قام «سيفاكس» بتحريض من «هاسدروبعل» ومستفيداً من النزاع على عرش «الماسيليين»، قام باحتلال تلك المملكة، واتخذ من «سيرتا» عاصمة ثانية ونقل حدوده الشرقية لتصل إلى الأراضي البونية.

أما «ماسينيسا» فقد أجبر على الفرار مع بعض صحبه ليعيش حياة المنفى. ورغم إخلاص بعض الشعوب الماسيلية الخاضعة لحكم «سيفاكس» الصارم، فقد حاول ابن «غايا» [كما يورد تيت ـ ليف»، وعلينا أن نتعامل بحذر مع ماينقله لنا] ـ حاول أن يستعيد نفوذه في بلد أجداده، وأدرك أن تدخلاً رومانياً في أفريقيا هو وحده الذي يستطيع أن يعيد إليه حقوقه. وبهذا الشكل اتخذ الأمير الشاب، الذي بدا أن قدره مرتبط بقدر روما، قراره بتقديم كل مابوسعه لإنجاح مشروع «سيبيون» الذي كان بمقدوره الإعتماد على ذلك بشكل أكيد.

وبينما كان «سيبيون» يُعد بنشاط حملته على أفريقيا، قرر أن يقوم بعملية ضد ميناء «لوكريس Locres» التي لم تكن في حالة تأهب، ونجحت الفرق الرومانية، مستفيدة من تواطؤ بعض السكان وبمساعدة الأسطول، من احتلال المدينة بعد

قتال عنيف. وتمكنت الحامية البونية التي لم تتلق أية مساعدة من «هانيبعل» من الإنسحاب منها، وُوضعت المدينة تحت قيادة الوصي «بليمنيوس Plemenius» الذي أباحها للمتطوعين. فقام وفدٌ من أهالي المدينة بإبلاغ مجلس الشيوخ الروماني بالتعسف الذي تتعرض له المدينة. فطالب، إثر ذلك، «فابيوس كونكتاتور Fabeus Conctator» وجماعته بعزل «سيبيون» وإحالته إلى القضاء. فاتجهت لجنة مدينة إلى «لوكريس» ثم إلى «سيراكوز» حيث استقبلت بتحفظ ودعيت لحضور بعض المناورات الحربية التي نظمت خصيصاً لتشاهدها اللجنة المذكورة، فتأثر المحققون باستعراض القوة ذاك، ولم يتابعوا مهمتهم في التحقيق، فتم تناسي القضية الأصلية برمتها.

مازلنا حتى الآن في عام 205 ق.م، إذ تم توجيه حملة استطلاعية وتخريبية إلى الساحل الأفريقي، في إقليم «هيبّون Hippone»، بقيادة صديق «سيبيون» الحميم «ك. لايليوس» كما جرت خلال هذه الحملة بعض الإتصالات مع «ماسينيسا» الذي ربما كان يختبيء في جبال «خروميري Khroumirie». وكان النوميدي يشكر من تباطؤ «سيبيون» في الإنتقال بجيشه إلى أفريقيا، وألح على بدء تنفيذ تلك العملية، إذ أن «سيفاكس» كان منشغلاً بالنزاعات مع السكان المحليين.

في سنة 204 ق.م، وهي السنة السادسة للحرب، جُددت قيادة «سيبيون» الذي قرر أن يضع خطته موضع التنفيذ، فأخذ يحشد قواته في «ليليبي». ويختلف حجم هذه القوات باختلاف روايات الكتّاب القدماء، فبعضهم يذكر أنها كانت تضم خمساً وثلاثين ألف جندي وفارس. وتم نقل الجنود أمام حشود هائلة من السكان المحليين الذين قدموا من كل أنحاء «صقلية» لمشاهدة هذا المنظر العظيم وليرفعوا أيضاً من معنويات القائد الروماني.

تمكنت السفن التي يبدو أنها تأخرت بسبب الضباب الكثيف من الرسو قرب رأس «فارينا» شمال «أوتيكا». أما «ماسينيسا» الذي عرف بقدوم القوات الرومانية قبل القرطاجيين أنفسهم، فقد بادر باللحاق بها مع زمرة من أنصاره. يقول «تيت ـ ليف»: «إن الحادثة التي بعثت الرضا في قلوب الرومان، في بداية الحملة، هي وصول

«ماسينيسا»، فالبعض كان يقول أنه وصل مع مئتي فارس، والآخرون يؤكدون أنه وصل مع قوة من الفرسان النوميديين تزيد عن الألفين» [4, 29, XXIX] . أما قرطاجة، من جهتها، فقد قامت بإجراءات دفاعية وحشدت جيوشها، كما أُخطر «سيفاكس» الذي توجه لينضم بجيشه إلى جيش عمه «هاسدروبعل» ابن «جيسكون».

أدت أولى العمليات التي قام بها الرومان، وكانت تقتصر على احتلال قرى الإقليم والقيام بعمليات سلب ونهب والإشتباك مع بعض المفارز البونية، أدت إلى زيادة ثقتهم بقوتهم، فتوجهوا إلى «أوتيكا»، وبما أن فصل الشتاء كان يقترب، فقد قرر «سيبيون»، احتلال المدينة كي يمضي فيها مع قواته هذا الفصل. غير أنه أخفق أمامها بشكل يدعو للرثاء، فبعد أربعين يوماً من الحصار البري والبحري والعديد من الهجمات، أُجبر «سيبيون» على التراجع، إذ هددته القوات البونية التي بلغ عددها حسب بعض المصادر الرومانية حوالي ثلاثة وتسعين ألف رجل، ثلثيهم من قوات «سيفاكس». وفُرض عليه أن يتحصن في منطقة صخرية سميت فيما بعد «كاسترا كورنيليا» [حيث توجد اليوم قرية باسم قلعة الأندلس وتقع على بعد ثلاثة كيلومترات عن «أوتيكا»]. وتمركزت الفرق البونية والنوميدية على بعد عشرة كيلومترات من ذلك المكان.

كان «سيفاكس» يأمل، كما فعل في «سيكا» سابقاً، أن يبذل جهوده لدفع الطرفين إلى مفاوضات سلام. فاقترح أن ينسحب الرومان من أفريقيا مقابل انسحاب القرطاجيين من إيطاليا، ويحتفظ الجانبان بالأراضي التي يسيطران عليها حتى ذلك التاريخ. وكانت أسس المحادثات تبدو مثيرة للإهتمام، فلم يرفضها «سيبيون» الذي كان يرغب في الحقيقة باستمالة الملك النوميدي إلى جانبه لأن «سيبيون» كان يعرف أن من طبع النوميديين أن يرجعوا بسرعة عن تعهداتهم، كما أنهم لايحافظون إلا نادراً على الإيمان بعهودهم التي قطعوها أمام الآلهة وأمام الناس» [1, 2, XIV] .

إلا أن القائد الروماني كان، على مايبدو، لايزال مخدوعاً باعتماده على تقلب الأفريقي، فلجأ إلى خطة أخرى ـ وهي مثال جيد عما كان يدعى «Fides Romana» أي «ثقة الرومان بأنفسهم»، فلقد استفاد من المفاوضات التي جرت برعاية

«سيفاكس» للقيام بعمليات تجسس على معسكر خصومه حيث كان مبعوثوه يترددون، إذ قام ضباط رومان يرتدون لباس الخدم بمرافقة أولئك المبعوثين، وكانت مهمتهم مراقبة جميع المنشآت الحربية في الوقت الذي كانت تتم فيه المفاوضات، وعند حلول فصل الربيع، وبعد أن تجمعت كافة المعلومات الهامة لدى «سيبيون» أشار إلى مفاوضيه بقطع المباحثات مع الجانب البوني لأنها اصطدمت بمعارضة مجلس القيادة الروماني. وبعد أن تظاهر بالهجوم على «أوتيكا» بهدف صرف الأنظار، أرسل عناصره في حلكة الليل واشعلوا النار في مراكز الجيشين الأفريقيين. واندلع الحرب بسرعة لأن خيم الجنود المصنوعة من الأخشاب والقصب كانت متلاصقة بعضها مع بعض، فعمت الفوضى وقتل الجنود حرقاً بالنار أو ذبحاً حين محاولتهم الهرب، وأبيد الجيشان بمعظمهما، وتحدث المؤرخ «تيت ـ ليف» عن سقوط أربعين ألف قتيل وخمسة آلاف أسير، غير أنه ليس بمقدورنا التحقق من صحة هذه الأرقام، فهي تختلف من كاتب إلى آخر. بيد أن «سيفاكس» و«هاسدروبعل» تمكنا من الفرار مع بعض فرسانهما. وأصبحت للرومان بعد هذه المعركة حرية الحركة الكاملة في العمل.

لقد أتاح عام 203 ق. م، لـ«سيبيون» فرصة أخرى لإبراز مواهبه كقائد حربي. فبعد البلبلة التي أحدثتها تلك الكارثة في قرطاجة، كلف «مجلس الشيوخ القرطاجي» «هاسدروبعل» بالمباشرة بتجنيد جيش آخر، وتم تجميع قوة من الفرسان الكلتوإيبريين قوامها أربعة آلاف فارس، ربما قدموا من الساحل الغربي لإسبانيا. ولحق بـ«سيفاكس» الذي كان قد رجع إلى بلاده. وفدٌ قرطاجي يحثه على أن لا يترك المعركة التي بدأوا فيها سوية.

أتمت الجيوش القرطاجية والنوميدية اتصالها، وكان عددها حسبما ذكر «بوليبيوس» قرابة ثلاثين ألف رجل، حينما ترك «سيبيون»، «أوتيكا» التي ظلت محاصرة براً وبحراً، واصطحب معه جميع مشاته وفرقه من الفرسان الإيطاليين إضافة إلى فرسان «ماسينيسا» الذين سيكون لهم دور حاسم في نهاية الحرب، اصطدم الجيشان في منتصف شهر نيسان، في وادي نهر المجردة الأوسط، هناك حيث تمتد

«السهول العظمى» (Campi Magni) ، بين المراكز الحالية لقرى «بيجة» و«سوق الخميس»، أو حول «بولا ريجيا Bulla Regia» [قرب سوق الأربعاء]. وسرعان ماحاقت الهزيمة بالبونيين الذين كانوا قليلي الخبرة. ويذكر «آبيان» أن «ماسينيسا» تمكن من هذه المعركة من أسر غريمه، بينما اتجه «سيبيون» فوراً واحتل «تونس»، في حين تابعت فرقة من النوميديين مع مفرزة رومانية يقودها (ك. لايليوس) تقدمها عبر أراضي «نوميديا» حيث استقبل «الماسيليون» بغبطة عودة أميرهم المنتصر. وفي 24 حزيران، حسب التقويم الروماني، سجن «سيفاكس» في مكان غير بعيد عن «سيرتا»، ثم اقتيد إلى روما ليمشي في موكب النصر مع عدد آخر من الأسرى. أما غريمه الماسيلي فعاد إلى المدينة التي ستصبح عاصمة ملكه.

إن كاتب الحوليات الروماني خص «صفونسب» زوجة «سيفاكس» بجزء هام من كتابته. لقد كانت هذه المرأة ذات جمال نادر، إضافة إلى أنها كانت مثقفة وموسيقية من الطراز الأول. لكنها خشيت على نفسها من الوقوع، «بين أيدي الأجانب القادمين من خارج أفريقيا، فتوسلت إلى «ماسينيسا»، حين عاد إلى «سيرتا» أن يتزوجها. وتضيف الرواية، أن الزواج أعلن فوراً. غير أن «سيبيون» خشي، حين علم بالأمر، أن أن تتمكن «صفونسب» ابنة «هاسدروبعل» من التأثير على زوجها الجديد، وفك التحالف القائم بينه وبين روما، فقرر أن تصبح هذه المرأة، مثلها مثل بقية الأسرى، ملكاً للشعب الروماني. غير أن القرطاجية فضلت أن تموت على أن يهان شرفها، فاجترعت السُمّ الذي قدمه لها «ماسينيسا» بنفسه، مفضلة أن تموت كامرأة حرّة.

وربما لاتوجد أية فائدة من تقصي مدى صحة هذه الرواية المؤثرة من وجهة نظر تاريخية. غير أنها تبدو معبرة عما كان يعتلج في صدور الرومان تجاه شركائهم وخصومهم الأفريقيين. فهم، أي الأفريقيون، ليسوا فقط مستعدين للإخلال بعهودهم بل «إنهم يتأثرون بشكل مفرط بمفاتن «فينوس Venus» [تيت ـ ليف 18, 12, XXX, 4, 23, XXIX]. ومهما كانت مشاعر «سيبيون» الباطنية تجاه النوميديين، فقد كان راضياً تماماً عن سلوك حليفه. وللمرة الأولى ناداه بلقب «الملك» وهو ماكان عليه

بالفعل، ثم قدم له تاجاً كهدية على استبساله في الحرب وقيادته المميزة والخدمات التي قدمها للجمهورية الرومانية كما قدم له الكثير من الهدايا، وبهذه الطريقة، اعترفت «روما» رسمياً بـ«ماسينيسا» حاكماً على «نوميديا الكبرى»[٩٧]، «وليس كموظف تابع كما كُتب سابقاً».

توزع القرطاجيون بين موقفين بعد هزيمة «السهول العظمى» واضمحلال قوة حليفهم «سيفاكس»، إذ أنهم لم يتمكنوا من استغلال الظروف التي كانت مواتية لهم في الشتاء السابق، فقد كان بمقدورهم، بعد أن جُهزوا باسطول أقوى من اسطول عدوهم، أن يضعوا حداً لمغامرة «سيبيون» تلك. لكن انهيار الثقة بالأوساط الحاكمة القرطاجية دفع بالفئة المعادية للبرقيين للمطالبة ببدء المفاوضات المباشرة مع «روما». لقد كان ضرورياً، حسب رأيهم، إيقاف هذه الحرب الخطرة. ورغم محاولة الأسطول البوني فإنه لم يتمكن من فك الحصار عن «أوتيكا»، كما أن العدو قد نزل في «تونس» بحيث أصبح منذ تلك اللحظة يهدد العاصمة ويحرمها من اتصالاتها مع الأقاليم ويضايق خطوط تموينها. أما الفئة المعارضة فكانت تقترح استدعاء جيوش قرطاجة من إيطاليا إذ ظل «هانيبعل» في نظرها الأمل الأخير، وبدىء في نهاية المطاف بتنفيذ المشروعين مع بعضهما. إن هذه المواقف المضطربة والتي كانت تعبر عن القلق المنتشر في أوساط قرطاجة الحاكمة، جعل بعض المؤرخين الرومان، [تيت ـ ليف XXX, 17, 14, 23, 7-6] يعتقد أن تصرف القرطاجيين ضمن هذين الخطين المتناقضين إنما كان عبارة عن خطة مدبرة بدقة. لقد استخدمت الحكومة القرطاجية «المكر البوني» Fraus Punica، متظاهرة بالبدء بالمفاوضات لكسب الوقت بانتظار عودة «هانيبعل» و«ماغون» من إيطاليا. ويبدو هذا الرأي، في الحقيقة، اعتباطياً، إذ لايمكن أن ننسى أن عصبة «حنّون الكبير» «المسالمة»، كانت لاتزال مسموعة الكلمة بحيث نبهت إلى المخاطر الناجمة عن وجود العدو على أبواب المدينة.

أُرسل وفد يضم ثلاثين عضواً من مجلس الشيوخ القرطاجي إلى تونس لمعرفة شروط الصلح. غير أن «سيبيون»، الذي كان لايزال يحاصر قرطاجة ويدرك أن فكرة

فرض حصار على هذه المدينة هي مغامرة خطرة جداً، لم يترك هذا الوفد ينتظر طويلاً، ففرض شروطه التي نصت على أن تُطلق قرطاجة سراح الأسرى وتعيد اللاجئين والعبيد الرومان الفارين إليها، والإنسحاب من إيطاليا وبلاد الغال السيزالبية واسبانيا، وتجميع الجزر الموجودة بين إيطاليا وأفريقيا، وأن يسلم القرطاجيون اسطولهم الحربي باستثناء عشرين سفينة، وعليهم أخيراً، أن يدفعوا غرامة قدرها خمسة آلاف تالان، وأن يزودوا الجيش البروماني بحاجته من القمح والشعير حتى نهاية معاهدة الصلح.

وافقت قرطاجة على هذه الشروط، وعلى الأقل تظاهرت الفئة الرافضة للهزيمة بالموافقة. وأرسلت بعثة إلى «روما» للتوقيع على المعاهدة المشار إليها. غير أن المفاوضات التي بدأت في خريف عام 203 ق. م، استمرت وقتاً طويلاً جداً، فقد كان على مجلس الشيوخ الروماني أن يستشير «سيبيون» في بنوده المعاهدة التي لم توقعها «الجمعية الشعبية» إلا في ربيع عام 202 ق. م.

خلال ذلك الوقت قام القرطاجيون باستدعاء القائدين البرقيين «هانيبعل» و«ماغون»، وفقاً لالتزام بإخلاء إيطاليا وبلاد الغال السيزالبية، علماً أن الرومان لم يكونوا قد تعاملوا أبداً مع العدو الذي كان يعسكر في الأرض الإيطالية. ونحن نعلم أن «ماغون» قد مات أثناء رحلة العودة تلك، أما «هانيبعل» فكان بحاجة إلى أسطول لنقل قواته التي كانت متمركزة في إقليم «كروتوني». وكان قلبه يغلي بالحقد لاستجابته إلى طلب حكومته بالإنسحاب من إيطاليا، هذه البلاد التي بقي فيها خمسة عشر عاماً يُحارب ويَهزم أقوى دولة عسكرية في العالم بجيشه المتواضع، البعيد عن وطنه. إن من هزم «هانيبعل» لم يكن الشعب الروماني، الذي لاذ بالفرار مرات عديدة، بل الفئة الحاكمة القرطاجية «الفاسدة والحسودة» [تيت ـ ليف 3, 20, XXX]. وترك قبل رحيله لوحة تذكارية مكتوبة باللغتين البونية والإغريقية على أحد أعمدة معبد «جونون» في رأس «لاسينيون Lacinion»، روى فيها عن معاركه منذ إنطلاقه من إسبانيا.

وصل «هانيبعل» في بداية خريف عام 203 ق. م، إلى أفريقيا. هذه الأرض

التي كان قد تركها منذ كان في التاسعة من عمره كي يلحق بأبيه إلى اسبانيا، والتي لم يعد إليها منذ ذلك الوقت، أي منذ خمسة وثلاثين عاماً، وبعد أن نزل في «ليبتس مينور Leptis Minor» [«ليمتا Lemta»، الواقعة على مقربة من «موكنين Moknine»]. اتجه لقضاء فصل الشتاء قرب «هادروميت» [سوسة]. ولم يكن «هانيبعل» قد اختار صدفة هذا المكان، إذ أنه يقع على بعد مئة وخمسين كيلومتراً، مما يجعله بعيداً عن مراقبة «سيبيون»، حُرّ التصرف وخصوصاً بعد تعزيزه بالفرق التي كانت بأمرة أخيه «ماغون». كما أن القائد القرطاجي كان يتحاشى أي تدخل في شؤون الجيش من قبل أعضاء الحكومة التي لم يكن يتعمد فيها إلا على بعض الأصدقاء. وبدا أن العائلة البرقية قد اقتطعت لها هناك منطقة نفوذ في أراضي «بيزاسين Byzacene» الواقعة في إقليم «الساحل» إذ أن «هانيبعل» كان يملك هناك قلعة [تيت ـ ليف «Tunis»: 1, 48, XXXIII] تقع بين «ثابسوس Thapsus» [رأس ديماز] و«آكولا» [رأس بوتريا]، ويمكن أن تكون قرب «سولّكتوم Sullecthum» [رأس سلاقطة]. لقد نزل «هانيبعل» إذن في منطقة كان بمقدور عائلته أن تعتمد فيها على أنصارها.

لم تكن التدابير الاحتياطية التي اتخذها «هانيبعل» مبالغاً فيها. إذ أن الأحداث الخطيرة تلاحقت واستؤنفت الأعمال العدوانية حالما عاد الوفد القرطاجي من روما. فقد تعرضت قافلة بحرية تحمل قمحاً إلى جيش «سيبيون» لعاصفة هوجاء في عرض السواحل الافريقية، فتاهت بعض سفنها وجنحت إلى شاطيء جزيرة «زامبرا Zambra» الصغيرة الواقعة في مدخل خليج تونس على الشاطيء الغربي للرأس الطيب. فاجتمع «المجلس الأعلى» الذي كان يضم القضاة بضغطٍ من السكان الذين كانوا يشكون من قلة الإمدادات لمناقشة السبل الواجب اتباعها، وقرر أن يتم الإستيلاء على السفن الرومانية التي فرّ بحارتها. فقُطِرت تلك السفن حتى مرفأ «قرطاجة». فأرسل «سيبيون» وفداً للإحتجاج على ما اعتبره نهباً للقافلة وطالب بالتعويضات. غير أن مندوبيه كانوا متعجرفين فاستُقبلوا بشكل غير ودي، مما حتم عليهم العودة دون الحصول على رد واضح. وفوق ذلك، حاولت ثلاث سفن بونية صدم السفينة الرومانية التي تحمل المفاوضين بعد مغادرتها قرطاجة. وتمكن الرومان

أخيراً، بعد ما فقدوا بعض بحارتهم، من الوصول إلى شاطيء معسكرهم، حيث جنحت السفينة هناك.

كان هذا الهجوم الذي تعمدت الحكومة القرطاجية حدوثه، ربما بتحريض من الفئة الرافضة للهزيمة، كان بمثابة إعلان حرب. فأطلق «سيبيون» جيشه للقيام بعمليات تخريب ونهب في الأرياف والقرى، وأسر عدداً كبيراً من الأهالي. غير أنه كان لايزال يعتمد على مساعدة حليفه، «ماسينيسا»، كما كتب «بوليبيوس»، فلم يتوقف عن إرسال الرسل إليه «لحثه لى حشد فرقة قوية والقدوم للإنضمام إليه بأسرع مايمكن» [4, 1, XV].

أما القرطاجيون، بدورهم، فقد استغاثوا بهانيبعل طالبين منه حسم الحرب بمعركة واحدة. بيد أن القائد القرطاجي أعلم حكومته أنه ليس بحاجة إلى نصائحها، وأنه سيختار ساعة التدخل في الوقت المناسب، ومع ذلك يبدو أنه لم يكن لديه الوقت الكافي لإنهاء استعداداته. وبعد أيام قلائل من طلب العون هذا، غادر «هانيبعل» «هادروميت» وخيّم في منطقة قرب «زاما Zama» التي ربما تقع على مسيرة حوالي خمسة أيام (أي مايقارب مئة وخمسين كيلومتراً) عن قرطاجة، «إلى الغرب قليلاً عنها»، إذ لم يتمكن أحدٌ بعد من تحديد موقعها بدقة. وعليه فإنها ربما تقع في منطقة «جبل مسّوج»، بحيث تتطابق مع الموقع الحالي لقرية «جاما Jama»، غير بعيد عن «سيليانا Silliania»[٦٨].

وفي «زاما» أرسل «هانيبعل» إشارة إلى «سيبيون» مقترحاً عليه التفاوض. غير أن «سيبيون» الذي كان قد تقدم باتجاه الغرب، إلى «نوميديا» كان ينتظر أولاً قدوم «ماسينيسا»، وكان النوميدي الشاب وفياً لتعهداته، مثلما كان «سيفاكس» في تحالفه مع قرطاجة، إذ وصل على رأس عشرة آلاف رجل، منهم أربعة آلاف فارس. وتمركز الرومان وحلفاؤهم في منطقة مختارة غنية بالماء. وحينها أرسل «سيبيون» لغريمه يعلمه بموافقته على بدء المفاوضات. ويروي لنا المؤرخون الرومان المحادثات التي تبادلها أشهر قائدين في ذلك الزمن. ومرة أخرى، ورغم قناعتنا بالاستفاضة الأدبية التي رويت فيه الوقائع، طالب «هانيبعل» باتفاق يحفظ لقرطاجة، أسطولها

الحربي . لقد كانت رغبته بأن يحتفظ وطنه بمكانته بين القوى العظمى تتطابق مع السياسة المستمرة للعائلة البرقية . وباختصار سمحت هذه المفاوضات للقائدين بتبادل التقدير بينهما، غير أنها لم تسفر عن شيء .

وفي المعركة التي تلت تلك المفاوضات، والتي ربما وقعت في بداية خريف عام 202 ق . م . التقى الجيشان اللذان ماتزال قدراتهما مجهولة . إذ يروي «آبيان» أن القوات البونية كانت تضم حوالي خمسين ألف رجل بما فيهم القوات التي عادت من إيطاليا، والجنود الإسبان والأفريقيون والقرطاجيون، واثني عشر ألف مرتزق من الليفوريين والغاليين والبالیار والمغاربة الذين جندهم «ماغون» سابقاً . أما الرومان فقد كانوا بشكل خاص متفوقين بالفرسان الذين عززهم وجود الفرسان النوميديين . ومن الممكن أن يكون عدد مشاتهم قد ساوى مالدى خصومهم .

قرطاجة : (مدافن «دُغيمس») :
نوطٌ من الفخار المشوي
يمثل فارساً مسلحاً مع كلبه
(حوالي القرن السادس ق . م)

لقد أسهب «بوليبيوس» في شرح مراحل هذه المعركة [XV, 1, 9-14] . فقد كان هذا المؤرخ على معرفة بـ«ك . لايليوس» الذي قاد فرقة خيالة، فمعلوماته إذن، وإن أتت من مصادر رومانية، قد أخذت من مرجع دقيق . وحسب «لايليوس» كانت خطة «سيبيون» تتضمن إعداد ممرات واسعة متعامدة مع الجبهة بين وحدات المشاة التي نظمت هي أيضاً على ثلاثة خطوط تنفصل عن بعضها البعض، وبفضل هذا الترتيب أصبحت هجمات الفيلة البونية ضعيفة التأثير، وعلينا، خصوصاً، أن نوضح مرة أخرى وكما فعل المؤرخ «تيت ـ ليف XXX, 35, 1» دور الفرسان الحاسم الذين تمكنوا بمناوراتهم من «ضعضعة العدو» . فقد قام فرسان «ماسينيسا» الذين وضعهم

«سيبيون» في جناحه الأيمن، بالهجوم على الجناح الأيسر للفرق البونية الذي كان يضم النوميديين بقيادة «فيرمينا Vermina» ابن «سيفاكس». وبعد ذلك قام الفرسان الماسيليون مع فرسان «لايليوس» بمطاردة الفارّين، ثم التفوا بحركة تطويقية لمهاجمة مؤخرة الكتائب القرطاجية التي حوصرت بين فكي كماشة، أما في المقدمة، فقد أجبر محاربو إيطاليا القدماء والقرطاجيون على الدفاع عن أنفسهم أمام هجوم مرتزقتهم الذين رفضوا التضحية بأنفسهم فارتدوا يذبحون ويقتلون، فكانت الكارثة مروعة.

لقد بذل «هانيبعل»، بلا جدوى، كل مابوسعه. انطلق بعدها سريعاً يتبعه بعض فرسانه في طريقه إلى «هادروميت». أما «قرطاجة» فقد أجبرت على التفاوض.

إن بنود المعاهدة السابقة، التي ورد ذكرها قبلاً، جُدّدت بشروط قاسية جداً، إذ تم وضع قرطاجة بموجبها تحت رحمة جارتها «نوميديا». وحمل هذا الشرط في طياته أساس الصراع الذي سوف يُدمر «قرطاجة»، إذ كان على القرطاجيين أن يعيدوا إلى «ماسينيسا» كل ماكان يملكه هو وأجداده من عقارات وأراضٍ ومدن... الخ في داخل الحدود التي ستوضع لاحقاً» [بوليبيوس XV، 1، 18].

حاول «هانيبعل» من جهته أن يرسم لقرطاجة طريقاً جديداً، معتمداً على الغضب الذي سيطر على الشعب المُهان. فحين انتخب عام 196 ق.م قاضياً، باشر بتطبيق برنامج واسع للإصلاح والتطهير. فسعى أولاً إلى تنظيف الهيئة السياسية والإدارية التي تفشى فيها الفساد والضعف منذ أمدٍ بعيد. فطلب القاضي «هانيبعل» من الحاكم الذي كان يدير الأموال العامة كشوفاً بالحسابات، وحين رفض تم تقديمه إلى «المجلس الشعبي» الذي خلعه من منصبه. وكشفت التحقيقات عن الخطط والإمتيازات التي كانت تستعملها الأقلية الحاكمة بهدف المحافظة على مصالحها الإقتصادية وتضخيم ثرواتها. لقد كان «هانيبعل» يكتشف عقرباً تحت كل حجر يرفعه. بعدها أراد «هانيبعل» أن يباشر باصلاح أعلى هيئة قضائية، وهي مجلس «المئة وأربعة» التي كان أعضاؤها يعينون مدى الحياة، فقرر أن يتم انتخابهم، منذ تلك الساعة، لمدة سنة واحدة غير قابلة للتجديد. أما بشأن جمع الغرامات التي

يجب دفعها إلى روما، فكان من غير المجدي فرض ضرائب جديدة. إذ كان يرى أن ضبط الأوضاع المالية كفيل بتقديم المال الضروري. كانت هذه الخطوات تعني بالنسبة للمتضررين من أصحاب المصالح شيئاً خطيراً، فقاموا بإبلاغ «روما» بالمكائد المقلقة التي يقوم بها هذا «المتمرد» فأجبر البرقي، وهو يحاول مرة أخرى إنقاذ وطنه، على الابتعاد.

التجأ «هانيبعل» في عام 195 ق.م إلى سوريا، ضيفاً على بلاط «انطيوخوس Antiochos» السلوقي أولاً. غير أنه انتقل إلى بلاط «بروسياس Prusias» ملك «بيتينيا Bythinie» بعد توقيع صلح «أفاميا Apamee». وكان يحاول في كل مناسبة، دون نجاح يذكر، إحياء تحالف ضد العدو الروماني المشترك الذي يهيمن على البحر المتوسط. وفي عام 183 ق.م، وربما بعد أن شعر بخيانة صديقه الذي كان يريد أن يسلمه إلى الرومان، فضّل «هانيبعل» تجرع السم على الوقوع في أيدي أعدائه. يكتب «بولُيبيوس» في لوحة معبرة توجز لنا حرب «هانيبعل» في إيطاليا: «في خضم هذه الأحداث التي كانت تؤلم الجميع، من رومان وقرطاجيين، كان سببهما شخص واحدٌ فقط وفكرة وحيدة: إسمي «هانيبعل». [. . .] أي عظمة، بل وأي شيء رائع أن يكون الإنسان موهوباً بهذا الشكل عند ولادة عبقرية توازي أي طموح إنساني مهما كن نوعه!» [22, 7, IX].

الفصل السابع

«علينا أن نزيل قرطاجة من الوجود»

Delenda est Carthago

لقد توقف تاريخ العاصمة البونية العظيمة في «زاما». وبدون شك، حاولت المدينة المهزومة، خلال نصف قرن لاحق، أن تتكيف مع الشروط الجديدة التي فرضها مجلس الشيوخ الروماني. ولكن لم تكن على أية حال سوى مدينة بُتَّ في مصيرها وتحاول أن تستفيد من فرصة أخرى.

لقد ابتلع البحر المتوسط امبراطوريتها كلها، إذ كان على قرطاجة أن تُسلم سفنها الحربية من جميع أنواعها، والتي زاد عددها عن خمسمائة، اقتيدت إلى عرض البحر وأشعلت فيها النار على مرآى من سكان المدينة. وأنّت قرطاجة من ثقل الغرامة الحربية التي بلغت عشرة آلاف تالان تُدفع على خمسن سنة، ولم يعد بمقدورها القيام بأية عمليات حربية خارج «ليبيا»، وحتى هناك لم يكن بمقدورها اللجوء إلى اسلاح إلا بموافقة «روما». لقد أصبحت قرطاجة مجرد أرض أفريقية. إضافة إلى أن هذه الأراضي كانت تعرض لتعديات متواصلة من جانب «ماسينيسا». ولو لم تكن عمليات الإلحاق تلك التي فككت شيئاً فشيئاً آخر معقل كان يمثل قوتها السابقة، ولو لم يكن ذلك الحقد يعتمل في قلوب بعض الرومان الذين لم يكونوا قد

نسوا هزيمة «كاني»، لو لم يكن هذا كله، لكان من الممكن أن تنتقض المعجزة القرطاجية مرة ثالثة، ولكن هذا كان يعني حرباً ثالثة يندلع إوارها.

ينقل لنا «بلوتاركوس» طرفة، ربما صدرت عن الرومان لتبرير ماسيحدث، فيما يخص المعسكر الداعي للحرب والذي قاده «ماركوس بوركسيوس كاتون Marcus Porcius Caton». إذ أخذ هذا الشخص يغذي الحقد الدفين ضد الدولة البونية، مع أنه كان يكتم بذكاء خبثه بوقوفه إلى جانب الرومان التقليديين أنصار مبدأ «العودة إلى الوطن». وذات يوم جلب إلى مجلس الشيوخ الروماني ثمرة تين طازجة ورفعها بيده معلناً «اعلموا أن هذه الثمرة قد قطفت من قرطاجة التي تقع على بعد ثلاثة أيام، كم إن العدو قريبٌ من أسوارنا!» وأنهى هذا الخطيب الذي يبلغ الثمانين عاماً خطبته برأي لخص فيه كل مراده فقال: «والآن أقول لكم، وأعيد القول، علينا أن نزيل قرطاجة من الوجود!» [Delenda est Carthago]. لقد أبدى البعض عدداً من الآراء في أسباب الصراع الأخير، هل كانت روما تخشى من إمتداد «الثورة» الديمقراطية التي كانت تتسلسل في قرطاجة. حيث كان صوت الشعب راجحاً في عمليات «التشاور» إليها؟ أم كان خوفها من طموحات حليفها «ماسينيسا» الذي قد يتمكن، بذريعة استعادة إرث أجداده، من الإستيلاء حتى على قرطاجة ذاتها، وبسط سيطرته بذلك على امبراطورية تمتد من شواطيء «سيرت Syrtes» إلى «مولوكا Mulucha» [وادي المولوية، في المغرب الشرقي]، مما يشكل خطراً نوميدياً مرعباً يرث الخطر القرطاجي؟ أم أنها كانت تخشى من أن يتمكن الملاّكون الزراعيون البونيون، الذين يستفيدون من ميزات تقدمهم التقني من منافسة المزارعين الإيطاليين الذين كانوا لايزالون أسرى الأساليب العتيقة في الأعمال الزراعية ـ كان هذا التنافس على أشده خصوصاً أن دفع الغرامة الحربية المستحقة لروما كان سينتهي في عام 151 ق.م، مما سيتيح لقرطاجة الحرة، منذ تلك السنة فصاعداً، استثمار عائداتها في تطوير اقتصادها الزراعي؟ إن جميع هذه الإعتبارات لعبت دوراً قليلاً أو كثيراً باتخاذ القرار بالحرب، إلا أن السبب الأساسي هو غير ذلك كله. فقد كان أصحاب السفن الإيطاليون يرغبون بالإطمئنان تماماً إلى استمرار سيطرتهم المطلقة على تجارة البحر

المتوسط، فمعاهدة عام 201 ق.م، لم يتمنع القرطاجيين من بناء سفن تجارية، ولم يكن أحد يجهل أن القباطنة والبحارة القرطاجيين يبزّون الجميع في هذا المجال، لقد كان هذا هو السبب الحقيقي للحرب. ونتج عنه تدمير قرطاجة. إذ أن مرافئها ظلت مركزاً لنشاط آخر بالقوى المهيمنة في الأوساط المالية المسيطرة على الوسائط البحرية في «روما».

إن ذريعة الحرب العادلة Bellum Justum، كما دُعيت جاءت في وقتها فقد حاولت قرطاجة صدفة، في ربيع عام 151 ق.م، أن تعارض بقوة السلاح مشاريع التوسع التي كان يقوم بها «ماسينيسا»، فاتهمها مجلس الشيوخ الروماني بخرق معاهدة السلام وأعلن الحرب ضدها. مع ذلك، احتفظ هذا المجلس بسيناريو وُضع بشكل منهجي، سيطبق على مراحل ويقود المدينة إلى الخضوع كلياً دون أن تبقى لديها القوة لترفض مصيرها الذي سيفرض عليها شيئاً فشيئاً مما سيؤدي إلى فناءها التام.

فقدم إلى «روما» وفد بوني ضم مندوبين مطلقي الصلاحية، وضعوا مصير مدينتهم تحت رحمتها. فتلاحقت المطالب، يتلو بعضها بعضاً، وبمقدار ماكان المندوبون يوافقون عليها كان القرطاجيين في البداية أن يسلموا ثلاثمائة رهينة يتم اختيارهم من بين أبناء أعضاء «المجلس الأعلى» ومجموعة «المئة» ـ مما أتاح الفرصة لرؤية المشاهد مؤثرة وبشكل خاص من جانب الأمهات اللواتي كان عليهم رؤية أولادهن يرحلون ـ وعلم مواطنوا المدينة، فيما بعد، مذهولين، أن عليهم أن يسلموا جميع مايملكون من أدوات الحرب، التي كانت كثيرة جداً، فأطاعوا دون تردد معتقدين أن هذا آخر الشروط، غير أنه في عام 149 ق.م، قام القنصلان بالنزول مع جيش روماني في «أوتيكا»، والتي كانت تحت حماية «روما»، وعندما حلت ساعة الهجوم الأخير، أخطروا المفاوضين القرطاجيين بالقرار النهائي: «اتركوا قرطاجة، وأجلوا سكانها عنها إلى مكان ترونه مناسباً بشرط أن يبعد عن البحر ثمانين غلوة [حوالي 15 كيلومتر] لأننا قررنا تدمير المدينة [آبيان، Libyca، 81]. وأمام وجوم ويأس المفاوضين، قام أكبر القنصلين سناً بإبداء بعض الملاحظات عن أسباب هذا

الحكم: «إن رؤية البحر سوف تذكر القرطاجيين دوماً بمجدهم الغابر مما سيقودهم إلى ارتكاب الحماقات القديمة مثل غزو صقلية وسردينيا واسبانيا، وبالنسبة للسكان من الممكن أن تقدم لهم الزراعة قدراً أكبر من الطمأنينة مما كانت تقدمه لهم التجارة البحرية، وبما أن التفوق البحري سيكون من نصيب روما فقط، فمن الأفضل للقرطاجيين أن يعملوا بسلام في الزراعة، داخل الأرض الأفريقية».

بيد أن قرطاجة لم تُخلق لتكون حاضرة ريفية. لقد ولدت من البحر، وظلت هذه المدينة في أساسها مرفأ فحسب، ولم يكن بمقدورها أن تتنفس إلا على البحر. كيف تتمكن من ترك موتاها، ومحارقها Tophet التي شهدت قرابينها، ومعابد آلهتها؟ لقد قرر القرطاجيون أن يدافعوا حتى الموت.

بدأت عمليات «الحل النهائي» في عام 149 ق. م، ومرة أخرى، أظهرت قرطاجة أنها لاتخرج عن تقاليد بناتها القدماء. لقد احتاج «الاسكندر» لسبعة أشهر كي يهزم «صور» المحصنة في جزيرتها. وتحتم على الفيالق والأساطيل الرومانية أن تحارب ثلاث سنوات أمام مدينة «إليسار» قبل أن يتمكن «سيبيون إيميليان Scipion Emilien»، وهو رجل مشبعٌ بالثقافة الهيلينية، من أن يوجه لها طلقة الرحمة، وهو يردد أبيات الشاعر «هوميروس».

ماتت قرطاجة في ربيع عام 146 ق. م، وقام بعض المؤرخين، مثل «بوليبيوس» الذي شهد تلك الأحداث، وأستقى «أبيان» منه، قاموا بوصف ماحدث بدقة، وكأنه ريبورتاج صحفي وخصوصاً المشاهد الفظيعة التي تلاحقت في الأيام الستة الأخيرة، وأهوال حرب الإبادة تلك التي سببت المذابح وأدت إلى اختفاء مدن بأكملها. والمعارك الشرسة التي دارت في الشوارع التي حفّت بها الأبنية ذات الست طبقات والتي قاتل سكانها ببسالة في كل بيت وقبو وشرفة. لقد ابتلعت المدينة بانهيارها البطيء أحياءها وأمواتها. ودارت زمرٌ من الجنود الرومان، مسلحين بالمعاول والرفوش، على أنقاض البيوت يجرون الجثث ويلقون بها في خنادق كان يمكن أن ترى فيها، بين أكوام الحصى، العديد من الجرحى الذين كانوا لايزالون ينتفضون. وفي اليوم السابع خرج خمسون ألف شخص، من الرجال والنساء

والأطفال، من قلعة «بيرسا» وهم يتضورون جوعاً واستسلموا لرحمة الفاتحين ـ وبيعوا فيما بعد في أسواق العبيد مثل جميع من بقي حياً. أما «هاسدروبعل» الذي قاد القرطاجيين في هذه الحرب، فقد تناسى كلماته المتعجرفة: «أنه لن يأتي مطلقاً ذلك اليوم الذي سيرى فيه ضوء الشمس ومدينته طعم للنار، هذه النار ستكون احتفالاً جميلاً يواكب جنائز الناس الشرفاء الذين فقدوا وطنهم» [بوليبيوس، 8,2, XXXVII]. لقد اختار هذا القائد أن يستسلم متوسلاً رحمة المنتصرين. وكان معبد الإلـه «إشمـون» آخر معقل للمقاومة وهو يشرف على «الأكروبول»، فأشعل القرطاجيون النار فيه، ليحترقوا معه، ويضعوا حداً لحياتهم بهذه الطريقة. أما زوجة «هاسدروبعل» فقد أطلّت من شرفة المعبد بكامل زينتها ممسكة بطفليها، لعنت زوجها لخيانته شعبه، ثم تضرعت إلى آلهتها، وبعد ذلك دفعت بطفليها إلى النار، وفعلت هي الشيء نفسه، كما فعلت قبلها «إليسار»، رغم أن «سيبيون» كان يعدها بإنقاذ حياتها.

كتب «أبيان Libyca 133,» : «قيل أن «سيبيون» حينما رأى قرطاجة وقد دُمرت تماماً، بكى على مصير أعدائه، وبكى متأملاً للحظات، وهو يحكم أن المدن والأمم والأمبراطوريات هي جميعها، مثل الناس، إلى زوال بقوة الآلهة [. . .]، وروى، قصداً أو بدون إرادته، هذه الأبيات الشعرية:

سيأتي اليوم الذي تهلك فيه «إليون»* المقدسة
ومعها «بريام» وقوم «بريام» ذوي الرماح الجيدة

استمرت النيران تستعر في قرطاجة طوال عشرة أيام. أما «روما» فقد نظمت الاحتفالات العظيمة حينما علمت بالخبر السعيد، وشكل مجلس الشيوخ لجنة لتحويل الأراضي البونية إلى إقليم تابع، طالباً أن تحل اللعنة على أنقاض المدينة.

---

* «إليون Elion» أحد أسماء طروادة.

المترجم

قرطاجة: (توفيت سلامبو)، نصب نذري مثلث الشلال يمثل مُقدمة قربان جاثية على ركبتيها. (حوالي القرن الرابع ق.م)

فُدكت بقايا أسوارها، وصب «سيبيون» لعناته التي تحرم على الناس هذه الأرض الموقوفة لخلود آلهة الجحيم، ثم ذُرّت أرضها بالملح. وإلا أن هذه اللعنات الأبدية لم تستمر، فبعد ثلاثة وعشرين عاماً من هذه الطقوس الإحتفالية، لم يخشّ «كايوس كراكشوس Caius Gracchus» من تأسيس مستوطنة رومانية تطاولت على الملح الملعون.

لم يكن دمار المدينة العظيمة وتصفية شعبها ليشير بالتأكيد إلى نهاية العالم البوني. فنحن نعلم أن القرطاجيين لم يكونوا فقط مواطني المدينة الأم، أي أن قرطاجة لم تكن محصورة ضمن أسوار قرطاجة. لقد دمغت العاصمة ببصمتها، ليس فقط أراضيها ومستعمراتها الأفريقية ـ حيث ازدهرت حضارة مركبة مبتكرة ـ بل أيضاً صقيلة وسردينيا واسبانيا الجنوبية. لذا بوسعنا أن نتحدث عن استمرار «الفكر القرطاجي» ولقرون لاحقة على طول تلك السواحل. وحتى في أيامنا هذه، هل امّحت هذه الآثار؟ ويبقى بعد أن اختفت قرطاجة من الوجود، أنه لم تكن توجد أبداً قوة بونية منتظمة سياسياً في البحر المتوسط، فإن «قرت حَدَشت» [المدينة الجديدة] كانت مركباً فريداً من نوعه، ولقد غرق هذا المركب ومعه الامبراطورية.

وبإمكاننا أن نسرع في الحكم على مصير هذا الشعب المقدام والجشع، الذي لم يكن يستسيغ صناعة الأسلحة، وكان يستخدم جيشاً من المرتزقة. ورغم ذلك قدم هذا الشعب في نهاية تاريخه مثالاً عالياً في التضحية والكرامة أثناء الثورة ـ حتى لو أن هذه الانتفاضة جاءت متأخرة ـ ضد الأوامر الهجمية التي فرضتها «روما». لقد كان القرطاجيون في تلك الأيام يقاتلون لا لفوائد تجارية، بل دفاعاً عن فكرة، عن الحرية وعن نوعٍ من الإخلاص الراقي. إن هذه الصلابة العبثية التي هدفت لإنقاذ مثل عليا لم تكن دون أساس. وبدون شك، علينا أن نستعيد ماقاله «تيت ـ ليف» [12, XXVIII] في شعب قرطاجه كله، حيث تحدث عن أحد رموزها السامية «هانيبعل»: «ولا أعرف ما إذا كان يوجد أروع منه في أوقات الكوارث أو الإنتصارات».

ملاحظات المؤلف

ملاحظة : بالنسبة للأعمال التي ظهرت في الدوريات، سيجد القارىء المراجع الفهرسية المعتادة، أي : اسم الكاتب، عنوان المقال، اسم المجلة ورقم المجلد (بالأرقام الرومانية)، وتُكمل إذا كان ضرورياً برقم الكرّاس (بالأرقام العربية)، وسنة نشر الدورية وترقيم صفحات المقال (أو إشارة إلى الصفحة التي يعود إليها المقال).

1- P. Valery, Variete. La Crise de l'esprit, dans Oeuvres, Paris, Gallimard, «Bibl. de la Pleiade», 1957, t. I, p. 988.

2- Cf. Appien, Libyca, 87.

3- Augustin , Ep. ad Romanos inchoata expos., 13, PL, t. 35, 2096.

4- كما في النقش الآكادي الذي يظهر على تمثال «الملك «إيدميري Idmiri »، وفي ثلاثة مواضع، في ألواح «آلالاخ». انظر: S. Smithe, the Statue of Idmiri, Londres, British Instit. of Archaeol. at Ankara, 1949, P. 14; D. J. Wiseman, The Alalakh Tablets, Londres, British insti. of Archaeol. at Ankara, 1953, P. 46.

5- انظر إلى المقال الممتاز الذي كتبه «R. de Vaux» بعنوان «بلاد كنعان» «Les Pays de Canaan» في :

Journal of the American Oriental Society, 88, 1968, P. 23- 30.

6- K. M. Kenyon «Amorites and Canaanites». Londres, Public. for the British academy (the Schweich lectures), 1966.

7- C. L. Wooley, «La Phenicie et les peuples egeens», Syria, II, 1921, P. 176- 194.

8- P. Montet, Byblos et l'Egypte, Paris, P. Geuthner, 1928.

9- R de Vaux, «La Phenicie et les Peuples de la Mer», Melanges de l'Universite Saint-Joseph de Beyrouth, XLV, 1969, P. 479- 498.

10- انظر إلى أعمال:

E. A. Speiser, «The Name Phoinikes», Languge,XII, 1936, P. 124- 125; B. Maisler, «Canaan and The Canaanites», Bulletin of The American Schools of Oriental Research, 102, avril 1946, P. 7- 12; S. Moscati, «Sulla storia del nome canaan», Studia Biblica et Orientalia, III, 1959, p. 266- 269, M Astour, «the Origin of the Terms «Canaan», «Phoenician» and «Purples,», Journal of near Eastern Studies, XXIV, 1965, p. 346- 350.

11- Cf. C. H. Gordon, Ugaritic Handbook, Rome, «Analecta Orientalia», No38, Pontificio Instituto biblico, 1965. (glossaire, No 2028 et No 2031).

12- S. Gsell, «Histoire ancienne de l'Afrique du Nord», t. I, Paris, Hachette, 1921, zeed., p. 371- 372.

13- P. Cintas, Fouilles puniques a Tipasa, Alger, J. Cabronel, 1949, p.2(paru dans Reve africaine , XCII, 1948, p. 263- 330, cf. p. 264); J. G Fevrier, «L'ancienne marine phenicienne et les decouvertes recentes», La Nouvelle clio, I, II, 1949- 1950, p. 128- 143.

14- انظر الملاحظات المثيرة لـ. ج. جيرمان،

Essai sur les origines de certains themes odysseens et sur la genese de l'Odyssee, Paris, PUF, 1954, p. 444- 450.

15- Odyssee, XV, 415- 482- trd. fr. par M. Dufour et J. Faison, Paris, Garnier, 1957.

16- قدم هذه التواريخ:

E. O. Forres, «Karthago Wurde erst 673- 663 v. Chr. gegrundet», Festschrift Franz dornseiff, leipzig, Bibliogr. Inst., 1953, p. 85- 93, cf. Nachtrag, I.

17- R. Carpenter, «Phoenicians in the west», American Journal of Archaeology, LXII, 1958, p 35- 53

18- انظر إلى التقارير التي قدمها :

M. Cagiano de Azevedo et al., Missione archeologica italiana a Malta. Rapporto preliminare della compagna 1963, Roma, Instituto di Studi del vicino Oriente, Universita degli studi, 1964,

وتقارير أخرى نشرتها البعثة الآثارية الإيطالية عن أعمالها المنفذة في مالطا.

19- A. Ciasca, V. Tusa et al., Mozia- I. Rapporto Preliminare della compagna di scavi 1964, Roma, Instituto di studi del vincino Oriente, Universita degli Studi, 1964; B. S. J. Isserlin et al., «Motya, a Phoenician- punic site near Marsala, Sicily. Preliminary Report of the leads- London- Fairleigh Dickinson Expedition, 1961- 1963», Annual of leeds University Oriental Society, IV, Leiden, 1962- 1963, p. 84- 131; S. Moscati, «Sulla piu a ntica storia dei Fenici in Sicilia», Oriens Antiques, VII, 1968, p. 185- 193.

20- انظر :

Voir S. Moscati, Fenici e Cartaginesi in Sardegna, Milan, Il Saggiatore di A. Mondadori, 1968.

21- R. Rebuffat, «Une Pyxis d'ivoire perdue de la tombe Regolini- Gualassi», Melanges d'archeologie et d'histoire de l'ecole francaise de Rome, LXXVIII, 1966, p. 7- 48.

22- P. Cintas, «Deux campagnes de fouilles a Utique», Karthago, II, 1951, p. 1- 88; «Nouvelles recherches a Utique, ibid., V.1954, p. 89- 155.

23- انظر، بشكل خاص، الآراء المتناقضة أحياناً لـ:

W. F. Albright, «New light on the early of phoenician Colonization» Bullatin of the American Schools of Oriental Research, LXXXII, 1941, p. 14- 22; A. Schulten, Tartessos, Hambourg, Cram, De Gruyter, 1950, 2e ed,; J. M. Sola sole, «Tarshish y los comienzos, XVII, 1957, p. 23- 35; P. Cintas, «Tarsis, Tartessos, Gades», Semitica, XVI, 1966, p. 5- 35; J. M. Blasquez, Tartessos y los origines de la colonizacion fenicia en Occidente, Salamanque. Universited, 1968.

24- Ez 27, 1- 36. La Bible. Yehezqel, Paris, Deschee de Brouwer, 1974, (Trad. fr. par A. Chouraqui).

25- Cf. Servius, In Aeneid., I, 366: «Carthago est lingua Poenorum noua Ciuitas, ut docet Liuius.».

26- Justin, Histoire universelle, XVIII, 4- 6- trad. fr. par J. Pierrot, Paris, Pancke, 1827.

27- Cf. Flavius Josephe, Contre Apion, I, 125.

28- انظر الوثائق التي يوردها:

G. Comps, Aux Origines de la Berberie, Massinissaou les Debuts de l'histoire, dans Libyca (Serie Archeologie- Epigraphie), VII, 1er Sem. 1960, p. 26- 29.

29- Cf. C. Muller, Fragmenta historicorum graecorum, Paris, Didot, 1841sq., t.I, p. 197 (Timee, fragm. 23).

30 إنها الفرضية التي يروجها:

E. Forrer, Op. cit.

31- P. Cintas, Manuel d'archeologie punique, I, Paris, A. et. J.Picard, 1970, p. 310- 311 et p. 440- 442

32- انظر مقالات:

R Duval, «L'enceinte de carthage», Comptes rendus de L'Academie des Inscriptions et Belles- Lettres, 1950, p. 53- 59; F. Reyniers, «Remarques sur la topographie de carthage a L'epoque de la troisime guerre punique», Melanger Piganiol, Paris, S. E. V. P. E. N., 1966, p. 1281- 1290.

33- P. Gauckler, Necropoles Puniques de Carthage, Paris, A. Picard, 1915, p. 500- 501.

34- S. Gsell, op. cit., t. II, Paris, Hachette, 1928, 3e ed., p. 142.

32 انظر المقالات المشار إليها في الملاحظة 35

36 عن هذه النقطة، والتي تثير نقاشاً واسعاً، انظر إلى أعمال:

C. Saumagne, «Le Port punique de Carthage; Observations et hypotheses», Historia, V, 2,1931,p. 173- 195; «Le lungomare de la carthage romaine», Karthago, X, 1959-

1960; J. Bardez, «Nouvelles recherches sur les ports antiques de carthage» Karthago, IX, 1958, p. 45- 78; P. Mingazzini, «Il porto di cartagine ed il kothon», Atti della accademia dei lincei, Rendiconte, cl. di Sc mor. stor. e filol., 23, 1968, p.137- 152.

وعن نتائج التنقيبات الأثارية الجارية في «جزيرة قائد البحرية الصغيرة» انظر:

H. Hurst, «Excavations at Carthage, 1974- First interim report», The Antiquaries Journal, LV, 1, 1975, P. 11- 40 (avecX pl).

37- Cf. S. Gsell, op. cit., t. II, p. 142.

وفيما يخص هذه الترجمة ، وتفسيرها ، بخلاف الملاحظات السابقة التي ذكرها C. Saumagne (انظر الملاحظة 36) ، يجب قراءة ملاحظات P. Cintas في : Manuel d'archeologie punique, II, Paris, A. et J. Picard, 1976, p. 139- 233.

إن الكاتب هذا يريد أن يقترح علينا ترجمة «لا تأويلية ولامشوهة» لنص «آبيان» الذي لايزال يثير النقاش.

38- Cf. L'etat de la question dans le travail de p. cintas, op. cit. (note 37), p.234- 287.

39- P. Gauckler, op. cit., p. 399- 400.

40- Aristote, politique, II, 11, 1272b- 1273b- trad. fr. for J. Aubonnet, Paris, coll, bude, 1960,

41- Cf. Strabon, Geographie, I, 4, 9.

42- Polybe, Histoire, livre VI, ch. 7. paragr. 51 إن ترجمة هذا المقطع ، وكافة الأقوال المنسوبة إلى «بوليبيوس» : أخذت عن :

D. Roussel, Paris, Gallmard, «Bibl. de les Pleiade», 1970.

43- عن هذا المقطع الخاص بالجيش البوني فإن كتاب :

S. Gsell, op. cit., t. II, p. 331- 435.

يبقى مرجعاً أساسياً.

44- انظر إلى مقال

S. Gsell, «Etendue de la domination carthaginoise en Afrique», Recueil de memoires et de textes publies en l'honneur de XIVe Congres des Orientalistes, Alger, Ecole

supeneure de lettres, 1905, p. 347- 387m a Corriger par C. Saumagne, «Observations sur le tracee de la 'Fossa regia'», Rendeconti della reale Accademia dei lincei, 1928, p. 451- 459.

45- Columelle, De re rustica, XII, 39, 1- 2.

46 من أجل هذا الموضوع انظر بحث:

M. H. Fantar, «Presence punique au Cap Bon», Kokalos, XVIII- XIX, 1972- 1973, p. 264 277, J. P. Morel, «Kerkouane, ville punique du cop Bon: remarques archeologiques et historiques», Melanges d'archeologie et d'hisoire de l'Ecole francaise de Rome, LXXXE, 1969, p. 473- 516,(cf. p. 474- 488: «Lamaison du Sphinx»).

47- إن أوضح «تعرفة قربانية» اكتشفت في عام 1944 ، في مدينة «مرسيليا» وهذه الوثيقة المعروضة حالياً في متحف «بوريلي Borely » أتت من «قرطاجة»، وبالنسبة إلى ترجمتها يمكن الرجوع إلى مقال:

M. Sznycer, «La litterature punique». Archreologie vivante, I, 2, 1968- 1969, p. 141- 148 (cf. p. 144- 145), et J. -G. Fevrier, «Remarques sur le grand Tarif dit de Marseille», cahiers de Byrsa, VIII, 1958- 1959, p. 35sq.

48- P. Cintas, Ceramique punique, Paris, Klincksieck, 1950, p. 4

49- Ibid., p. 5.

50- عن موضوع التماثيل الوعائية الصغيرة التي وجدت في «توفيت» ومدافن كافة البلاد الخاضعة للنفوذ البوني في البحر المتوسط الأوسط والغربي، انظر إلى دراسة:

J Ferron et M. Eaubet, Orants de carthage, 2 Vol., Coll. cahiers de Byrsa, serie Monographis, t. I, Paris, 1975.

51- G. Charles- Picard, le Monde de carthage, Paris, Correa, 1956, pl. 16, No.4.

52- Cf. J. Ferron, «Textes graves sur rasoirs puniques», le Museon, LXXIX, 1966, p. 443- 451; C. picard, «Sacra punica, etude sur les masques et les rasoirs de carthage», Karthago, XIII, 1965- 1966 (1967), p. 1- 116 et XXXVII pl.

53- يوجد وصف جيد التشكيلة لقشور بيض النعام،

وصلت من الموقع البوني «قُرية» [غونغو Gunugu]، على الساحل الجزائري - قرب «شرشال»، في معرض:

M Astruc, «Supplement aux fouilles de Gouraya», Libyca (Serie Archeologie-Epigraphie), II, 1er sem. 1954, p. 9- 48.

54- P. Gauckler, op. cit., p. 398- 399.

55- انظر دراسة:

G. Camps, op. cit., p. 57- 157.

56- A. Mahjoubi et M. Fantar, «Une Nouvelle inscription carthaginoise», Atti della Accademia Nazionale dei lincei, CCCLXIII, 1966, Rendiconti, classe de Scienze morale, storiche e filologiche, XXI, fasc. 7- 12, p. 201- 209

57- Cf. La Communication d'A. Dupont- Sommer, «Une nouvelle inscription punique de Carthage», Comptes rendus de l'Academie des Inscriptions et Belles, Lettres, 1968, p 116- 132.

58- Plutarque, Ethica (lat. Moralia- Praecepta gerendae rei pablicae, III, 6); sur ce meme point, voir S. Gsell, op. cit., t. IV, 1929, 2e ed., p. 215- 220.

59- عن هذه المعاهدة وعن مسألة التأريخ إنظر:

J. Heurgon, Rome et la Mediterranee occidentale jusqu'aux guerres puniques, Paris, PUF, Coll. «Nouvelle Clio», 1969, p. 386- 395;

وبالنسبة للنقوش الثنائية اللغة المكتشفة في موقع «بيرجي Pyrgi» انظر لنفس الكاتب:

«Les inscriptions de pyrgi et l'alliance etrusco- punique autour de 500 av. J. C., Comptes rendus de L'Academie des inscriptions et Belles, Lettres, 1965, p. 89- 103, et dernier travail de J. Ferron, «Un traite d'alliance entre Caere et Carthage Contemporain des derniers temps de la royaute etruque a Rome ou l'evenement commemore par la quasi- bilingue de pyrgi», Aufstieg Und Niedergong der Romischen Well, Berlin, Walter de Gruyter, t. I, 1, 1972, p. 189- 216 et III pl. (importante bibliographie).

60- Cf. R. Carpenter, «Navigateurs puniques sur les routesde la mer», Archeologie vivante (voire note 47).

61- بخلاف الأعمال التي أُشير إليها (الملاحظة 19)، انظر:

B. Pace, Arte e civilta della Sicilia, I, Milan- Rome- Naples, Societa Editria Dante Alighieri, 1958, 2e ed.; L. Pareti, Sicilia antica, Palerme, Palumbo, 1959.

62- انظر إلى الملاحظة «20» وإلى :

F. Barreca, «La citta punica in Sardegna», dans Bolletino del centro di studi per lastoria dell'architectura, XVII, Rome, 1961, p. 27- 37; sur le monte Sirai, voir les divers rapports des campagnes de fouilles (pour 1963 et les annees suivantes) etablis par F. Barreca, M. G. Amadesi, S. Moscati, M. et D. Fantar et autres (publies par l'Istituto di studi del vicino Oriente de l'Universita de Rome.

63- Cf. note (18).

64- P. Cintas, Fouilles puniques a Tipasa, op. cit., p 8- 9; Ceramique punique, op. cit., p. 574; Contribution a l'etude de l'expansion carthaginoise au Moroc, Publications de L'institut des Hautes Etuds marocaines, No 66, 1964, p. 10- 16 (انظر خصوصاً ص 11) علينا أن نراقب دون توقف الهياكل الضعيفة التي كان عليها أن تبحر بلا توقف. إن السير في البحر ولأيام طويلة متواصلة كان بحد ذاته عملاً باهراً، وبالنتيجة كان يتحتم التوقف كل مساء لسحب مراكبهم إلى اليابسة).

65 لهذا الموضوع، انظر ملاحظات :

J. Roge, La marine dans l'Antiquite, Paris, PUF, coll, «sur», 1975, p. 154.

66- Cf. Note 46.

67- فيما يخص المراجع الأدبي عن كتاب Augustin d'Hippone انظر:

C. Courtois, «Saint Augustin et la survivance du punique», Revue africaine, XCIV, 1950, p. 259- 282; M. Benabou, la Resistance africaine a la Romanisation, Paris, Maspero, 1976, p. 483- 489.

68- J. Corcopino, le Maroc antique, Paris, Gallimord, 1943, 1re ed., p. 26- 27.

69 عن مختلف هذه المواقع، انظر الكتاب الممتاز لـ:

G. Vuillemot, Reconnaissances aux echelles puniques d'Oranie, Autun, Musee Rolin, 1965. وعن جزيرة «راشغون» انظر في المرجع السابع ص 36 -40 وص 55 -130 .

70- A. Garcia y Bellido, «Colonizacion punica», dans R. Menendez- pidal, Historia de Espana, t. 1, vol. 2, Borcelone, Espasa- calpe, 1952 (1960, 2e ed.), p. 389- 462 («las Colonias Punicas»), et cart p. 314.

71- هذه وجهة نظر:

G. charles. Picard, Hannibal, Pans, Hachette, 1967 (cf. p. 79sq., 93sq.);

ولقد عارض هذه الفرضية:

J. P. Brisson, Carthage ou Rome?, Paris, Fayard, 1973. (cf. p. 131- 133).

73- عن أسباب الحرب البونية الثانية، انظر الآراء التي عرضها:

J. Carcopino, «le traite d'Hasdrubal et la responsabilite de la seconde guerre punique», Revue des etudes anciennes., LV, 1953, p. 258- 293, (فيه يطابق الكاتب نهر «الإيبر» مع نهر «ريوجوكار»).

وانظر:

F. Cassola, I Gruppi politici Romani nel III, secolo a. C., Trieste, Arti Grafiche, smolars, 1962, p. 246- 253.

(يذكر فيها المسؤوليات الرومانية) وفيما يخص موضوع المعاهدة بين «هاسدروبعل» و«روما»، انظر البيليوغرافيا النقدية لـ:

G. Charles- picard, Hannibal, op. cit., p. 264- 265.

73- Herodote, IV, 196 (cf. S. Gsell, Herodote, Alger, A. Jordan, Universite d'Alger, Textes relatifs a l'histoire de l'Afriquedu Nord, fascicule I, 1916, p. 35, et J. Carcopino, op. cit., p. 108).

74- انظر ملاحظات:

R. Dion «le Probleme des cassiterides», Latomus, XI, 1952, p. 306- 314.

75- Cf. M. Sznycer, op. cit., p. 146- 147.

ويتناول في مجمله الترجمة التي وضعها:

S Gsell, op. cit., t. I, p. 476 sq.

76- من بين محاولات التفسير تلك، توجد محاولة تعتبر الآن مرجعاً موثوقاً في هذا الخصوص، لـ:

J. Carcepino, «le Maroc, Marche punque de l'or», Repris dans le Maroc antique, op. cit., p. 73- 173;

ولما يناقض هذا التأويل، انظر إلى آراء:

R. Mauny, «La Navigation sur les cotes du Sahara pendant l'Antiquite», Revue des Etudes anciennes, LVII, 1955, p. 92- 101, et de G. Germain, «Ou'est- ce que leperiple d'Hannon? Document, amplification litteraire ou foux integral?», Hesperis, XLIV, 1957, p. 205sq.

77- J. Carcopino, op. cit., p. 105- 119 et 130- 163.

78- Voir G. Charles, Picard, Hannibal, op. cit., p. 26- 35.

79- J. Leclant, «Les Talismans egyptions dans les necropoles», archeologie vivante, I, 2, p. 95- 102 (cf. p. 95- 99).

80- Bibliographie dans J Ferron, «le dieu des inseriptions d'Antas (Sardaigne)», Studi Sardi, XXII, 1971- 1972, p. 3- 23.

80 bis- C. Picard, «Les Representations de sacrifices molk sur les ex- voto de carthage», Karthago, XVII, 1973- 1974 (1976), p. 67- 136,

انظر خصوصاً ص 67 : «حوالي سبعة آلاف نذر كانت تشكل تقدمة قربانية لمولك، على أرض قرطاجة، منذورة إلى بعل حمّون وتعينت بني بعل، توجد الآن مبعثرة في المتاحف».

81- من أجل هذه النقوش انظر.

P. Cintas, «le sanctuaire punique de Sousse», Revue africaine, XC, 1947, p. 44- 45 (stele- 289); M. Fantar et C. Gilbert ch. Picard, «steles puniques de carthage», Revista di Studi Fenici, III, 1, 1975, p. 52.

82- انظر ملاحظات:

L. Maurn, «Himilcon le Magonide, Crises et mutations a Carthage au debut du IVe siecle», Semitica, XII, 1962, p. 5- 43.

83 عن هذه النقطة انظر:

S. Gsell, op. cit., t. IV, p. 377- 390; P. Cintas, «Le Signe "de Tanit". Interpretation d'un symbole», areheologie vivante, I, 2, p. 4- 12; C. Picord, «Genese et evolution des signes de la Bouteille et de Tanit a Cathage», cahier de Byrsa , I, 1951, P. 15- 180, Pl. I- XXXIX; A. M. Bisi, le stele puniche, Rome, Istituto di studi del vicino oriento- Universita degli stude, 1967.

84- S. Gsell, op. cit., t. IV, p. 378.

85- J. Ferron, «Le caracters Solaire du dieu de carthage» Africa, I, 1966, p. 41- 59- pl. I et II.

86- M. Fantar, «Pavimenta punica», stdi magrabini, I, 1960, p. 57- 65.

87- Cf. J- G. Fevrier, «Essai de Reconstitution du sacrifice Molk», Journal asiatique, CCXLVIII, 1960, p. 167- 187.

88- L. Foucher, «Les representations de Baal Hammon», Archeologie vivante, I, 2, P. 131- 134.

89- P. Cintas, «Le Sanctuaire Punique de Sousse», op cit., p. 13- 12.

90- J G. Fevrier, op. cit., p. 177- 179; S. Moscati, «Il socrificio dei fanciulli», Rendiconti della pontificia Accademia Romana di Archeologia, XXXVIII, 1965- 1966.

91- P. Cintas. Manuel d'archeologie punique, I, op. cit., p. 313; sur le sanctuaire, cf p. 311- 429.

92- P. Gauckler, op. cit., p. 518.

93- P. Citas et E. G. Gobert,«les tombes du Jbel Mlezza», Reve tunisienne, 37- 40, 1939, p. 135- 198. (cf. p. 190sq- tombe 8).

94- عن تفسير هذه اللوحة ومع تطور المعتقدات الأخروية
وطرق التعبير عنها انظر إلى الآراء القيمة لـ:

M. Fantar, Eschatologie phenicienne punique, Tunis, Institut national d'archeologie et d'arts, coll. «notes et Documents», 1970.

95- J. Ferron, op. cit., (note 59), p. 201.

96- عن هذا الموضوع، وعن حملة هانيبعل بشكل عام، انظر:

G. Charles- Picard, Hannibal, op. cit., p. 266- 267;

وعن خط سير هانيبعل عبر جبال الألب، انظر:

Jean prieur, La Savoie antique- Recueil de documents, «Memoires et documents publies par la societe savoisienne d'histoire et d'archeologie», t. LXXXVI, 1977, p. 57

97- عن هذا الموضوع انظر الملاحظات التي أوردها:

C. Saumagne, La Numudie et Rome. Masinissa et Jugurtha, publications de l'universite de Tunis, Faculte des Lettres et Sciences humaines, Paris, 1966, p. 93- 95.

98- Cf. L. Derache, «Les fouilles de Ksar Toual Zammel et la question de Zama», Melanges d'archeologie et d'histoire de l'Ecole francaise de Rome, LX, 1948, p. 55- 104 - Specialement, p. 87; H. H. Scullard, Scipio Africanus, Solidier and Politician, Londres, Thamas et Hudson, 1970, p. 271- 274.

ملاحظة إضافية على الطبعة الجديدة (الثالثة) :

تمكنت البعثة الدولية التي عملت في أطلال مدينة قرطاجة منذ عام 1974 ، برعاية «اليونسكو» ، من الوصول إلى نتائج تناقض بشكل تام النظريات «الكلاسيكية» ، مثل اكتشاف الأحواض الجافة في «جزيرة القيادة البحرية» والتي بُنيت فوق منشآت ترقى إلى الحقبة البونية المتأخرة . إن هذا يسمح لنا بالتأكيد أن هذه الجزيرة والمرفأ الدائري كانت تضم الكوثون الحربي الذي وصفه لنا «آبيان» [ملاحظة المؤلف رقم 36]، كما أن المرفأ التجاري كان يوجد على البحيرة الشاطئية الملاصقة للجزيرة . إضافة إلى ذلك ، كشفت الأبحاث المتواصلة في تل «بيرسا» عن حي سكني بوني (بداية القرن الثاني ق . م) ، وشبكة من الطرق ومواضع لمنشآت تعدينية (القرنان الرابع والثالث ق . م) . كما كُشف عن مساكن هامة (القرن الثالث ق . م) ، غنية بأرضياتها المفروشة بالبلاط ، وذلك في القطاع المحاذي لشاطيء البحر (على مقربة من الإدارة المكلفة بالحفاظ على موقع قرطاجة) .

عن هذه المساهمات بالأبحاث الآثارية ، انظر:

Les Comptes rendus de H. Hurst, «Excavations at Carthage, 1976. Third Interim Report», The Antiquaris Journal, LVII, 1977, p. 232- 261; H. Hurst et L. E. Stager, «A metropolitan landscape: the late Punic port of Carthage», World Archaeology, 9 (3), fevr. 1978, p. 334- 346; S. Lancel, «Fouilles froncaises a Carthage. La colline de Byrsa et l'occupation punique (Villes- 146 av. J.- C.). Bilan de sept annees de fouilles» CRAI, 1981, p. 156- 193; F. Chelbi, «Decouverte d'un habitat punique sur le flanc sud- est de la colline de Byrsa», Bull. CEDAC (Carthage), 3, 1980, p. 29- 39; F. Rakob (Rapport sur la compagne de travail 1961), ibid., 4, 1981, p. 12- 14.

ملحق للطبعة الثالثة

من بين المقالات والكتب، ذات الأهمية المتفاوتة قيمتها، والتي تبحث في قرطاجة البونية وحضارتها، اعتمدنا بكثير من الفائدة:

S. E. Tlatli, La Carthage punique, Paris- Tunis, 1976; le chapitre de M. Sznycer, «Carthage et la civilisation punique», dans 'Rome et la conquete du monde mediterraneen', t. 2. 'Genese d'un empire', sous la direction de C. Nicolet, Paris, 1978; S. Lancel, 'La Colline de Byrsa a l'epoque Punique', Paris, 1983 (ce petit guide mentionne, en bibliographie, les «Rapports preliminaires des fouilles» menes surce site entre 1974 et 1978).

يمكن أن نقرأ أيضاً المقطعين II و III، وهما تحليل أساسي عن تاريخ «الأبوة الفينيقية» والحضارة البونية ـ في كتاب:

F. Decret et M. Fantar, «L' Afrique du Nord dans l'Antiquite des origines au Ve siecle», Paris, Payot, Coll. Bibliotheque historique, 1981

وأخيراً، فإن كراسات «البيليوغرافيا التحليلية لأفريقيا الشمالية القديمة» تشير في اصداراتها السنوية إلى جميع الأعمال والمنشورات المستندة على المكتشفات الأثارية التي ظهرت حتى الآن، بما فيها تلك التي تخص أفريقيا البونية والعالم البوني عموماً.

(Ecole francaise de Rome, Paris, diffusion de Boccard).

مراجع المؤلف

F. Barreca, La Civilta di Cartagine, Cagliari, Fossataro, 1964. (Avec la collaboration d'autres specialistes): L'espansione fenicia nel Mediterraneo, Rome, Centro di Studio per la civilta fenicia e punica- Cansiglio Nazionale delle Ricerche, 1971; df. note 62.

A. Berthier et R. Charlier, Le Sanctuaire punique des steles d'Elhofra a Constantine, Paris, Arts et Metiers graphiques, 1955,

A. M. Bisi, La ceramica Punica. Aspetti e problemi, Naples, L'arte tipografica, 1970; cf. note83.

J. M. Blasquez, Taartessos y los origenes de lacolonizacion fenecia en Occidente, Salamanque, Universitad, 1968 (1975, 2e ed. corrigee et completee).

S. F. Bondi, «I Libifenici nell'ordinamento cartaginese», Atti della Accad. naz. dei Lincei, CCCLXIII, 1971, ser. VIII, rendiconti, clas. di So. mor., stor. e filol., XXVI, 7- 12, p. 653-661.

J. - P. Brisson, Carthage ou Rome?.Paris, Fayard, coll. «Les grandes etudes historiques», 1973.

«Carthage, Sanaissance- sa grandeur. Les collections puniques des musees du Bardo, de Carthage et d'Utique», Archeologie vivante, vol. I, no 2, Paris, Les publications d'art et d'archeologie 1969.

P. Cintas, Manuel d'archeologie punique, I, Histoire et Archeologie compareesChronologie des temps archaiques de Carthage et des villes phenicienne de l'Ouest,

Paris, A. et J. Picard, 1970; II, La Civilisation carthaginoise- Les realisations materielles, Paris, A. etJ. Picard,1976; Amulettes puniques, Tunis, Institut des Hautes Etudes, 1946; cf. notes 13, 22, 23, 48, 64, 81, 83, 93.

G. Contenau, La Civilisation phenicienne, Paris, Payot, 1949, 3e ed.

J. Deneauve, Lampes de Carthage, Paris, Centre national de la Recherche scientifique, 1969 (reimpression 1975).

R. Dussaud, Le Sacrifice en israel et chez les Pheniciens, Paris E. Lerox, 1914.

A. Ennabli et S. Slim, Carthage- le site archeologique, Tunis, Les Guides Ceres, 1973.

M. Fantar, Carthage, la prestigieuse cite d'Elissa, Tunis, Maison tunisienne de l'Edition, 1970; cf. notes 46, 56, 62, 81, 86, 94.

J. Ferron, Mort- Dieu de Carthage ou les Steles funeraires de Carthage, coll. Cahiers de Byrsa, serie «Monographies», t. II, Paris, P. Geuthner, 1976; cf. notes 50, 52, 59, 80, 85.

G. Garbini, «I Fenici in Occidente», Stude Etruschi, XXXIV, 1966, p. 111- 147.

A. Garcia y Bellido, Fenicios y Carthaginenses en Occidente, Madrid, 1942; cf. note 70.

S. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, T. I- IV, Paris, Hachette, 1913- 1920; cf. note 44.

D. Harden, The Phoenicians, Londres, Thames & Hudson, coll. «Ancient Peoples and Places», 1962; «The Pottery from the Paraecinct of Tanit at Salammbo, Carthage», Iraq, 4, Londres, 1937, p. 59- 69.

M. Hours- Miedan, Carthage, Paris, PUF, coll. «Que sais- je?», 1964, 3e ed.; cf. note 83.

A. Jodin, Mogador, comptoir phenicien du Maroc atlantique, Tanger, Editions marocaines et internationales, 1966.

G.- G. Lapeyre et A. Pellegrin, Carthage punique, Paris, Payot, 1942.

A. Lezine, Architecture punique. Recueil de documents, Paris, PUF, 1962.

S. Moscati, Il mondo dei Fenici, Milan, Il Saggiatore, 1966; I Fenici e Cartagine, Turin, Unione Tipografico- Editrice Torinese, coll. «Societa e costume», 1972; cf. notes 10, 19, 20, 82.

A. Parrot, M H. Chehab, S. Moscati,Les Phéniciens - L'expansion phénicienne, Carthage, Paris, Gallimard, coll. «L'Univers des forme», 1975

G. Pesce, Sardegna punica, Cagliari, Fossataro, 1961.

C. Picard, Carthage, Paris, Les Belles Lettres, 1951; Catalogue du musee Alaoui, nouvelle serie, «Collections puniques», I, Tunis, La Rapide, 1957; cf. notes 52, 80 bis, 81, 83

G. Charles- Picard, Les Religions de L'Afrique antique, Paris, Plon, 1954; cf. notes 51, 71,.

G. et C. Charles- Picard, La Vie quotidienne a Carthage au temps d'Hannibal, Paris, Hachette, 1958; vie et Mort de Carthage, Paris, Hachette, 1970.

M. Ponsich, Necropoles phéniciennes de la region de Tanger, Tanger, Editions marocaines et internationales, 1967.

M. Tarradell, Marruecos punico, Tetuan, Instituto Muley el- Hasan, Uuniversitad de Rabat, 1960.

G. Vuillemot, «Fouilles puniques a Mersa Madakh», Libyca, II, 1954, p. 299- 342; cf. note 69.

B. H. Warmington, Carthage, Londres, R. Hale & Co, 1960 (trad. fr. Paris, Payot, 1961).

(Pour suivre les divers travaux consacres a l'Afrique punique, voir les chroniques publiees depuis 1967 par J Desanges et S Lancel, Bibliographie analytique de l'Afrique antique, Paris, ed. E de Boccard)

محتويات الكتاب

تقديم ٥
مقدمة المترجم ٩
وقفة في قرطاجة ١٣
الفصل الأول: «ياصورا! أنتِ قلت: أنا كاملة الجمال...!» ١٧
- من الكنعانيين إلى الفينيقيين. الممالك الفينيقية.
- «فينيقيون يحملون مجموعة من الحلي في مراكبهم السوداء».
- الروّاد الفينيقيون على الشواطىء الغربية للبحر الداخلي (المتوسط).
- «إن الجزائر تنتظرني وسفن ترشيش في الأول لتأتي ببنيك من بعيد، وفضتهم وذهبهم».
الفصل الثاني: قرت حدَشت - المدينة الجديدة ٥٣
- من الإسطورة إلى التاريخ: الملكة «إليسار».
- عاصمة قلب المتوسط.
- من المرافىء إلى الأكروبول.

الفصل الثالث: المدينة والناس ٧٧
ـ «لقد عُرف القرطاجيون بأنهم منظمون بشكلٍ جيد. كما أن دستورهم هو أرقى بكثير، وفي نواحٍ عديدة، من الدساتير الأخرى».
ـ جنود قرطاجة. ـ الحياة اليومية في قرطاجة.
الفصل الرابع: امبراطورية البحر ١٠٩
ـ «لقد ابتكر البونيون التجارة».
ـ «التوسع» البوفي في أفريقيا.
ـ طرق الثروة.
الفصل الخامس: الآلهة ١٣٥
ـ «إلى الربة «تعنيت» وجه «بعل» والإله «بعل حمّون».
ـ مولوك «مولوخ» وتوفت.
ـ «تصورات مابعد الموت».
الفصل السادس: الحروب والمواجهة مع روما ١٥٥
ـ من الوفاق الودي إلى الحرب ـ حرب صفلية.
ـ حرب المرتزقة و«الحرب الأفريقية».
ـ «حرب هانيبعل».
الفصل السابع: «علينا أن نزيل قرطاجة من الوجود» ٢١٧
ـ ملاحظات المؤلف وملحقات الطبعة الثالثة من الكتاب ٢٢٥
ـ مراجع المؤلف ٢٣٩

قرطاجة

. . . استطاع المؤلف في هذا الكتاب اختصار سبعة قرون من الحضارة والحرب وتوزيعها في سبعة فصول، بدأها بلمحة عامة عن قرطاجة، منتقلاً بعدها إلى مدخل مسهب في تاريخ الكنعانيين ووصف عام لطبيعة الساحل السوري. وتحدث في الفصل الثاني عن بدايات قرطاجة مورداً الاسطورة الكاملة عن مؤسستها الملكة «إليسار» ومنشئة هذه المدينة التي مالبثت أن برزت في قوة الامبراطوريات، إضافة إلى وصف دقيق لمرافقها ومبانيها العامة. وفي الفصل الثالث يتحدث الكاتب عن الحياة العامة بمختلف جوانبها السياسية والإدارية والاجتماعية ويصف بإسهاب، معتمداً على «أرسطو»، دستور قرطاجة الشهير في تلك الأيام، وينتقل الكاتب بعدها للحديث عن الجيش القرطاجي الذي صنع أمجاد الامبراطورية، ليسهب بعدها في الحديث عن مجالات الحياة المختلفة التي مارسها أهل البلاد من زراعة وفنون وصناعة . . . وفي الفصل التالي، يبرز مرحلة التوسع القرطاجي في أفريقيا والبحر المتوسط والرحلات الطويلة التي قام بها بحارة قرطاجيون سعياً وراء الثروة في شمال المحيط الأطلسي وجنوبه. منتقلاً بعدها إلى التفصيل في ديانة القرطاجيين. وتتجلى في الفصول التالية روعة الحقبة الدامية في تاريخ قرطاجة وتنازع البقاء بينها وبين روما، وكل ماتخلل ذلك من محاولات للهدنة والوفاقات التي كانت سرعان ماتنهار أمام طموح الجانبين للسيطرة على المكانة الأولى في العالم القديم، إلى أن يصل الكاتب في وصفه لتلك الكارثة النهائية التي بدأت بها اعتبره الرومان «الحل النهائي»، حيث زالت «سيدة البحار» من الوجود.

To: www.al-mostafa.com